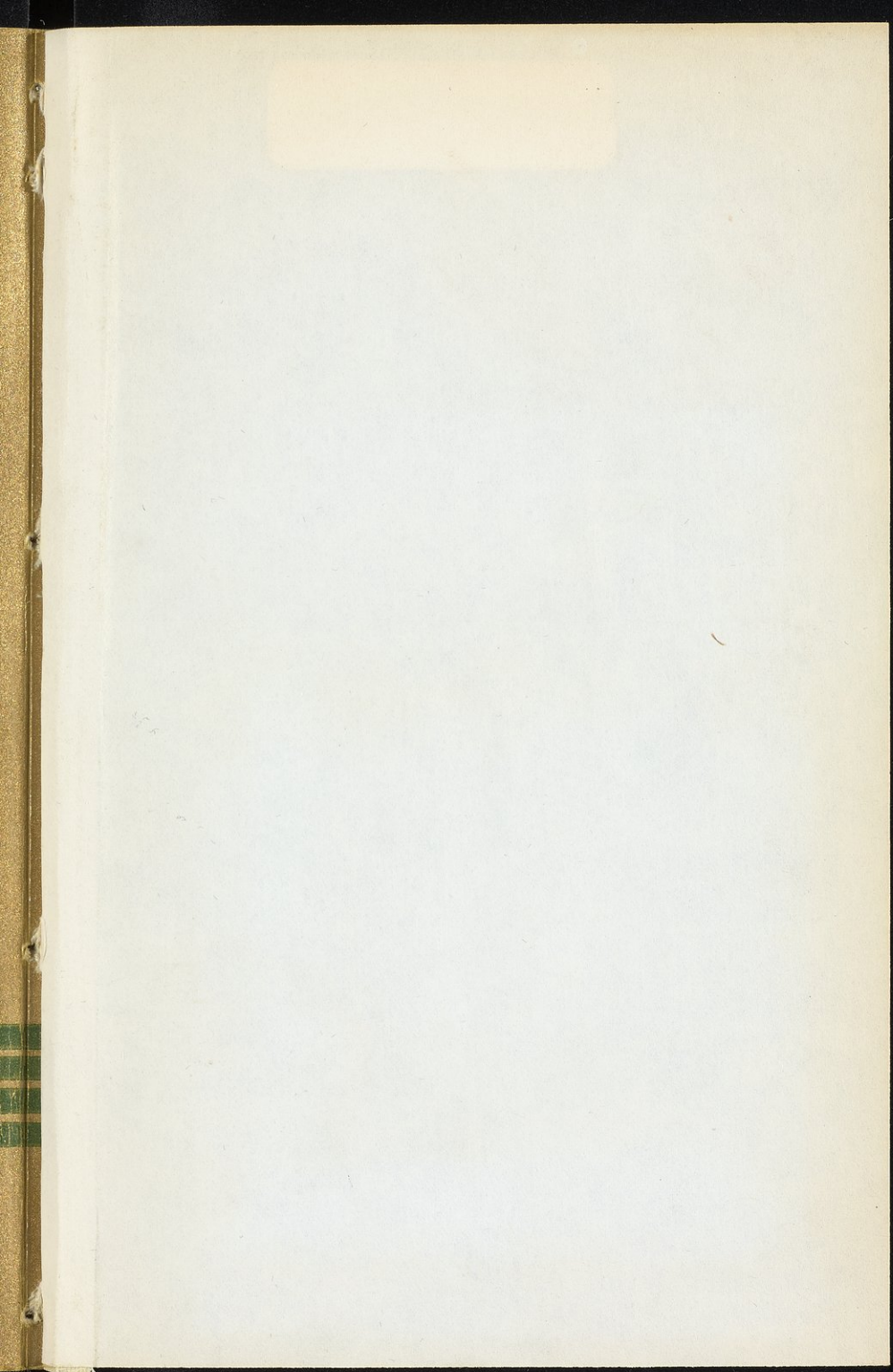


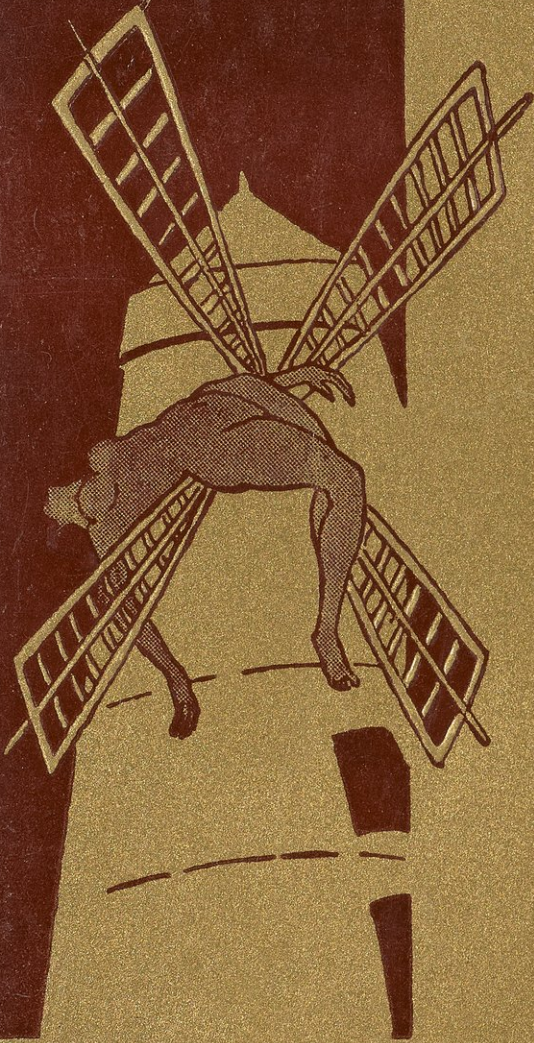
Princeton University Library



32101 072235888



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



فديتك
يا ابي

آثار على الرمال



10
11

al-Sibāʿī, Yūsuf



يوسف السباعي

Fadaytuki yā Laylā



فَدَيْتُكِ يَا لَيْلَى

آثار على الرمال

الناشر مكتبة الخانجي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعلنا من عباده
الذين هم خير من عباده
الذين هم خير من عباده
الذين هم خير من عباده

بسم الله الرحمن الرحيم

للمؤلف

أطياف الناشر مكتبة الخانجي
» » » نائب عزرائيل
» » » اثنتا عشرة امرأة
» » » خبايا الصدور
» » » يأمة ضحكك
» » » إثنا عشر رجلا
مكتبة النهضة » أرض النفاق
دار الفكر العربي » في موكب الهوى
مكتبة الخانجي » من العالم المجهول
دار الفكر العربي » هذه النفوس
مكتبة الخانجي » إني راحلة
دار الفكر العربي » مبكى العشاق
مكتبة الخانجي » بين أبو الريش وجنينة ناميش
» » » أغنيات
» » » أم رتيبة (تمثيلية)
دار الفكر العربي » هذا هو الحب
مكتبة الخانجي » صور طبق الأصل
» » » بين الأطلال
» » » السقامات

2274

8799

.333

سمار الليالى	الناشر دار الفكر العربى
الشيخ زعرب	مكتبة الخانجى
فحة من الإيمان	دار الفكر العربى
وراء الستار (تمثيلية)	نادى القصة
ست نساء وستة رجال	مكتبة الخانجى
هذه الحياة	دار الفكر العربى
البحث عن جسد	مكتبة الخانجى
جمعية قتل الزوجات (تمثيلية)	النهضة المصرية
فديتك يا ليلي	مكتبة الخانجى
ليلة خمرة	نادى القصة
همسة غابرة	دار الفكر العربى
رد قلبي	مكتبة الخانجى
ليال ودموع	» » »

مفرد الطبع والتمثيل محفوظة للمؤلف

الأهداء

إلى العزيز الذى لم أهد له بعد كتابا وهو أحق الأعزاء
بالإهداء .

إلى قارئى المجهولة ؛

وقارئى المجهول :

إلى صديقى الروح اللذين أوثقت الكتب عرى المحبة بيننا

دون أن يرى أحدنا الآخر .

أهدى كتابى هذا .

رمز صداقة روحية خالصة .

بومف السباعى

مقدمة

في إحدى جلساتنا بنادى القصة جرى الحديث حول حجم الكتب وطرق الطباعة ... والمعروف أن الأستاذ توفيق الحكيم من أشد أنصار الكتب « النافثة » ذات الحروف الكبيرة والسطور القليلة والفراغ الكثير وقد قال توفيق الحكيم إن أحد أصدقائه قال له : أنت تسرقنا بهذه الحروف الكبيرة ؛ فقال له الحكيم : قد أسرق جيبك بالحروف الكبيرة ، ولكنى بالحروف الصغيرة سأسرق بصرك ... وسرقة الجيب قد تعوض ولكن سرقة البصر لا تعوض .

أذكر هذا الحديث لما أثاره بعض القراء في رسالتهم عن ارتفاع سعر كتي ... وهم يعترفون أن الكتب ياخراجها الخالي تستحق هذا الثمن أو أكثر ولكنهم يقولون : إنى أستطيع طبعها بحروف أصغر وعلى ورق أقل فيمكن بذلك خفض ثمنها .

أوافقهم على ذلك وأؤكد لهم أنى بهذه الطريقة لا أخفض سعرها فحسب بل أضعف ربحى وريح الناشر ، وأن هذا الاعتراض قد أثاره وألح عليه الناشر « السيد نجيب الخانجي » قبل أن يثروه هم ، ولكنى أضرت على طريقي فى الطباعة والإخراج وعلى أن أضيع ربحى وريح الناشر ، وأن أرهق القارىء من أمره عسراً .

وأكبر دليل على ذلك ... هذا الكتاب الجديد الذى أقدمه إليه ... أهى سخافة ... أم عناد .. أم نوع من الجنون « وعلى قدر الهوى اختلف الجنون ، لست أدرى السبب ... ولا أظن — لو كان أحد هذه الأسباب —

أني سأعترف به بسهولة... فما من سخيف اعترف بسخفه أو عنيد بعناده
أو مجنون بجنونه .

ولكنني أجزم أنني لا أكره القارىء إلى الحد الذي يجعلني أصرّ على
إرهاقه بلا مبرر... بل إنني على التقيض أحبه ولا أظنني رفضت إهداء كتاب
من كتبي طلبه مني قارىء. ما دمت أملك الكتاب... وأجزم كذلك أنني
لا أكره الناشر إلى الحد الذي أمنع عنه الربح... وأجزم أيضا أنني لا أكره
نفسى وأنى لست من السفاهة بحيث أرفض المزيد من المال .

كل ما في الأمر أنني أحب الجمال أكثر مما أحب نفسي والقارىء والناشر.
إنني أستطيع أن أكون متواضع الخلق، ديمقراطي التفكير والتصرف؛
ولكنني لا أستطيع التنازل عن أرستقراطية الكتب... ولا أستطيع أن
أرى لى كتابا رث الطباعة هزيل الورق .

قولوا عني عنيد أو سفیه أو مجنون .

وانصرفوا عن كتبي إذا أردتم... أو إذا عجزتم عنها، ولكنني لن
أخرجها أقل رونقا .

كل ما أستطيع أن أعزى به قارئى العزيز أن أعده — إذا أغنانى الله —
أن أوزع كتبي مجانا... بنفس الطباعة والورق والإخراج .

يوسف السباعى

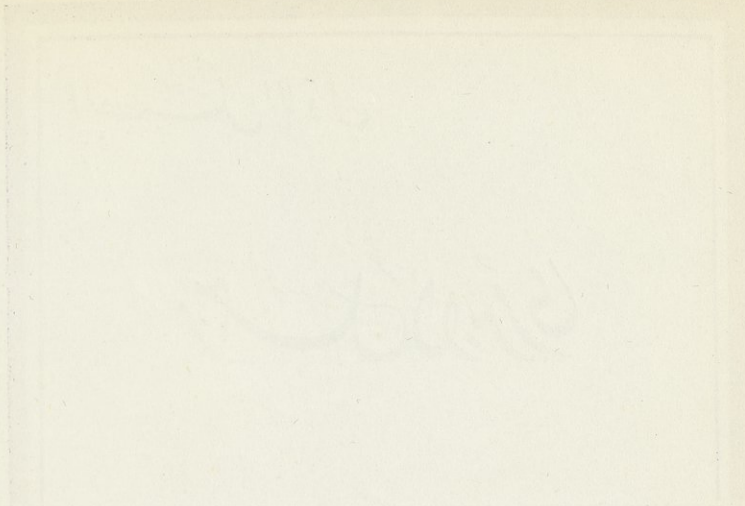
الصور بريشة الفنان

« جمال لامل »

الفصل الأول

رسالة لذيبي





ضباب كثيف في أخذود من الرمال . . كان يحاول
دائماً أن يشق طريقه فيه . . وساقاه يحس بهما متاقلتان
كأنهما قد شدتا إلى الأرض بأثقال تجعل السير وئيداً
عسيراً .

وهو يحاول أن يدفع نفسه إلى الأمام دفعاً لا يكاد
ينزع قدمه الغائصة في الرمال الناعمة حتى يدفعها لكي تغوص
في الرمال مرة أخرى .

ورغم كل ذلك فقد كان يجاهد في التقدم جهاد
المستमित . . غير عابئ بثقل قدميه أو بلين الرمال . . كان
يريد الخلاص من ذلك الضباب المتكاثف الذي يكاد يكتم
أنفاسه . . وكانت به لهفة على أن يبصر ما وراء تلك
الظلمات المعتمة .

إن هناك لاشك شيئاً في نهاية ذلك الأخدود الضيق
العميق . . شيئاً يريد الوصول إليه ولو بشق الأنفس . .
شيئاً هاماً حيويًا يشعر أن حياته معلقة به .

ماهو ؟ . . وما كنهه ؟ . إن ذهنه لا يستطيع تحديده
بالضبط . . هذه المشقة التي يعانها وسط الرمال الثقيلة

والضباب المعتم تستغرق كل تفكيره وتستنفد كل جهده ..
فتخلط عليه المراتب ويروح منها ذهنه في « دوامة » سريعة
تمزج كل مابه وتتركه عاجزاً حائرأ .

حسن .. ما عليه من بأس .. ليتقدم .. ويتقدم ..
لا داعي للتفكير .. كل ما عليه هو أن يثابر على السير ..
وينتزع أقدامه المثقلة بالحديد .. من الرمال المطبقة عليها
فيخطو الخطوة تلو الخطوة .. في جهد ومشقة .. وجلد
واستماتة .. إنه لا بد في النهاية واصل .

ورفع يده فمسح بها قطرات تندى بها جبينه .

عرق !!! .. أم رشاش ؟

ولكن من أين له الرشاش وسط هذه الرمال ؟ ! إنه
عرق .. لشد ما أجهد نفسه في السير .. ولكنته مع ذلك
لن يتوقف .

وهكذا استمر في السير .. بخطا مجهدة متناقلة ..
بلا تفكير في شيء سوى أن يبلغ النهاية ويصل إلى ذلك
الشيء الذي يريد الوصول إليه .
وبفأة توقف في مكانه .

ما هذا ؟ .. لقد سمع صرخة .. أجل .. صرخة حادة
شقت مسامعه .. أترأه وإهماً !!!

إنها تبدو وكأنها آتية من وراء الضباب .. مقبلة من
نهاية الطريق .. وكأنه بها صادرة من ذلك الشيء الذى يحدّ
فى الوصول إليه .

إنه إذا إنسان .. بدليل أنه يصرخ .. إنه يريد الذهاب
إلى إنسان .. أجل .. أجل .. رجل ؟! امرأة ؟! لا يذكر .
ولكن لماذا يصرخ هذا الشيء الذى فى نهاية الطريق ؟
لعله فى ضيق أو فى خطر ، وهو يريد أن يسعفه . إذا
فهو يعرف أنه قادم إليه .. لمَ إذا لا يكرر الصياح ؟ !
لمَ لا يصيح مرة ثانية وثالثة حتى يبلغه ؟! أ يكون عاجزاً
عن الصياح ؟! ألا يحتمل أن يكون قد أطبق عليه الخطر ؟!
أما يجب إذا أن يحث الخطأ إليه ؟! أجل .. يجب أن يسرع
جاهداً . قاتل الله هذه الرمال المنهالة تحت قدميه .. إنها
تعوقه عن العدو .

إلى متى هذا السير ؟! وما بال الغمة لا تنقشع ،
والضباب لا يتبدد ، والرمل لا تنقطع ! والطريق لا تبدو
نهايته ؟!

إلى متى كل هذا ؟! وماذا يجبره على السير .. أمن أجل
صرخة فى الهواء ؟! وصرخة من ؟ لا يدري ، بل ربما كانت
مجرد وهم من صنع الذهن المجهد والنفس المكدودة .

أف لكل هذا؟ يجب عليه أن يكف عن هذا السير
المضنى .. يجب أن يتوقف أو يعود القهقري .. ولكن إلى
أين؟! إنه لا يعرف .. لا يعرف شيئاً عن كل ما حوله ..
لاشئ سوى هذا الأخدود الممتد من الرمال ، والضباب
المحيط المتكاثف .

لا .. لا .. ليس أمامه سوى السير .. إن فيه على الأقل
أملاً في شئ .. أى شئ .

آه من ذلك الشئ لو يستطيع بلوغه !! .

وعاود السير مرة أخرى ينقل قدميه في أعياء وييل
شفتيه بطرف لسانه ، ويمسح بكففه قطرات العرق المتصبية
من جبينه .

ومرة أخرى أحس بقدميه تتسمران في الأرض هذه
المرّة لا لبس فيها ولا غموض ... لم تكن صرخة مبهمّة
كالمرة السابقة .. بل كان نداء واضحاً يميزاً .. كان نداء
باسمه عالياً حاداً يشق الفراغ المحيط به .

من أين أتى؟ .. من أمامه؟ أين نهاية الطريق؟ .

ماذا لك الشئ الذى يريد الوصول إليه؟ . لا يستطيع
أن يحدد بالضبط من أين أتى .. ولكنه مع ذلك يحزم

بسماعه .. قد يكون آتياً من أمامه .. أو .. من ورائه ..

من وراء؟!!

إذا فهناك من يناديه من وراء!

من؟ .. ولم؟ .. وماذا يريد منه؟

أيطارده؟ ربما .. إذا فهو مطارد .. من إنسان يعدو

وراءه ويلاحقه .. إذا فهذا الشيء كامن وراءه لا أمامه ..

وهو مجد في التأى عنه لا في بلوغه .. في الفرار منه لا في

اللحاق به .

ولكن لم يطارده؟! ماذا يبغى منه؟

وهنا تذكر أن يده اليسرى غير خالية .. إنه يحمل بها

حقيبة صغيرة .. آه .. تلك هي السبب .. إنها هي بغية

المطارد .. وغرض الملاحق .

وشدد عليها قبضته .. وأطبق عليها أصابعه .. حتى

نفرت عروق يده .

لن يمكنهم منها .. لن يستطيع أحد أن يأخذها

منه .. لن يجسر إنسان على الاستيلاء عليها أو فتحها .. أو

معرفة ما بها .

ولكن ماذا بها؟ لماذا يخشى عليها كل هذه الخشية؟ .

ماذا بها؟ .. ماذا بها؟ ويحه!! إنه هو نفسه لا يعرف

ماذا بها . ليفتحها إذا ويرى ماذا بها .
لا . . لا . . إنه لا يجسر . . إن ما بها مخيف ، مخيف
جداً . . ماذا بها ؟ . إنه يعرف . . لعن الله هذا الذهن
المضطرب والذاكرة المشوشة .
آه . . لقد تذكر .

اللثام . . السفلة . . إنهم يريدون ما بها . . لكي يودوا
به . . ويقضوا عليه .

إن بها مستند أدانته . . بها أدلة جنائمه . . أدلة حاسمة
لا تقبل شكاً ولا نقضاً . . بها آثار الجريمة . . وأكثر من
هذا . . بها السلاح الذي قتل به ضحيته .
إنه قاتل . . هارب يمعن في الابتعاد عن جريمته وعن
مطارديه . . حاملاً معه آثاره وسلاحه .

ولكن لم لا يقذف بها ويتخلص منها ؟ ! لم يلصقها
بنفسه . . ويقسمها شاهداً على كل ما فعل ؟ !
ارمها بعيداً . . أيها الأحمق .

لا . . لا . . إنه لا يستطيع . . إن أصابه تزداد بها
تشبهاً وعليها إطباقاً . . أترأه يخشى أن يعثروا عليها ، ويعرفوا
ما بها ؟ ! ربما . . ولكن هناك دافعاً أقوى من هذا يدفعه

إلى التثبث بها .. إنه يريد لها لنفسه .. إنه يحس أنها
جزء منه .

ولكن فيم وقوفه هكذا والمطارد لا بد في أعقابه ؟ !
إجر .. إجر .. تقدم .. تقدم .. انج بنفسك .. وفر
من أمامه .

ومرة أخرى عاود السير في استماتة واستيناس .

كان يتحرك بالقوة الدافعة من خلفه .. قوة الخشية
والخوف والرغبة في الفرار ، بعد أن كان يتحرك بالقوة
الجازبة من أمامه .. قوة اللهفة والشوق والرغبة في
الوصول .

وعادت قدماه تدفعان في الرمال وتنزعان منها .. وشمل
الضباب المحيط ذهنه كما شمل جسده .. ولم يعد يفكر في غير
شيء واحد .. السير .. السير إلى الأمام .. السير قدماً .
وأخيراً بدا له أنه قد وصل .

وصل ؟ .. إلى أين ؟ أنسى أنه مطارد هارب ؟ ! وأن
غرضه من هذا السير المنهك الشاق .. ليس الوصول إلى
شيء .. بل الفرار من شيء ؟ !

ولكنه مع ذلك يعتقد أنه قد وصل .. إن هناك

أصواتاً تناديه .. أصواتاً رقيقة ناعمة .. والضباب يوشك أن
ينقشع .. والرمال تزداد صلابة تحت قدميه .. وساقه
تشتدان والأثقال المعلقة بهما تخف شيئاً فشيئاً .. والرياح
تهب حاملة في طياتها نسيمات رطبة ندية تبدد بها الضباب
المخيم .

أجل .. إنه يوشك أن يصل .. إنه ليس بهارب ولا
قاتل .. يجب أن يجد في السير .. لا خوفاً بما وراءه .. بل
رغبة فيما أمامه .

وانطلق يعدو .. والأصوات المنبعثة من نهاية الطريق
تزداد وضوحاً .. إنها تهتف باسمه .. راجية مستعطفة ..
ذائبة .

إنها تناديه في شوق ولهفة .. وهو أيضاً يحس لها ذلك
الشوق وتلك الלהفة .. لِيَعِدَّ .. لِيَعِدَّ .. إنه يوشك أن
يبلغها .

إن الأصوات تزداد وضوحاً .. إنها تعلو .. تعلو ..
ولم يعد هتافها رجاء واستعطافاً ، بل أضحى استغاثة واستنجاداً .
اقترب .. اقترب .. إنها تريدك .. وإنها في حاجة إليك ..
أغنها .. أدركها .

إنه آت .. آت .. إنه يسابق الريح .. لحظة واحدة

ويصل إليها .. إن قوة خارقة تدفعه .. إنه لم يعد يحس
بالرمال ولا بقدميه على الرمال .. إنه لم يعد يجرى .. وإنما
يطير .. ليس له أقدام ، بل أجنحة .. ولم يعد يحس إلا
بالريح تلمح وجهه .

لحظات بعدها يصل .. ثوان .. بل أقل .

إنه آت .. آت .

وجأة .. وبعد أن قارب الوصول .. وبعد أن كادت
الرمال تنتهي والضباب ينقشع والنهاية تبدو .. أحس بموجة
رملية جبارة عاتية تبرز له فجأة كالسارد فتنبض عليه ..
وتصدمه صدمة عنيفة .. فيحاول المقاومة .. ولا تلبث
موجة أخرى أن تتلوها .. ثانية وثالثة .. وإذا صراعه
مع الرمال قد أضحى صراعاً مع الموج .. وثقل الساقين قد
أصاب الجسد كله .. ولم يعد يفيد في قهر الموج ضرب
ذراعيه ولا قرع ساقيه .. بل وجد نفسه يعلو بين براثن الموج
في عنف ويهبط في شدة .. وأنفاسه تتلاحق .. حتى يوشك
أن يختنق .

والأصوات ما زالت تصيح به .. مستنجدة مستغيثة ..
وهي تتباعد وراء الموج .. ضائعة بين صخبه ، متبعدة في

ضعيفه . . وقد أخذت تخفت شيئاً فشيئاً . . حتى
صمتت تماماً .

وأخيراً بدأت الأنواء تهبط وتنسبط . . وتوالت عليه
بمخفة الموجة تلو الموجة . . وتضائل الصراع وهدأ . .
وأضحت الرجات العنيفة من أسفل إلى أعلى بين طيات
الأمواج العاتية . . هزّات خفيفة لينة . . وتملكه استرخاء
المستلق في راحة عقب جهد عنيف . . ولم يعد يحس من
الصراع والضجة إلا بلبسات الموج المنتظمة تتوالى عليه
في رقة بين آونة وأخرى وكأنها جناح الطائر يمسّه
في رفق .

ومضت برهة وهو من حاله تلك في راحة تشبه الغيبوبة ،
لا يكاد يحس إلا بالهزّة المنتظمة والمسة المتواترة .
أجل . . استمرت الهزّة . . وتوالت المسة . . ولكن
لا من موج سائر ولا من جناح طائر . . بل من أشياء أثبت
وأكثر صلابة . . أشياء مملوسة محدودة . . غير مبهمة ولا
مشوشة ، ولا مضطربة ولا موهومة .

لقد أضحت هزّة الموج هزّة مقعد وثير جلس عليه
مسترخياً بجوار نافذة . . وأضحت مسة جناح الطائر المتوالية
المنتظمة أشياء تمر من وراء زجاج النافذة مروراً خاطفاً

لاتكاد تقبل حتى تذهب ، ولا تكاد تظهر حتى تختفي .
إنها أشياء متحركة .. أشبه بالقوائم أو الأعمدة .. بل
إنها أعمدة فعلا .. أعمدة « تلغراف » .. أو جذوع شجر ..
أو خليط من هذا وذاك .

ولكن ما الذى يحركها ؟ !

ويحه !! ما أعجابه !! إنه هو الذى يتحرك .. أو هو
الذى يجلس فى شئ متحرك .. أجل .. أجل .. هذا
الحيز المحدود والمقاعد المتراسة ، والنوافذ الزجاجية ،
والرفوف الشبكية ذات الحقائق لا بد أن تكون فى
عربة قطار .

وبدأ الصغير يتصاعد حاداً من القاطرة أشبه بصرخات
الاستغاثة .

إذا فهو على سفر .. وكل ما مر به لا يعدو أن يكون
أضغاث أحلام . ولكن لماذا السفر ؟ إلى أين ؟ ومن أين ؟
أهو متجه إلى شئ .. أم هارب من شئ ؟ !
مرة ثانية لا يدرى .. تماماً كما كان لا يدرى وهو
يعدو فى الرمال الثقيلة والضباب المعتم .. إلى أين ؟ !
ومن أين ؟
لا يدرى .. لا يدرى .

بل إنه لا يدري الفاصل بين الحلم والحقيقة . .
واليقظة والغفوة . . إن كل ما في ذهنه مبهم مشوش
مضطرب .

أين الأحلام من اليقظة ! وأين اليقظة من الأحلام !!
متى يكون في حلم ، ومتى يكون يقظانا ؟! من هو ؟! وماذا
يريد ؟! إلى أين يذهب ؟! ومن أين أتى ؟
إنه لا يدري . . لا يدري .

كل ما يدريه عن نفسه . . هو أنه لا يدري شيئاً ،
ولا يحس بشئ . . إلا ذلك الحزن المبهم والخوف
الغامض .

وبحركة لا إرادية أطبق قبضته اليسرى بشدة
وعنف .

وأحس بشئ من الطمأنينة وهو يجد الشئ الذي أطبق
عليه بيده مازال موجوداً . . أجل . . كانت الحقيبة ما زالت
في موضعها .

حمداً لله . . لن يستطيعوا أخذها منه . . ولن يستطيعوا
رؤية ما بها . . إنه يريد . . ويخشى مما بها .
إن بها حياته . . وفيها حنفته .

أهو قاتل حقاً ؟! من قتل ؟ ومتى ؟ وكيف ؟ . . يجب

عليه أن يهرب .. يجب أن يعدو .. يعدو .. بدل أن يجلس
هكذا مسترخياً متخاذلاً .

ومرة أخرى أحس أنه يوشك أن يخوض أخدود
الرمال .. ويغرق في أمواج الضباب .. عندما وجد يداً
تربت ساقه برفق .. وسمع صوتاً رقيقاً بجواره
يقول له :

— لقد وصلنا .. إن القطار يدخل المحطة ...
هيا بنا .

وجذبه الصوت مما أوشك أن يهوى إليه .. وتلفت
إلى مصدره فوجد رجلاً يجلس بجواره .. ميّز فيه ذلك
الوجه الباسم اللطيف الذي رافقه من أول السفر .. والذي
رافقه أيضاً قبل هذا .. بل يذكر أنه يرافقه دائماً
أينما حل .

إنه مطمئن إليه .. فوجهه يوحى بالثقة والطمأنينة ..
وقد تذكر أنه قال له أنه صاحبه .. صاحبه؟! من؟! ..
لقد نسي الاسم .. كما نسي كل شيء .. ولقد حاول أن يذكره
بأشياء لم يستطع أن يذكرها .

لا يهم كل هذا .. المهم .. هو أن هذا الرفيق .. مبعث
أمن وطمأنينة .. ولا يبدو منه ضير ولا خطر .. وليس

هناك ضرر في أن يستمع إليه ويتبعه ما دام هو نفسه لا يدرى .. إلى أين يذهب .. ولا ماذا يفعل .

فقط .. يجب أن يحرص على شيء واحد .. وهو

الحقبة !

يجب أن يطبق عليها جيداً .. يجب ألا يغفل عنها أبداً .. يجب ألا يسمح لأحد - أياً كان - أن يمسه أو يحاول فتحها أو الاستيلاء عليها .

وعاد يشدد القبض عليها وهو ينهض متبعاً صاحبه .. وخرجا من باب الديوان الذى كانا يجلسان فيه والذى قد خلا إلا منهما .. ودلفا من الممر الضيق حتى وصلا إلى باب العربة ثم هبطا إلى الرصيف وسارا بين الجموع المتحركة إلى خارج المحطة .. وعبرا الباب الذى وقف عليه عامل التذاكر . وفى الخارج دلفا إلى إحدى عربات الأجرة .. وصاح صاحبه بالسائق :

- شارع ماسيرو .

تحركت العربة ومال هو إلى الورا متكئاً بظهره على ظهر المقعد وأطلق تنهيدة تحمل بعض الراحة والطمأنينة .. لقد كان فعلا يحس أنه أكثر طمأنينة وهو فى العربة منه وهو سائر فى فناء المحطة وسط الجموع المتحركة وبين صياح

باعة الصحف والجمالين . لقد كان المنظر مألوفاً لديه ، ولكنه
مع ذلك كان يشعر منه بكثير من قلق وخشية .

هذا الزحام ، وتلك الصيحات والنداءات كانت تخيفه
وتقلقه . . كان يخشى أن يتسلل نحوه أحد هؤلاء المحيطين به
فينخطف الحقيبة ويعدو بين الناس فاضحاً أمره . . ولكن
ما شأن الناس به ؟ وبحقيبه ؟

من يدري . . ربما كان أحدهم يعرف .

يعرف ماذا ؟

يعرف أنه قاتل .

قاتل ؟ . . أهو قاتل حقاً ؟

أجل . . أجل . . إنه قاتل . . إنه يحس بعبء جريمته
يثقل على روحه ويطبق على أنفاسه .

ولكن ليس هناك من يعرف جريمته غيره . . أو على
الأقل هذا هو ما يخيل إليه . . ليس هناك من يتهمه بشئ . .
كل من حوله ينظرون إليه نظرة طبيعية جداً . . أو على
الأقل هذا هو ما يبدو منهم .

صاحبه مثلاً . . هذا المخلوق الرقيق الجالس بجواره . .
إنه يعامله معاملة إنسان شريف مهذب . . وليس بمجرم
ولا قاتل .

إنه قطعاً .. لا يدرى .
أم هو نفسه الذى لا يدرى ؟
من يدرى ؟!

يدرى !! لا يدرى !! تلك هى مصيبتته .. هذا
الذهن المشوش المضطرب .. والنفس الضالة الحائرة ..
الخائضة فى أهدود الرمال .. التائهة وسط الضباب ..
الغريقة بين الأمواج .. المتقلبة بالشعور بالوزر ..
المدعورة .. الخائفة الوجلة .. التى لا يقر لها قرار ..
والتي لا تفتأ تعدو أبداً .. هاربة من مجهول .. متلهفة
على مجهول .

أنى له أن يدرى شيئاً .. بعد كل هذا ؟!
ولكن أخير له أن يدرى .. أم يظل متخبطاً فى دياجير
تلك ؟! لا .. لا يجب أن يدرى شيئاً .

هذا الشخص الجالس بجواره مثلاً قد أنبأ أنه صاحب
قديم له ، عزيز عليه .. ومع ذلك هو لا يذكره .. أبداً ..
ولقد أنبأ باسمه .. فنسيه .. كيف يخاطبه الآن ؟!
لا ضرورة لمخاطبته .. إن أفضل شئ له أن يلوذ
بأهداب الصمت .. هذا هو آمن الطرق .. إن خير ما يستر
به حاله .. هو ألا يتكلم .. لا داعى لأن يدرى شيئاً ..

يكفي أنه جالس في أمان ، ويكفي أن تكون قبضته مشددة
على الحقيقة .

وعاد يضم الحقيقة إليه جيداً ، ويشدد عليها قبضته .
وكانت السيارة تشق طريقها في شارع الملكة . . . وكان
الوقت قبيل الغروب ووقفها المرور عند تقاطع شارع فؤاد
بجوار مبنى الاسعاف .

وتلفت حوله يستطلع جلية الأمر . . . فيم وقفها؟ . .
وما هذه العربات المتكاثرة حولها؟ ! لماذا لايسرون؟ !
هل هناك شيئاً؟ !

وعاودت العربة سيرها . . هذا الطريق يعرفه جيداً . .
لقد سبق له أن مرّ به فيما مضى . . متى؟ . . لا يذكر . .
ولكنه يعرف هذه المباني ، وهذه الحوانيت . . هذا الجامع
القائم على يمينه ليس بغريب عليه . . لا . . ولا هذه
المدخنة السوداء العالية . . ودارت العربة جهة اليمين
في طريق أفضى إلى ساحة واسعة تشققها بضعة خطوط ترام
وتقوم في زاوية منها كنيسة ضخمة تعلوها القباب
والأبراج . . هبطت الشمس من وراءها فصبغت قممها
بلون الأرجوان .

هذا المنظر أيضاً ليس بغريب على ناظره . . إنه يستطيع

أن يحزم بأنها ليست المرة الأولى التي يمر فيها بهذا المكان ..
ولكن متى كانت المرة الأولى .. منذ بعيد .. أم قريب؟!
لا شك منذ بعيد جداً .. فالصورة في ذهنه شاحبة
باهتة .

وزاد انحراف السيارة يميناً وعبرت الساحة سائرة في
طريق قامت المباني على يمينه ، وعلى يساره امتد سور حجري
منخفض حجز الطريق عن شاطئ النهر ، ومن ورائه من
خلال الأشجار المتدلية فروعها .. بدت مياه النهر تتزقق
متألقة في أشعة الشمس الهابطة .

واستراحت نفسه إلى المنظر الجميل المرسوم أمامه ..
واستغرق في تأمله ، ولكنه لم يلبث حتى أفاق على صوت
رفيقه يصيح بالسائق :

— يمينك .. عند الباب القادم .

ووقفت العربة وهبط صاحبه فنقد السائق أجره ، ولم
يجد بداً من الهبوط وراه ، وسارت العربة ، ووقف
الاثنان في مدخل عمارة ، ورفع صاحبه بصره إلى أعلى ، ثم
تلفت حوله كمن يبحث عن شيء .

عمن يبحث صاحبه؟ . إنه لا يبدو على معرفة جيدة
بالمكان فهو يتلفت يتلفت الباحث الحائر .

ترى إلى أين هما ذاهبان؟
إنه بالطبع لا يدري .. كما لا يدري دائماً أى شيء عن
كل شيء .

ولكن هذه المرة .. أليس من حقه أن يدري؟!
إذا كان لم يدري فيما سبق .. أليس من الواجب أن يدري
الآن؟!!

أجل .. أجل .. لا بد أن يعرف إلى أين يذهب به
صاحبه .. هذا أقل ما يجب معرفته .
وتقدم من صاحبه وقد رسم على شفثيه بسمه هادئة
وسأله متأدباً:

— إلى أين نحن ذاهبان؟

ومدّ صاحبه يده متأبطاً بها ذراعه في ود وصدافة ، وقال
كأنما يذكره:

— إلى الدكتور محمود .. محمود توفيق .

الدكتور؟! الدكتور محمود توفيق؟! من هو؟
إن صاحبه يذكره كأنما هو شخص معروف لديه ..
وكان حضورهما إليه كان أمراً معروفاً سبق الاتفاق
عليه .

ليس أمامه سوى الموافقة .. لا داعي للمناقشة البتة ..

هذه أشياء تبدو كأنه يجب أن يعرفها .. ومصيبته أنه لا يعرف ما يجب أن يعرفه مما لا غبار على عدم معرفته .. إنه لا يعرف شيئاً أبداً .. ولذا فمن الخير أن يوافق في هدوء ويسر .. وأن يقنع من الفهم والمعرفة بالصمت والسكوت .

وفي تلك اللحظة بدا « بواب » نوبى بجلباب أبيض ولقافة رأس بيضاء ، فأشار إليه صاحبه متسائلاً :

— الدكتور توفيق فى أى دور ؟

— الدور الخامس شقة عمرة ٢٧ .

وتقدم البواب إلى المصعد ففتحه وتبعه الإثنان فدخلوا المصعد .

الدكتور توفيق ؟ .. من هو ؟ ولماذا يذهبان إليه ؟ لعل بصاحبه علة .. لأنه هو نفسه لا يشكو من شيء .

وماله هو يتجشم كل هذه المشقة .. ما دام الأمر لا يعنيه ؟ إنها مسألة صداقة .. على أية حال لا ضير عليه من مرافقة صاحبه .

ووقف المصعد ، وفتح صاحبه الباب .. ثم عبرا ممراً ضيقاً إلى باب مفتوح علقت عليه لافتة صغيرة زجاجية كتب

عليها « دكتور محمود توفيق أخصائى الأمراض النفسانية » وفي
صمت دلف صاحبه إلى الداخل .

أمراض نفسانية ؟ !

ويحه . . من منهما المصاب ؟ ! هو أم صاحبه ؟ !

هو الغريق التائه الشارد الذاهل الذى لا يذكر ولا يدرى !
أم صاحبه الذى قاده وتولى أمره حتى الآن ؟ ! حمداً لله . .
إنه لم يسأله شيئاً حتى لا يفضح نفسه .

إنه يذكر الآن أنهما قد قاما برحلتها هذه فى سبيل
الذهاب إلى هذا الطبيب . . من أجله هو . . هو الضائع
أبدأ فى غيبوبة من الرمال والأمواج . . هو الذى لا ينام
ولا يستيقظ . . الذى لا يفرق بين السبات والصحو ، بل
يحيا فى خليط من هذا وذاك . . شىء واحد هو الذى
يجده ملبوساً مجسداً فى سباته ويقظته . . هو هذه الحقيقة
التي يشدد عليها قبضته ، والذى يشعر أن فيها حتفه ، ومنها
حياته .

واستقبلها رجل يرتدى معطفاً أبيض قادهما إلى صالة
رصت بها بعض المقاعد والأرائك ، وبدا فى مواجهتها باب
متسع يفضى إلى شرفة تطل على شارع « ماسييرو » الموصل
بين طريق الملكة و « كوبرى أبو العلا » .

وسألها الرجل الانتظار حتى ينتهي الطبيب من زائره
لديه .

ووفقاً برهة يدوران ببصريهما بين الصور المعلقة في الحائط
ثم سأله صاحبه :

— أنتظر هنا أم في الشرفة ؟

وتجاوز ببصره باب الشرفة ورننا إلى الأفق البعيد حيث
الماء المنبسط في رجرجة خفيفة متألقة وقد اختلط لونه البني
بلون الشمس الهابطة الذهبية الأرجوانية ، ولم يكن هناك
وجه للموازنة بعد هذا بين الصالة والشرفة ، فقد أخذ المنظر
بألبابه ، وأجاب صاحبه في شبه رجاء :

— الشرفة أفضل .

وتقدما إلى الشرفة وجلس كل منهما في مقعد مريح من
القش . . وعند ما اطمأن إلى سلامة الحقيبة في يده رننا ببصره
وراء سور الشرفة الحديدي مطلقاً تهيئة راحة .

كان المنظر رائعاً حتماً . . الطريق لا يبدو منه إلا حافة
ضيقة من الرصيف العريض الأقرب للشاطئ وقد صفت
عليه أشجار الفيكس العريضة الورق ، الداكنة الخضرة ،
المطلقة الفروع ، بلا تشذيب حتى لتكاد تتشابك وتتعانق .
وقد بدا وراء جذوعها السور الحجري المنتظم الواطئ .

وبلى الشجر والسور صفحة النهر العريض المنساب فى رفق . .
المنبسط فى عنفوان وتؤدة . . وفى الناحية اليسرى بدت
الكنيسة ذات القباب التى ينتهى عندها امتداد الطريق بجوار
النهر ويبدأ انحرافه حولها . . وعلى النهر نفسه بدا كوبرى
قصر النيل ، وعلى وجه أدق ، طرفه البعيد . . إذ حجب
الطرف القريب الثكنات الحمراء والكنيسة البيضاء ، وفى
الناحية اليمنى بدا « كوبرى أبو العلا » تنساب العربات والنزاه
أسفل الهيكل الحديدى الممتد فوقه . . وفى الناحية الأخرى
من الشاطئء بدا خليط من الفيكس والبانسيانس
والجوكوراندا قامت وراءها فى الناحية اليمنى العمارات العالية
على الجانب الآخر من الطريق . . وفى الوسط انبسطت
ساحة السباق وملاعب البولو فى نادى الجزيرة ، وبعض
الأبنية الصغيرة المشيدة فيه ، وفى الناحية اليسرى بدا المتنزه
القائم على حافة النيل وفى وسطه الجامع بمئذنته العالية
الشماء .

وظل يقرب بصره بين الأشجار والمساحات الخضراء
ومئذنة الجامع وقباب الكنيسة ، حتى استقر أخيراً فوق
صفحة الماء المنبسطة إلا من تجهيزات خفيفة تحدها
هبات النسيم .

وتعلق بصره في التجدعات التي بدت كأمواج رقيقة ناعمة ،
وبدأ يحس أن التجدعات البادية على صفحة الماء قد أخذت
تزداد شيئاً فشيئاً ، وأن النسمة الرقيقة التي كانت تهب على
صفحة الماء أخذت تشتد وتقوى .

وبدأ النسيم يصفر حتى أضحى ريحاً . . والتجدعات تعلو
فتصبح موجاً . . والصياح يتعالى من وراء الموج حتى صار
هديراً وزئيراً .

وزادت قبضته ضغطاً على يد الحقيبة .

مرة أخرى بدأ الصراع . . إنهم لا شك يريدون
الحقيبة ، يريدون أن يعرفوا ما بها ليقفوا به . . وارتفعت
موجة عاتية فلطمته لطمه شديدة . . كان عليه في هذه المرة
أن يفر إلى الشاطئ . . إن المسألة ليست بالهينة ، بل تحتاج
إلى جهد شديد . . هيا . . لا تني ولا تكل . . ضع قدميك
على الشاطئ . . أجل . . هكذا . . أمسك الرمال بكلتا
يديك . . لا . . لا بل بيد واحدة . . إياك أن تفلت الحقيبة !
ها قد وصلت . . الرمال ثقيلة . . والضباب على الشاطئ معتم .
ولكن عليك أن تسير ، عليك أن تعدو . . اعد . . أسرع . .
لا تقف . . انزع قدميك .

* * *

ودخل الممرّض « التومرجى » إلى الشرفة وقال داعياً
الزائرين :

— تفضلاً .

وتلفت صاحبه إليه وقال في رقة وفي شبه اعتذار :

— أظن من الأفضل أن تنتظرنى . . سأحدثه برهة ثم
أدعوك .

لم يجبه بكلمة ، فقد كان منهمكاً في العدو ، كان يعدو في
الرمال والضباب هارباً من شيء ، متلهفاً على شيء . . كان
لا يكاد يشعر بما حوله ، لا يرغب في أكثر من أن يتركوه
وصمت لا يحدث أحد ، ولا يحدثه أحد .

وتبع صاحبه « التومرجى » إلى حجرة الطيب ، فعبرا
الصالة إلى ممر ضيق أفضى بهما إلى باب على يمينه طرقة
« التومرجى » وسمع نداء رقيقاً يعلو من وراءه :

— تفضل .

ودفع « التومرجى » الباب وأدخل الرجل ، ثم أغلق
الباب وراءه .

ومن خلف مكاتب صغير نهض الطيب يستقبله مرحباً
وهزّ يده في حرارة قائلاً :

— أهلاً وسهلاً دكتور زكى .

— أهلا بك .. كيف الحال؟! مضت مدة لم نتقابل؟
— سفتان على الأقل .
— كانت آخر مرة رأيتك فيها في محاضرة الدكتور
نصيف في دار الحكمة .
— أجل .. أجل .. وأظننا تقابلنا بعد ذلك في
الأوبرا .

— كانت مقابلة خاطفة لا تحتسب .
— تفضل .. اجلس .. خيراً إن شاء الله .. أى ريح
طيبة دفعت بك إلينا؟!!

— ليست طيبة تماماً .. إنها عاصفة بعض الشيء ، هذه
أول مرة أحضر لك هنا .. عيادة لطيفة ، أنيقة ، وواجهة
تشرف على منظر لطيف .. ولكن يبدو أن موقعها ليس
« سقع » .

— لا ضرورة للموقع « السقع » .. المهم .. الزبون
« السقع » .. نحن .. لنا زبائننا الذين يبحثون عنا يا سيد
زكى .

— الحال رائجة إذأ؟!
— جداً .. رزق الهبل — كما يقولون — على المجانين ..
إني لم أحاول من قبل .. الاعتراف بطب النفس ، ولم

يخطر لي على بال قط . . أن أطلب من أحد أخصائيه معونة
جديدة .

— على كل حال نحن في الخدمة . . وعلى استعداد لتقديم
كل معونة .

— متشكر جداً . . هذا ما كنت أنتظره .

— خير إن شاء الله . . ماذا بك ؟

— بي أنا ؟ !

ولم يتمالك نفسه أن أطلق ضحكة خافتة قصيرة :

— لست أنا هذه المرة . . قد أحتاج إليك في المرة

القادمة .

ثم صمت برهة وأردف قائلاً :

— إنه صديق عزيز لدى . . عزيز كأخ . . أو أكثر

من أخ .

— وأين هو ؟

— إنه يجلس في الشرفة . . لقد بدا لي من الخير أن

أراك أولاً على حدة ، وأن أحدثك عن كل ما أعرف ، مما

أجد حرجاً في سرده أمامه ، وأحذرك من بعض ما يجب الحذر

منه ، حتى لا تضايقه عن غير قصد .

وضحك الدكتور توفيق وأجاب مطمئناً :

— نحن لانضايق هنا أحداً . . إن عملنا هو أن نذهب الضيق ، وأن نريح المريض .

— أنا أعرف ذلك . . ولقد قلت إنك قد تفعل ما يضايقه عن غير قصد .

— لا عن قصد ، ولا عن غير قصد .

— الظاهر أنك تريد أن تضايقني أنا عن قصد .

وضحك توفيق وأجاب :

— أتم حديثك ، لن أضايقك بعد هذا .

— قلت إنى فضلت أن أراك على حدة حتى أسرد لك المسألة برمتها ، وأذكر رأي كطبيب باطنى حاولت علاجه وأجريت عليه كشفاً تاماً ، وفحصته فحصاً دقيقاً .

— وماذا وجدت به ؟

— لا شيء . . لا شيء أبداً . . سليم أربعة وعشرون قيراطاً ، النبض منتظم ، والحرارة طبيعية . . والضغط عادى والقلب سليم الخ .

— إذاً مم يشكو ؟

— هو نفسه لا يشكو من شيء . . ولا يتحدث

عن شيء .

— إذا ماذا به؟

— ماذا به؟

وأطرق برأسه برهة ثم أردف قائلاً:

— إنه دائم الذهول والشرود .. دائم الصمت والفكر
يبدو كأنه يهبط في أغوار عميقة بين آونة وأخرى ..
أو يظل في غيبوبة تنأى به بعيداً عنا وعلى وجهه
سياء

وقاطعه توفيق متسائلاً:

— هل تعود تعاطى أى نوع من أنواع المخدرات؟

ونفى زكى السؤال بشدة وبطريقة جازمة:

— لا .. لا .. ليس هو ذلك الشخص .. إنه لم يدخن
في حياته سيجارة واحدة .. إنه مخلوق مثالى .. إنى أعرفه
تماماً كما أعرف نفسى .. ولا شك أنك تعرفه أنت أيضاً ..
أو على الأقل تعرف اسمه .. إنه إبراهيم محسن الموسيقار
المعروف .

— إبراهيم محسن؟! طبعاً أعرفه .. إنى معجب جداً
بموسيقاه .. بل إنى لا أكاد أقدر أحداً من الموسيقيين
الشرقيين سواه .. إنى أعتقد أنه مخلوق مرهف حساس ..

ولا شك أنه قد أصيب بصدمة عنيفة .

— ربما . . . ولكن لا أحد يدري عنها شيئاً إلا هو . . .

وهو ذاهل شارد لا يعي ولا يذكر ولا يتكلم . . . أظن من

الخير أن أقص عليك ما أعرفه عنه . . . وما استطعت أن

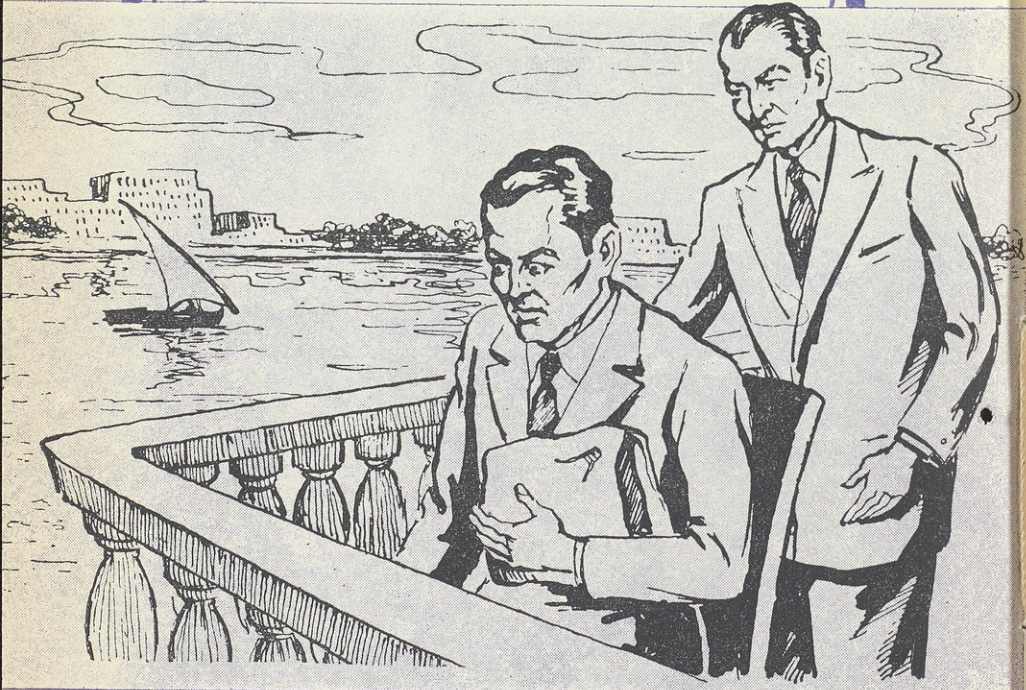
أحصل عليه من معلومات مما أدى إلى حالته تلك .

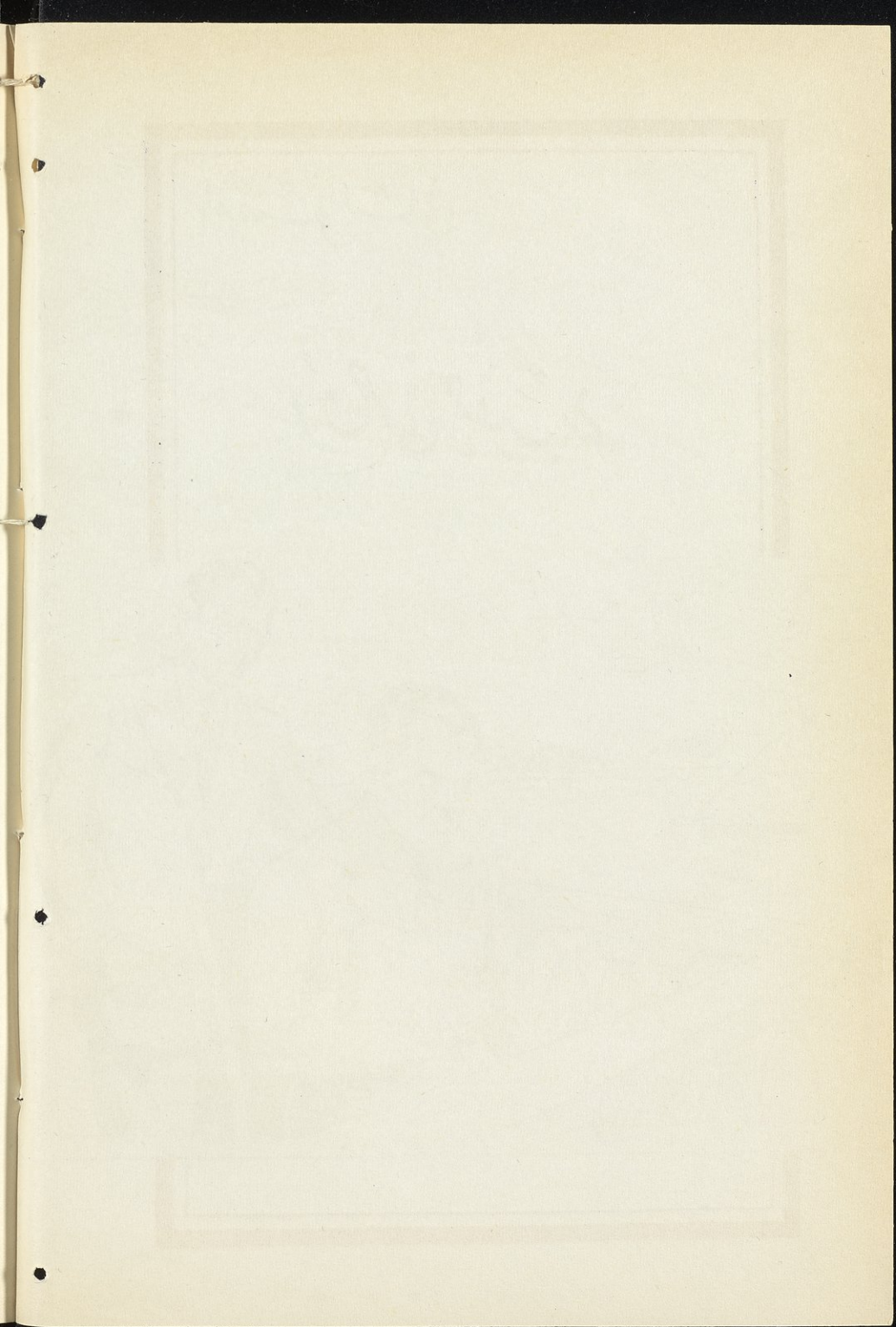
وبدأ زكي يسرد حديثه قائلاً :



الفصل الثاني

رُوم في حَفِيْبَه





عرفته ونحن طالبان في مدرسة الخديوى اسماعيل
وكان اسمها وقتذاك كما تعرف « الثانوية الملكية » .

وكانت المعرفة عقب معركة حامية دارت بيننا في « حارة
اليهود » وهى إحدى دروب المدرسة ، وفي ركن قصى منها
بجوار « أولى تالت » ، وراء معامل الطبيعة والكيمياء . .
وضر بته جيداً . . وضربنى جيداً . . وبعدها . . ومنذ ذلك
اليوم نشأت بيننا صداقة يحسدنا عليها أحب الأخوة وأعز
الأقرباء .

لقد أحببته جيداً . . ولى العذر . . فهو مخلوق . . لا يملك
إنسان ، أياً كان ، إلا أن يحبه .

كان . . من يومه . . كما سمعته أنت فى موسيقاه . . رقيق
النفس ، مرهف الحس ، ولم أكن كذلك بل كنت على نقيضه
عداء كثير الحركة لا يستقر لى قرار . . ومع ذلك فقد علمنى
كيف أستقر ، وكيف أجلس فى الفسح بجواره على أحد
المقاعد لتتحدث ، أو كيف أسير دون أن أعدو أو أقفز .

ولست أريد أن أسرد عليك تاريخ حياته فلا أظن لدينا
من الوقت ما يسمح لنا بسرده تفصيله . . ثم إنى لا أجد فى
ماضيه الشئ غير الطبيعى الذى قد تجد فيه ما يمكن أن

تستند إليه في تشخيص حالته . . فقد كان نموذجاً للإنسان
المستقيم الناجح المحظوظ .

ولكنني مع ذلك أحب أن أشغل من وقتك بضعة
لحظات في وصف شخصيته ونفسيته وخلقه ، وهو ما قد تحتاج
إليه أنت وما سيتعذر عليك الحصول عليه إلا مني . . أنا
أقرب الناس إليه والذي أعرفه خيراً من نفسه .

كان أكثر ما يميزه عنا ونحن صبية هو إحساسه الدائم
بالذنب . . والعجيب أنه لم يكن هناك ما يدعوه أبداً لهذا
الإحساس . . فذنوب « التلهذة » بطبيعتها من التفاهة بحيث
لا يكاد يحس الإنسان بحملها . . وهو بالذات كان أقلنا
ارتكاباً لهذه الذنوب . . إن لم يكن عديم الذنوب . . ومع
ذلك كنت لا أفتأ أرى القلق ينتسبه بين آونة وأخرى . .
لأشياء لا أظنها - لو كنت فاعلها - بتساركة في نفسى أى
أثر ، أو قل إنى ما كنت أستشعر فعلها قط .

مثلاً . . أذكر ذات مرة أنه خرج من أحد الامتحانات
حزيناً مقطب الجبين ، فظننته قد أخطأ الإجابة ، وقلت له
مازحاً :

- لا تكتئب . . في الملاحق متسع للجميع . . دعنا
نشارك فيه معاً .

— أى ملحق؟

— ملحق اللغة الفرنسية .

— لمن؟

— لك .

— أنا؟ .. لقد أجبت عن جميع الأسئلة .

— إذاً فما بالك حزيناً؟

— حزين من أجلك .

— من أجلى أنا؟

— أجل .

— لم؟!

— لقد خمنت ثلاثة أرباع الأسئلة التى أتت فى الامتحان

وذاكرتها قبل الدخول بنصف ساعة .. ولو أنى قلتها لك

لضمنت الإجابة الصائبة عنها .

ورغم إحساسى بشيء من الخذلان لم أملك إلا أن أجيبه

ضاحكاً :

— لا تحمل لى هماً .. لقد أجبت إجابة .. أظنى

أستطيع بها أن أنجح .

— كنت أستطيع مساعدتك .. ولكننى لم أفعل ..

لأنى انهمكت فى استذكارها ولأنى خفت ألا تصدقنى
وتضحك علىّ .

وهكذا دائماً كان يستشعر الذنب .. لا لأنه ارتكب
شيئاً بل لأنه قصر فى فعل شيء .. فقد كان يتهم نفسه دائماً
بأنه يستطيع أن يفعل .. ولم يفعل .

ومثل آخر .. أذكره الآن جيداً كأنما حصل بالأمس ،
كنا قد تأخرنا فى الخروج من المدرسة ذات يوم .. حيث
كنا نشاهد بعض الألعاب التى يقوم بها فريق « الجمناستيك »
على الأجهزة ، وعند خروجنا من البوابة وجدنا ازدحاماً
فى الشارع وشاهدنا عربة الإسعاف وقد تكأ كأ حولها
الناس ووجدنا الشيخ فضل البواب يصرخ باكيةً وعلمنا أن
ابنه كان جالساً أمام باب المدرسة ، وتركه الرجل بضع دقائق
ليقضى حاجة فعدا الطفل إلى الشارع لاهياً عند ما تصادف
مرور عربة مسرعة صدمته صدمة كسرت ساقه .

ومن الطبيعى أن تترك أمثال هذه الحوادث المآ فى
النفوس ، ولكن من غير الطبيعى أن يروح الإنسان محملاً
نفسه بلا أدنى مناسبة عبء مسؤليتها وذنوب وقوعها .
لقد تأثرت أنا .. وحزنت بعض الحزن على عمى فضل
وابن فضل .. وهكذا فعل كل من شاهد الحادثة .. ولكن

إبراهيم لم يكن ليأخذها كما أخذناها بمثل هذه السهولة ، بل كان
لابد له أن يحشر نفسه بين أبطالها ويزج بشخصيته بين
مركبها والمسؤولين عنها .

وعلمت في اليوم السابق أنه لم ينام في ليلته إلا لماماً وأنه
بكي بكاء حاراً ، وسألته في شيء من الغيظ :

— ومالك أنت ؟

— مالي أنا ؟ لقد كنت أستطيع منع الحوادث .

— كيف ؟

— لو لم أفق لمشاهدة اللعب .. وخرجت في موعدي
لرأيت الطفل وهو يعدو في الشارع ولا استطعت إنقاذه .

— كنا إذن مسؤولون عن الحادثة .. بل كل إنسان
لابد أن يكون مسؤولاً عن حادثة ما .. فما من حادثة تقع
إلا كان يستطيع منعها إنسان .. كن عاقلاً وكف عن هذا
السخف .

وغيره .. وغيره .. لقد كان دائماً يحس أنه مقصر في حق
سواه وأنه كان يستطيع أن يفعل خيراً .. ولو فعله ، فإنه
نادم لأنه كان يستطيع أن يفعل خيراً منه .

ذلك هو الشيء الذي يمكن أن اعتبره فيه غير طبيعي ..

والذى أعتقده أنه لازمه فى كل أدوار حياته بعد ذلك .
وأنا نفسى أستطيع إرجاعه إلى تجسد الخير فى نفسه وإلى
يقظة شديدة فى ضميره تجعله شديد الحساسية بمتاعب الناس
والامهم . . شديد الرغبة فى مشاركتهم إياها ، أو رفع
حملها عنهم .

ولا شك أنى عندما أصفه بأنه شىء غير طبيعى . . أقصد
أنه غير طبيعى بالنسبة للناس .
ولكنه قد يكون طبيعياً بالنسبة له وبالنسبة لطريقة
تكوين نفسه وخلقه .

فقد كان ذا نفس رقيقة مرهفة . . نفس فنان مفرط فى
الحساسية .

كان فناناً موهوباً ذا أذن موسيقية سريعة الالتقاط ،
وكنت أعجب له كيف يقف فى الطريق فجأة ليلتقط نغمة
عابرة ويبدو لى أنه يترنح من فرط النشوة ، وكنا إذا
ما خرجنا فى المظاهرات أجده قد تسال من بيننا ، ليذهب
إلى أحد محال الأسطوانات فيسترق السمع . . مجاناً . . أو إلى
معهد الموسيقى حيث يقبع فى أحد أركانه ليسمع دون أن
يحبس به أحد .

كانت الموسيقى تجرى فى دمه . . ولم تجد المحاولات التى

بذلها أهله في إبعاده عنها ، وفي فرضهم رقابة شديدة عليه
تجعله يسير في طريق التلذذة المحدود . . لينتهي به الأمر
إلى مهنة محترمة . . طيب مثلاً . . أو محام . . أو مدرس
أو . . الخ .

وقد سار في الطريق المرسوم . . سار بجسده وليس
بروحه . . ولم يكن في دروسه بالمفرط في الذكاء ولا بالمفرط
في الغباء . . كان طالباً ممتازاً في بعض العلوم أذكر منها
العربية . . لا سيما الإنشاء والمحفوظات التي كان يجيد إلقاءها
وكان ضعيفاً في بعض آخر ، وأذكر منها الإنجليزية ،
والميكانيكا .

أقول إنه سار في طريق الدراسة بجسده . . أما روحه
فقد كانت هائمة في الموسيقى والألحان والغناء . . وأذكر
أنه بدأ ينتج ألحانه سرّاً وهو ما زال طالباً .

ولم يكن في خلقه على طبيعته واستقامته ، نبيّاً . . بل كان
مثلنا يكذب أحياناً ويقصر في واجباته أحياناً . . وكان مثلنا
أيضاً . . يجب : الأكل . . واللهو . . والمزاح . . والفتيات .
وكانت له مغامراته التي قد تخني على الجميع إلا على . . وكانت
له . . ماذا أيضاً ؟ كل شيء . . كبقية البشر العاديين .
ولكنه كان معتدلاً . . معتدلاً في كل شيء . . طبعاً عدا

ذلك الشيء الذى قلت لك عنه فى أول الأمر وهو معاونة
غيره . . . وحب الموسيقى ، ولم يكن يدخن ولا يشرب الخمر
ولا يتعاطى أى نوع من المخدرات . . . ولم يحاول أن يرجع
ذلك إلى طبيعة خيرة . . . بل إلى رغبته عن فعل مالا لزوم
لفعله ، وعمل يجد فى نفسه حاجة ملحة إليه .

وبمثل هذا التركيب فى خلقه والتكوين فى نفسه جرت
حياته : تليذ فى الظاهر ، وفنان فى الباطن . . . لا تخل من نجاح
وسقوط وأفراح وأتراح ، حتى حصلنا على « البكالوريا » معاً ،
وكان تخرجه من التسمم الأدبى وتخرجى من القسم العلمى .

وفى ذلك الصيف الذى حصلنا فيه على الشهادة التى كانت
لدينا بمثابة جواز مرور إلى طبقة الرجال . . . والتى كانت
تنقلنا من تليذ ثانوى إلى طالب فى الجامعة بينه وبين الوظيفة
« فرقة كعب » . . . فى ذلك الصيف نفسه توفيت والدته .

ولا شك أنها كانت صدمة قاسية عليه . . . فقد حزن على
فقدتها حزناً شديداً . . . وأحس وأبوه لغيبها لوعة أليمة . . . فقد
خلفت وراءها فراغاً لم يستطع أحد بعدها أن يشغله .

ومع ذلك فقد مرت الوفاة كما تمر كل وفاة . . . فما أظنها
كانت بالحدث الفريد فى نوعه . . . برغم أنه تلقاها وقتذاك على
أنها كذلك .

مرّت ليلة المآتم وهو محطم منهار متداع .. ولم يخل
الأمر طبعاً كعادته من أن يستشعر من موتها نوعاً من
التقصير برغم أنه لم يفارقها خلال مرضها لحظة واحدة ..
وأنه سهر على تمريضها، فلم يغمض له جفن خلال الليالي
الثلاث السابقة للوفاة .. ولكنه مع ذلك لم يعد مبرراً
لاتهام نفسه بالتقصير .. ولم يعد سبباً يعال به مسؤوليته
في وفاتها .

وعاوته ما استطعت على الصبر والتجلد .. وتوالت
الأسابيع والأشهر وهي تقرض بأنياب النسيان كتل الحزن
الجاثمة التي بدت في أول الأمر جامدة لا تتفتت .. خالدة
لا تتبدد .. حتى أضحت في النهاية ذكرى نصيبها استمطار
الرحمة واستنزال الغفران .

والتحق بكلية الآداب والتحق بكلية الطب .. وسار
كل منا في طريقه ولكن الصداقة بيننا لم تن ، والرابطة
القوية من الحب والإخاء لم تضعف .. بل بقي كل منا على
وفائه لصاحبه ولهفته عليه برغم تباعد فرص اللقاء
ولا سيما في أوقات الشدة المدرسية .. أعنى قبيل
الامتحانات .

وعاش مع أبيه (الذي كان وقتذاك يشغل وظيفة كبيرة

قارب الخروج منها بحكم السن) وثالثهما في الدار « مدبولى »
الطباخ .. أو ثالثهما كلبهما .. فقد كان به من الكلاب شبيهه
كبير .. من ناحية الوفاء والأمانة . وفى تلك الفترة بدأ
تحرره من قيود « التلمذة » ولم يعد يأبه كثيراً لإخفاء
ميوله ، وبدأ نبوغه يظهر للدار واحتل فى عالم الموسيقى
مكاناً مرموقاً .

ومرت دراسته العليا دون حادث يذكر .. أعنى حادثاً
له أثر عميق يتصل بموضوعنا .. فما أظن حياته فترة ذاك
قد شابهها غير الشوائب العادية التى تشوب حياة فنان فى طريقه
إلى المجد .

أظنه أحب بضع مرات .. ففتاة من الجامعة
أحبها بحق الزمالة ، وفتاة بجوار مسكنه أحبها بحق
الجيرة .. وفتاة معجبة أحبته ثم هجرته فوضع لها
بضعة ألحان .. وأذكر أنها لوعته وأقضت مضجعه
فترة من الزمن لا بأس بها .. ولكنه ما لبث
أن أفاق .

وغير هذا لا أذكر شيئاً ذا بال .. اللهم إلا إحالة
والده على المعاش وقضاء وقته ما بين الدار فى القاهرة

وبضعة الأفدنة التي يملكها في القليوبية والتي تولى زراعتها
لحسابه منذ أن أحيل إلى المعاش .

وتخرج بعد أربع سنوات لم يرسب فيها ستة واحدة ،
بل كان تفوقه في دراسته العليا — رغم اشتغاله بالموسيقى —
واضحاً ، ووجد نفسه أخيراً قد ألقى من فوق كتفه حمل
الدراسة الذي طالما أثقل كاهله ، وأضحى كما يريد والده ..
رجلاً محترماً ذا شهادة عالية .. وبدأ بعد ذلك يفرغ
تماماً .. لألحانه وموسيقاه .. أو على حد قوله .. يعيش
لنفسه .

ولم تكد تمر بضعة أشهر حتى فقد والده . وكانت
صدمته هذه المرة أخف بعض الشيء من صدمته الأولى بوفاة
والدته .. أولاً لأن الوفاة حدثت بعد مرض طال بضعة
أشهر حتى باتت متوقعة بين آونة وأخرى ، وفقدت وقع
المفاجأة التي كانت لوفاة الوالدة ؛ وثانياً — كما يبدو لي —
أنه كان يجب والدته أكثر من والده .. فقد كان بالأخير
نوع من الأنانية والانطواء .. . أضعفت من قوة الصلة التي
كانت يجب أن تكون بين الاثنين .

ولست أعني بقولي هذا طبعاً أنه لم يحزن أو أنه لم
يحاول كمعادته أن يدخل في روع نفسه وفي روعنا مدى

تقصيره في العناية به ومدى مسؤوليته في وفاته ، وأنه
لولا يفتش في الحصول على دواء معين لما حانت منية أبيه
بتلك السرعة ولا استطاع أن يمد في أجله .

ولم أناقشه كثيراً في أوهامه تلك . . فقد تعودتها منه
في كل تافهة تمر بنا فما بالك بوفاة والده ! ؟

ومرت الوفاة ، دون أن تحدث في حياته تغييراً يذكر . .
فقد كان بطبيعته أميل إلى الاستقرار ، عزوفاً عن التغيير
والتنقل . . فاستمر قاطناً نفس الدار وهي « فيلا » متوسطة
كائنة في حدائق القبة . . مشرفة على المزارع القائمة على
أطرافها . كان أباه قد تولى بناءها على قطعة أرض يملكها ،
واستمر محتفظاً بالخدم ولا سيما « مدبولي » الطباخ العجوز ،
الذي احتل في الدار مركز المسؤول الأول وكان له بمثابة
الأب والأم وولي الأمر .

وعاد إبراهيم إلى تأجير الأرض التي ورثها عن أبيه
بعد أن كان أباه قد تولى زراعتها لحسابه إذ لم يكن لديه وقت
ولا دراية لمثل هذه المشاكل واكتفى من الأرض بوضع
مئات من الجنينات تدرها عليه في كل موسم زراعي يبعدها
في معاونة نفسه على الحياة للتفرغ للموسيقى والألحان
ومعاونة الناس ومعاونة ضميره على الاستراحة من خوفه

الدائم من التقصير في معاونة الناس .

وأظن هذا كل ما يمكن ذكره باختصار عن حياته وعن خلقه . . وأظني استطعت أن أرسم لك الإطار الذي أستطيع أن أضع فيه الحادثة المباشرة التي نتجت عنها حالته تلك .

بقيت مسألة هامة وهي الناحية النسائية في حياته سواء أكانت عاطفية أم جنسية ، إنه لم يتزوج حتى الآن ، وأنا أعرف أن رأيه كان دائماً ألا يتزوج بمحض إرادته . . أو على حد قوله . . إنه لن يلقى بنفسه إلى التهلكة بيديه . . أما إذا دفعته يد أخرى فليس أمامه إلا أن يتقبلها صاعراً .

ولست أشك أن مبعث إعراضه عن التقيد بالزواج هو أنه لم يشعر قط بالحاجة إليه ، فهو لم يحس بنقص في أي مطلب له سواء أكان لقلبه أم لجسده . . فهو ما يسمونه بالرجل الحسن المنظر . فإذا أضفنا إلى حسن منظره لطف معشره وخفة ظله ودماثة خلقه وشهرته كموسيقار وجدنا أنه لم يكن من المستغرب أن تكون حياته دائماً مليئة بأشئ تقدم له في يسر وبلا مقابل وبلا قيد وما يغنيه تماماً عن زوجة تقيده وتطبق على أنفاسه .

ولا أظنه ارتبط بإحداهن ارتباطاً طويلاً . . بل كان

يبدو لي في بعض الأحيان أنه يجب في وقت واحد ثلاثة
أو أكثر ، ولا أظنه كذلك خدع إحداهن أو خذلها ، بل كان
— حتى بعد انتهاء العلاقة الوثيقة التي قد تربطه بإحداهن —
يستمر على علاقة طيبة معها .

مفهوم ؟ .. هل استطعت أن أصفه جيداً من هذه
الناحية ؟ أخشى لا .. وأخاف أن أكون أديته في صورة
زير نساء .. وهو لا شك يتناقض تمام التناقض مع الصورة
التي رسمتها له قبل أن أتحدث عنه في هذه الناحية .

ولاشك أيضاً أنك قد تتساءل عن موقف ضميره الوخاز
اليقظ الكاره لشقاء غيره ، التواق إلى إسعاده ومعاونته .
ألم يكن أنسب لهذا الضمير أن يهدأ إلى واحدة وينطوى
وإياها في حياة هادئة يستطيع خلالها أن يقدم يد العون
والسعادة للزوجة والأولاد ؟ !

حسن .. قد يكون هذا صحيحاً .. ولكن تذكر أنني
قلت أنه لم يخدع إحداهن أو يخذلها ، بل كان معهن دائماً
صريحاً قوياً .. وكان يتولى إنه يبادلهن المتعة ، وأنه يسعدهن
جميعاً ، وأنه يعاونهن بطريقته الخاصة على الحصول على
أكبر قدر من الهناء ، ولن يسيء إلى غرضه أنه هو نفسه يفيد
المتعة ويحصل على السعادة .

ذلك كان تعليله .. وقد يكون غير مقبول .. ككل
تعليل لذنب لا يعدم أن يجد فيه صاحبه ما يبرر به ذنبه .
ولكن لم نسمه ذنباً ، وتلك هي طبيعة الرجال ؟ .
ورفقة النساء دائماً أشد شيوعاً وأكثر متعة من زواجهن ..
ولا سيما لفنان قد يعتبر نفسه ملكاً مشاعراً أكثر منه ملكاً
خاصاً لمخلوق معين ، ويجد أن حرته ووقته أثن من أن
يضعهما تحت رحمة زوجة . وأنه يجب أن يعيش كالعصفور
حراً طليقاً يهتف على كل غصن ويغرد على كل فنن .

وهو — كما قلت لك — ليس نبياً .. بل هو مثلنا تماماً ..
ميال إلى المعصيات .. يكذب ويهمل ويفسق .. ولكن
الفارق بيننا وبينه أننا نركب تلك الأشياء في سهولة وبغير
أن نعبأ كثيراً بوقوعها على غيرنا ما دام وقعها علينا طيباً ..
أما هو فلم يكن يقدم عليها قبل أن يعرف وقعها على غيره ،
وقبل أن يتأكد تماماً من أنها إذا لم تفد غيره فهي على الأقل
لن تضره .. وبعد ذلك كله لا يجد هناك ما يمنع ضميره من
الوخز والتحرك .

وثمة مبررات أخرى — غير الرغبة في التحرر من
القيود — لاستساغته الحياة الحرة تلك .. واكتفائه من
الزوجة بالحبيبات والرفيقات .. وهو استقرار في حياته

المنزلية وراحة هيأها له العم «مدبولي» الطيب ، المحنك ،
الماهر ، الذي أقام له من نفسه أمماً وأباً وجعله لا يشعر قط
بالمضايقات التي يقاسيها الأعزب ؛ بل كان يجد كل مطالبه
في الحياة من مآكل طيب ، وملبس نظيف ، ومضجع هادىء
مريح ، بلا أى جهد بل بغير إحساس بأن هذه الأشياء تتطلب
جهداً ، فقد كان يجدها معدة متوفرة بلا سؤال ولا تفكير .
ومبرر آخر هو انهاكه في الدراسة الموسيقية ومحاولته
إنجاز عمل ضخم كان ينوى — على حد قوله — أن يحدث به
عند ظهوره ضجة كبرى .

وأخيراً .. وهو أقوى المبررات وأشدّها .. والذي
أعتقد قطعاً أنه هو السبب الحقيقي .. ما يسميه هو ويقول
عنه .. الافتقار إلى اليد الدافعة .. أى إلى المرأة التي
يشغف بها حباً .. والتي تطير لبه .. وتذهب عنه صوابه ..
والتي تقذف به إلى التهلكة بدفعة من أصبعها .. والتي كان
يدعو الله من قلبه .. ألا تصادفه قط .. حتى يظل متمتعاً
بحريته .

أظننى أستطيع أن أبدأ بعد ذلك بسرد الحادثة
المباشرة .. وأنا واثق أنك تعرفه جيداً ، وتفهم أى نوع

من الناس هو ، وأنتك تستطيع أن تؤول تصرفاته وأعماله
التأويل الصحيح .

بدأت الواقعة في أواخر الشتاء من شهر أو شهرين
ونصف شهر .

عندما التقيت بـابراهيم . . لقاء مصادفة . . لم يكن أحداً
منا يتوقعه . . وكان قد مضى على ما يقرب من شهرين لم
ألقه . . فلقيتة على وحشة وشوق ، وعلت منه أنه قد عزم
على أن يعتكف في مكان ناء لا يرى فيه أحداً ولا يراه أحد
حتى يتمكن من وضع « أوبرا » جديدة . . فقلت له :

— ولم لا تعتكف في بيتك ؟

— لا . . لا . . لا فائدة . . حاولت أن أقبع فيه فلم
أستطع . . أنا أعرف نفسي جيداً . . إني أريد مكاناً خالياً
غير مطروق أسجن نفسي فيه .

— أظن « قره ميدان » . . هو خير ما يصلح لك ؟

— قره ميدان . . حر .

— إذا طره . . أظنه « طراوة » . . ويمكنك أن تحجز
فيه حجرة بحرية .

— لا داعي للتعجل . . فأنا واثق أنهم سيضعونني فيه
بعد إخراج الأوبرا .

— إذا إلى أين تنوى الذهاب . أيها المعتكف الكبير ؟

— قد أذهب إلى مطروح .. أو الغردقة .. أو أى منقى
مشابه .

وهنا خطر لى خاطر وجدت فيه خير حل له فقلت
هانفاً :

— اسمع .. مالك تذهب بعيداً .. المنقى أمالك معد
جاهز .. لن يكلفك ملياً واحداً .

— ماذا تقصد ؟

— أقصد يلقى فى الإسكندرية .

— بيت السيوف ؟

— أجل .. إنه خال الآن ولن أذهب إليه قبل ثلاثة
شهور .

— والله فكرة .. ولكن ... ؟

— لكن ماذا؟! لن تجد مكاناً نائياً منعزلاً مثله ..

تستطيع أن تمكث فيه كأهل الكهف .. وأؤكد لك أنه

لن يسأل عنك إنسان . وسيمنحك ماشئت من هدوء

وخلو بال وشاعرية .. إنه أصلح مكان لنزول الوحى على

أمثالك . أظنك لن تجد معتكفاً خيراً منه . ألدريك اعتراض؟

— لدى اعتراض واحد .. أنت تعرفه .

— ما هو؟

— البعوض .. أتذكر الليلة التي قضيتها عندك في الصيف
الماضي .. إني لم أتم لحظة واحدة .
— طبعاً لأنه لم يكن هناك استعداد لنومك .. لقد
نمت بلا ناموسية .. لأنه لم تكن هناك واحدة خالية .
— والبيت حرّ .

— حرّ؟! لا تكن أحمق .. لقد نمت في العام الماضي في
حجرة الاستقبال القبيلة . وكان الوقت عز الصيف .. أما
هذا العام فالوقت ربيع وتستطيع أن ترتع في حجرات البيت
كما تشاء .. أوكد لك أنك ستحتاج إلى التدثر بالأغطية .
وهكذا استطعت إقناعه بالاعتكاف في بيتي الخالي .
والواقع أني كنت محقاً في إصراري على إقناعه بالذهاب . فقد
كان البيت نموذجاً له . فأنا أعرفه جيداً .. وأعرف ولعه بمثل
ذلك المكان الكائن فيه البيت وبالمناظر المحيطة به .

سأصف لك البيت وصفاً سريعاً عاجلاً . أنت تعرف
السيوف؟ لا تعرفها؟ . إنها النقطة الكائنة في مدخل
الإسكندرية من ناحية الطريق الزراعي قبل فيكتوريا
مباشرة .. أتعرف طريق أبو قير الذي تقوم على جانبه
النخيلات ويسير موازياً للترعة المتفرعة من المحمودية إلى
الرأس الأسود .. قبل أن تصل إلى تقاطع طريق أبو قير

والطريق الواصل إلى فيكتوريا القائمة عنده نقطة المرور
الكائنة بجوار الكوبرى . . قبل أن تصل إلى هذه النقطة
وأنت سائر على الطريق الزراعى القادم من القاهرة . . تجد
مصرفاً موازياً للترعة ولطريق أبو قير ولا يبعد عنهما أكثر
من مائتى ياردة . . حيث تقع بين الاثنين أرض الأوقاف
الزراعية الممتدة حتى الرأس الأسود . إذا اتجهت يمينك
بحذاء المصرف ورأيت طريقاً غير مرصوف يسمى
طريق النخيل قام على جوانبه بعض النخيل الذابل وأشجار
الكافور الجافة ، فإذا سرت فى الطريق بجوار المصرف
مخلفاً بضعة بيوت متفرقة على الطريق ، وجدت بيتاً فخماً
أنيقاً مستشار ثرى متقاعد يجاوره بيت هو آخر البيوت
القائمة فى الطريق ، ولا يبدو بعده سوى أرض فضاء
مقسمة للبناء تنتهى بأراض زراعية تبدو فى أفقها بضعة
دور صغيرة .

هذا البيت الذى يجاور البيت الكبير هو البيت
المقصود . . أو بلغة العرب بيت القصيد . ومن العجيب أن
تحاول رؤيته من الخارج فقد تكاثفت أشجار الجازورينا
والكافور المحيطة به وتشابكت فروعها وتلاحمت أوراقها
حتى أخفته تماماً عن الأبصار وأقامت من نفسها غطاء أشبه

« بالمكنبة » لم تترك خارجها غير السور الخشبي والجراج ،
فإذا تجاوزت باب الحديدية الخشبي في شارع جانبي وجدت
البيت قائماً أمامك وسط حديقة متكاثرة معشوشية أشبه
بالقلاع الخشنة رمادى اللون قائم النوافذ قد أحيطت نوافذه
السفلية بحواجز ذات قضبان حديدية غليظة ، ويبدو في
مدخله المواجه لباب الحديدية بضع درجات تفضى إلى
الباب ، وفي الناحية الأخرى تبدو شرفة كبيرة ذات حاجز
حجرى واطيء وقد دس أسفلها كوم من حطب الكافور
الجلف وأصص مكسورة وأحجار وأتربة لم يحاول أحد
إزالتها منذ أن غادرته قاطنته الأولى وهي إنجليزية
عجوز .

والبيت من الداخل يبدأ بدهليز ضيق يفضى إلى « صالة »
صغيرة تطل على الشرفة السابق وصفها ، وقد وضع على
يمين الداخل بيانو ضخيم قديم وعلى يساره بضعة مقاعد . .
وفي المواجهة سلم رخامي يتجه إلى اليسار يؤدي إلى الدور
الثاني الذى احتوى على غرف النوم والحمام ، وعلى اليمين
غرفة الاستقبال ، ثم حجرة الطعام ذات المدفأة الكبيرة ،
ثم المطبخ .

ذلك هو ما يحضر فى ذهني من تفاصيل البيت ، ويبدو

لى أن التفاصيل نفسها ليست بذات أهمية بقدر منظر البيت
والجو المحيط به .

إن البيت أشبه بقلعة في غابة . . والعين لا تبصر حوله
إلا أراضى واسعة تتناثر فيها بضع دور مميزة بالحدائق المحيطة
بها والنباتات المتسلقة على جدرانها وأسقفها الحمراء المائلة
الجمالون .

وأسفل البيت يجرى المصرف الذى يحد الحقول الخضراء
المتزامية الأطراف الزاخرة بأعواد القصب التى تتماوج
أطرافها فى مهب الريح ، ووراء كل ذلك حشد قائم من
النخيلات كأنها حراس الأفق .

ذلك هو البيت الذى استقر به صاحبنا ليغرق فى موسيقاه
ويضع مجموعة من ألحانه الجديدة ، نموذجا لمعتكف ومثلا
لمهبط وحى ، لا يكاد يزججه فيه طارىء ولا عابر ، ولا يؤنس
وحده رفيق ولا سامر . . اللهم إلا خادمه الأمين وولى أمره
وطباخه « مدبولى » .

ولست أدري كيف مرّت به الأيام وقتذاك . . ولكنى
أعرف بصفة عامة من بضعة رسائل قصيرة تبادلناها ، أنه
كان راضياً عن البيت وعن حياته فيه كل الرضاء ، وأنه
لم تشب صفو أوقاته شائبة كدر ولا ضيق ، وكنت أعتقد

أنه مستغرق في وحدته ، منهك في ألحانه ، وأنه يعيش في البيت النائي أشبه بناسك في صومعة .. حتى وصلتني منه رسالة ذات يوم تنبئني بطريقة يسيرة عابرة .. بأنه خطب .
ولا أكتمك القول أن دهشتي من النبأ كانت شديدة ، فقد كانت خطبته ، وهو في وحدته تلك ، آخر ما يخطر لي على بال ، ومع ذلك فقد أخذت الدهشة تتبدد تدريجاً ، بعد شيء من التفكير استطعت أن أستنبط به الطريقة التي يحتمل أن تكون قد تمت بها الخطبة .

كانت الخطيبة ابنة الجار الذي يقطن البيت الكبير المجاور لبيتي .. ولست أشك - برغم أنه لم يحدثني عن شيء من التفاصيل - أن المسألة ، اتخذت صورة حب سريع جارف ملتهب أشعلته الجيرة والوحدة وفرط الحساسية ، فأقدم في غمرة حبه على خطبتها .

على أية حال لم يكن في الخطبة شيء يسبب الانزعاج ، بل على النقيض ، كانت - بعد زوال الدهشة المفاجئة - أبعث على الرضاء والغبطة .. فقد كانت الفتاة - فيما أعتقد - فتاة طيبة الأصل والخلق ، وكان جدّها الذي تقطن معه وجلاً طيباً موفور الثراء ، ذا مركز محترم ، إذ كان كما قلت مستشاراً سابقاً .

وأرسلت إليه أهنته وأعتب عليه مفاجأته لى وإتمامه
الخطبة بهذه الطريقة الخاطفة التى لم تتح لى مشاركتى فرحته
وقلت له إنى محتفظ بحقى فى الاحتمال بها عند ما نلتقى .
ومرت بعد ذلك أيام آخر شغلتنى عنه مشاغل الحياة ،
حتى وصلتنى منذ بضعة أيام برقية من خادمه يسألنى
الحضور حالا .

وكان للبرقية وقع شديد الأثر على نفسى ، وذهبت بى
الظنون أسوأ المذاهب ، وأوجست منها أشد المخاوف ، ولم
أملك سوى الإسراع لأعرف جلية الأمر .

وبعد نصف ساعة كنت أجلس فى أول قطار يذهب إلى
الاسكندرية . وكنت شارداً الذهن خلال الطريق وأخذت
أوطن النفس على قبول شر النتائج ، ولكنى لم أكد أصل
إلى البيت وأقترب من الحديقة حتى بلغت مسامعى أصوات
موسيقى لا تخطىء مصدرها أذناى .

لقد كانت موسيقاه . . هو .

وأحسست بالطمأنينة تعاودنى ، والسكينة تملأ نفسى . .
وحثت الخطا متجهاً إلى الشرفة المطلة على الحديقة التى لم
يكن بابها مغلقاً ، ودفعته فانفتح أمامى ، ووجدت إبراهيم
جالساً أمام البيانو منهمكاً فى العزف .

وأحسست من رؤيته سليما بفرحة لقاء الغائب الميوس
من لقاؤه . . فما شككت لحظة من البرقية التي وصلتني أنى قد
فقدته أو أوشك أن أفقده .

وإلا . . فما الداعي لتلك البرقية المبكرة التي تدعوني إلى
الحضور العاجل ؟

أجل . . لعنة الله على الطباخ الغبي . . ماذا تراه يقصد
بعمله هذا ؟

أى مس دفعه إلى إهداء تلك البرقية المزججة لى ؟ !
ووقفت خلف ابراهيم ووضعت يدي على كتفه محاولا
مفاجأته .

وبدا لى أنه قد فوجيء فعلا ، بل كانت مفاجأته أشد كثيرا
مما كنت أتوقع حتى أضحي الحال مفاجأة لى أنا .

لقد أحسست به ينتفض تحت يدي ، ثم يلتفت بحذر
وخشية كأنه مجرم هارب وقع فجأة تحت قبضة مطارديه .

وأدهشتنى نظرات عينيه عندما وقعت على . . فقد كانت
نظرات ذعر وخيفة . . لم يكن بها أقل ترحيب أو ابتهاج
بل إدراك ومعرفة .

كان ينظر إلى من فوق كتفه نظرة شاردة ذاهلة وجلة
خائفة . وما لبث أن انتفض كعصفور بلله القطر ، وأخذ

يتسلل من تحت يدي مغادراً متعده أمام البيانو وهو ينظر إلى
نفس النظر وقد أطبق بإحدى يديه على حقيبة صغيرة حتى
اختفى في الحجرة المقابلة .

ووقفت أرقبه وهو يختفي عن ناظري فاغراً فاه ، مشدوه
النظرات ، معقود اللسان ، وأنا مطبق الشفتين . . لا أكاد
أجسر على النطق .

لم أحاول تحيته أو الاستفسار عما به . . فقد كانت نظرتي
وفراره مني صدمة شديدة الوقع على . . ووقفت برهة حائراً
أرقب الباب الذي اختفى وراءه . . محاولاً أن أمتلك نفسي
وأستعيد ثبات أعصابي . . وهممت باللحاق به لكي أعرف
منه حقيقة الأمر عندما بدا « الطباخ » على باب الممر المؤدى
إلى المطبخ .

ولم يكفد يبصرني الرجل حتى اندفع إليّ وفي وجهه ما يشبه
البكاء والاستغاثة . . وتشبث بي تشبث غريق في عجلة نجاة
وهتف بي :

— الحقنا يا سيدي .

— ماذا حدث ؟

— سيدي ابراهيم .

— ماله ؟

— لا أعرف .. ولا هو يعرف .. ولا أحد يعرف
أبدأ .

— أخبرني بالضبط عما حدث .

— لا شيء أبداً .. لقد كان سليماً أربعة وعشرين
قيراطاً .. لم يشك من شيء مطلقاً .. وفي صباح الأس عاد
من الخارج مطبقاً على الحقيقة التي رأيتها يطبق عليها ، وقد
بدت عليه حالة الذهول والشروع .. وهو لا يميز أحداً ..
ولا يرى أحداً ولا يفعل إلا الصمت والحلقة والشروع ..
وبين آونة وأخرى تصيبه نوبات تجعله في أزمة شديدة
يبدو عليه خلالها الألم والإجهاد . وقد ظننت ما به عارضاً
طارئاً نتيجة إجهاد وحاولت أن أهدئه وأريجه ، وأروح
عنه بالمزاح كما تعودت أن أفعل ، ولكنه لم يلتفت إلىّ ولم
يسمعني .. بل كان ينظر إلىّ كأنه لا يراني .. وخشيت أن
يكون قد أصيب بالجنون ، ولم أدر ماذا أفعل .. وأخيراً
لم أرى بدأ من الاستغاثة بك .. فأنا أعلم حبك له ، ومعزته
في نفسك ، أرجوك يا سيدي أن تنقذه مما به .. إنها
« عين أصابته » .

وهكذا ظل الرجل يكرر أنها عين أصابته .. وعبثاً

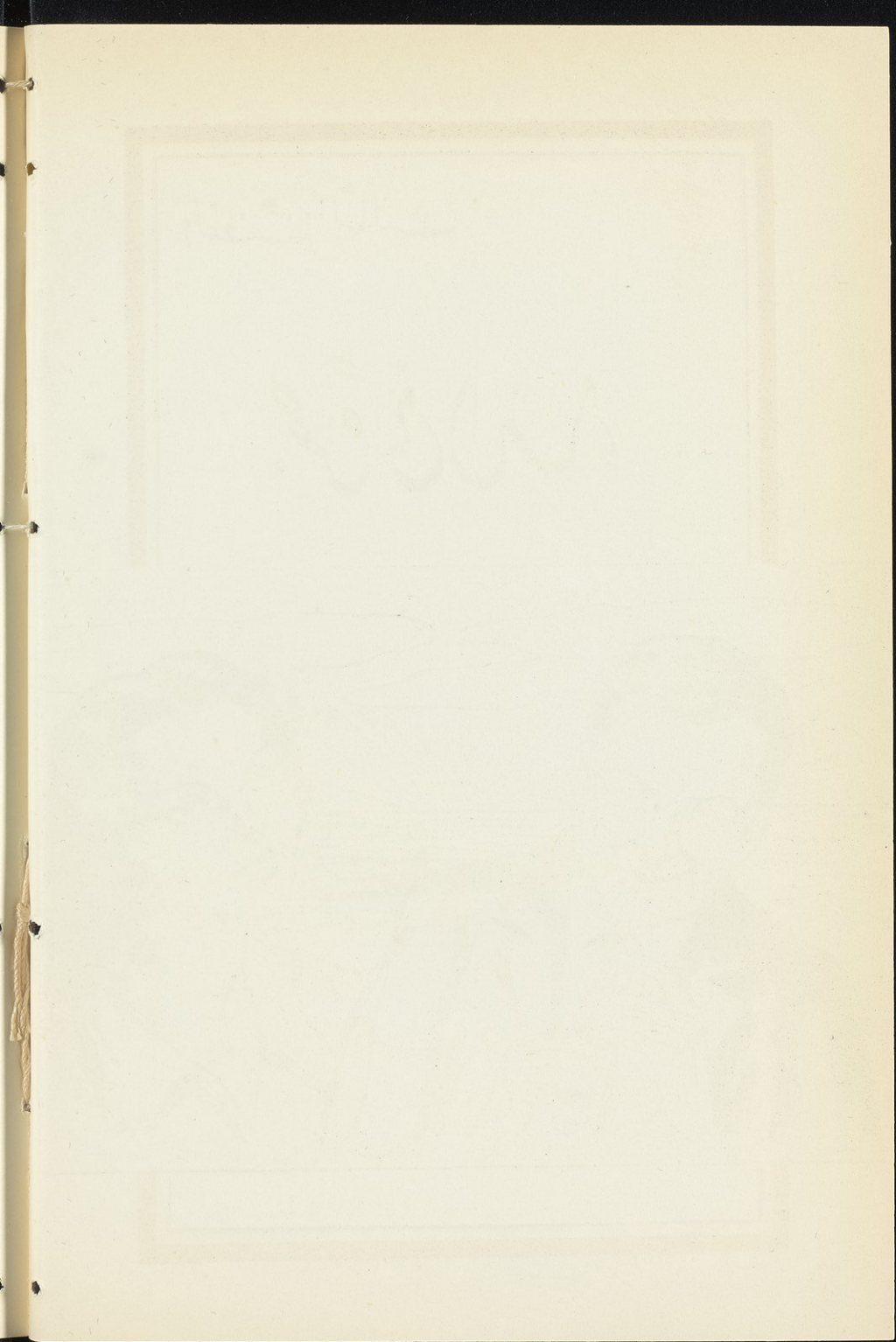
حاولت أن أعرف منه أكثر من ذلك ، وعبثاً أيضاً حاولت
أن أعرف من إبراهيم نفسه شيئاً ، فما رأيت منه أكثر مما
رأيت منه أول ما أبصرته ، ولا عرفت منه أكثر مما عرفت
من خادمه .. شرود وذهول وأزمة عصبية تصيبه بين آونة
وأخرى تجعله يذهب بعيداً في أغوار سحيقة ويبدو كأنه
يقاوم ويقاوم حتى يصيبه الكلال .. وخلال كل ذلك ..
لا تخف وطأة يده على الحتمية قيد أملة .. بل هو يقبض
عليها كأن بها روحه .



الفصل الثالث

جمعة في الرياض





وصمت زكي ، وأطرق توفيق برأسه وأخذ ينقر بقلم في
يده نقرات منتظمة على زجاج المكتب . . وطال الصمت
وبدا كأن كلا منهما ينتظر أن يبدأ صاحبه الحديث ؛
وأخيراً تحدث توفيق قائلاً :

— وبعد؟

— هذا كل ما في الأمر . . وكل ما وسعني أن أفعله
بعد أن يئست من إدراك علمته وفهم ما به ، هو أن آتي به
إليك . . ولقد قصصت كل ما يعيه ذهني عنه لأنني واثق
أنك لن تستطيع أن تعرف منه أو من سواه أكثر مما
قلت لك .

— لقد قلت الكثير . . إني لأكاد أعرفه الآن
معرفتك له . . ولكن أخشى أن تكون قد تركته
ينتظر طويلاً . . كان يجب علينا أن نرجىء شرحك إلى فرصة
أخرى . . حتى لا تدعه بضيق بوحدته .

— لا عليك . . ليس أحب إليه من الوحدة . . إنه
لا يكاد يشعر بما حوله . . بل إنه في وحدته أكثر أمناً
وطمأنينة . . مادامت الحقيقة مستقرة تحت إبطه أو في يده .

— عجيب أمر هذه الحقيقة . . أليست هناك أقل فكرة
عما بها؟

— أبدأ .

— ولا الخادم؟

— ولا الخادم . . وأرجو ألا تحاول أنت مجرد مسها
أو إعارتها أدنى اهتمام . لا تلق إليها بالاقط . . فهي أكثر
مابه حساسية . . تجاهلها تماماً كأنك لا تراها .

— مفهوم . . مفهوم . . دعه يدخل . . فليس من الحكمة
أو الذوق أن نزيل انتظاره أكثر من هذا ، دعه يتفضل .

* * *

وكان ابراهيم مستنداً بظهره إلى المقعد . . وقد مدّ
ساقيه وأخذ ينعم بشئ من الاسترخاء المريح . . كان يحس
بفرط حاجته إليه عقب تلك الأشواط المتلاحقة من العدو
بين الرمال الثقيلة والأمواج المتلاطمة . . والهروب واللحاق
والإغاثة والصراع .

لقد أحب جلسته تلك . . بخضرتها المترامية ونخيلها
المتناثر ، وأشجارها المتكاثفة ، وأبديتها الشاحخة ، ومائها
المنبسط العريض . . وزرقة سمائها المشوبة بنتف من
السحب البيضاء المتلاحقة . . وترك عينيه الشاردتين تستقران

في هدوء على حافة الأفق بين أطراف النخيل ومداخن الدور ،
وأرخی أعصابه المكرودة المتوترة . . وبسط أعضائه
المنهكة المشدودة . . عدا ذراعاً تركه يشد الحقيبة كأنه عين
الشعب الساهرة .

وانطلقت من صدره زفرة . . أعلن بها رضاه النسبي عن
جلسته تلك . . وأبدى بها اطمئنانه إلى راحته .

ونعم براحته فترة . . ليس يدرى أقصرت أم طالت . .
عندما أحس بكف توضع برفق على كتفه . . فكانت بمثابة
الإنداز بانتهاء حالة الاسترخاء . . فتوترت الأعصاب ،
وشدت العضلات . . وزاد ذراع الحقيبة إطباقاً عليها ، ورفع
بصره إلى صاحب الكف المنذرة فأبصر وجه صاحبه .

أين كان؟ . . لقد كاد ينساه . . بل لقد نسي أنه هو الذي
أتى به إلى هنا . هنا؟! ما هنا؟

أف لهذه الذاكرة المعتمدة التي لا يبصر من خلالها قيد
شعرة؟

أيسأل؟ . لا . لا داعي أبدأ . ليس هناك خير من
الصمت والانتظار . . لا بد أن صاحبه سيقول شيئاً ، يعلم منه
شيئاً . . يمنحه بصيصاً من ضوء يكشف له هذه الظلمات
المتكاثفة .

وتحدث صاحبه فعلاً . . ولكن ليس كثيراً . . لقد قال :
« هيا » .

هيا . . هيا ! ليس عليه سوى الاستجابة .
ونفض في صمت يتبع صاحبه ، ولم يطل بهما السير
كثيراً .

بضعة خطوات فقط ثم عبرا باباً أدى إلى حجرة صغيرة
أسدلت على نوافذها الستائر واستبدل فيها نور النهار بمصباح
كهربائي هادىء الضوء وضع في ركن الحجرة .
وبنظرة سريعة عابرة حذرة استطاع أن يلم بمحتويات
الغرفة .

لم يكن بها شيء غير عادى . . بضعة مقاعد جلدية وبضع
صور زيتية صغيرة معلقة على الحائط بها أشجار وبحر وسماء
وأشياء أخرى من التي ترسم دائماً في هذه الصور الزيتية ،
ودولاب وضعت به بضعة كتب ضخمة ومنضدة رصت
الأزهار في إناء فوقها ، وأريكة أو فراش لا يدري .

هذا ما قد وقع عليه بصره عند أول خطوة خطاها في
داخل الحجرة ، ولكنه لم يكده يخطو خطوة أخرى حتى
لمح على يساره مكتبةً نهض من ورائه رجل دقيق التقاطيع
أميل إلى القصر والنحافة ، وقد وضع على عينيه منظاراً ،

وارتسمت على وجهه ابتسامة رقيقة ، ومدّ يده وهو يقول
مرحباً :

— أهلاً .. أهلاً .. تفضل يا أستاذ .

وأخذ في أول وهلة بمرأى الرجل . فتوقف وشد ذراعه
فوق الحقيبة ، ولكن سيماء الرجل المطمئنة وابتسامته
العذبة الرقيقة .. بددت حذره وأضاعت مخاوفه ، وجعلته
يشعر أنه ليس هناك ما يوجب الحشية ويدعو إلى
الحذر .

ومدّ يده فشد بها على اليد الممدودة فوق المكتب . وعاد
الرجل الرقيق الحاشية يرحب به :

— أهلاً .. وسهلاً .. تفضل يا أستاذ ابراهيم .

إذاً فهو يعرفه .. ويعرف أن اسمه ابراهيم ... ولكن
هل هو حتماً ابراهيم ؟ . طبعاً .. لا بد أن يكون كذلك ،
وإلا لمادعاه الرجل كذلك !

إبراهيم .. أم غير ابراهيم !! ليس عليه إلا أن يكون
كذلك .. وليس أمامه إلا أن يجلس على هذا المقعد المريح
الذي يعرضه عليه الرجل .

وهبط إلى المقعد الجلدى الكبير وقد رسم على شفتيه

ابتسامه يردّها على ابتسامه الرجل الرقيق . . وأمامه جلس
صاحبه .

واستمر الرجل في حديثه :

— فرصة سعيدة جداً يا أستاذ ابراهيم . . . لقد كنت
أتوق إلى لقائك من قبل . . . حتى أعبر لك عن إعجابي
المتساهى بألحانك الرائعة . . أنا أحب الموسيقى من صغرى . .
ولى أذن موسيقية حساسة صادقة الحكم أستطيع بها أن أميز
اللحن الطيب الأصيل من اللحن الزائف الرديء . ولقد
أحسست وأنا أسمع لك أول ألحانك . . وأظن ذلك منذ خمس
سنوات . . إنك فنان موهوب عبقرى . . وأنه سيكون لك
شأن كبير فى عالم الموسيقى . . ولقد تتبعت ألحانك دائماً .
وكنت فى كل مرة أود أن أنقل لك رأيى . . ولكن الظروف
لم تتح لى الفرصة ؛ وأظنك تستطيع أن تقدر بعد كل هذا
مدى السعادة التى أشعر بها وأنا ألقاك أخيراً .

كل هذا له هو ؟ لقد ارتاح للرجل من أول نظرة . .
ولكنه لم يتوقع قط أن يكون له فى نفسه مثل هذا القدر . .
والرجل يبدو فى قوله مخلصاً غير منافق .

ولم يعرف بماذا يجب . . لقد تملكه ارتباك واضطراب
مشوب بالرضاء والغبطة . ولم يملك رداً على ذلك سوى أن

يطأطأ رأسه ويتمتم كلاماً غير مفهوم لأحد . . ولا له
هو نفسه .

ولم يكده ينتهي من هذه التمتمة غير المفهومة حتى وجد
صاحبه ينهض قائلاً :

— عن إذنكم دقيقة واحدة .

ثم يتحرك مغادراً الغرفة .

وأحس بشيء من الخوف وهو يجد صاحبه قد خلفه
وحده مع الرجل الغريب ، وهمّ بالنهوض وراءه ، ولكن
ابتسامه رقيقة من الرجل ألزمته مقعده ، ولم يملك سوى أن
يمنحه ابتسامه مشابهة رداً له على ابتسامته .

ووضع الرجل يده على جرس أمامه بالمكتب وهو يقول :

— أظن ليس هناك ما يمنع من مشاركتي في فنجان

من القهوة ؟ !

ودخل رجل يرتدى « مرييلة » بيضاء ، ولم يجب هو
بشيء . . أو لم يحس في نفسه الرغبة أو القدرة على المعارضة
في شيء . . إن خير ما يفعل هو الموافقة والاستسلام .

وأمر الرجل بالقهوة ، وانطلق الآخر ليحضرها . ثم
عرض عليه علبة سجائر فمز رأسه رافضاً . . وبعد أن أشعل
سيجارة لنفسه عاود حديثه :

— كان يجب أن نلتق قبل الآن .. إني أعشق الموسيقى .
أحس أنها جزء من غذاء الإنسان كالماء والهواء ..
أليس كذلك ؟

هذا كلام طيب .. إنه هو أيضاً يعتقد ذلك . ولكن
ليس به رغبة كبيرة في الحديث .. إن عقدة لسانه لم
تفك بعد .

ولم يملك سوى أن أشار برأسه موافقة منه على السؤال .
واستمر الرجل في حديثه دون أن يثقل عليه بطلب
الإجابة :

— كنت أسأل في الأوبرا .. أشاهد الفرقة
الإيطالية التي تعمل بها .. لقد سمعت بضع قطع رائعة ..
ألم تسمعها ؟

هذه لم يذكر أنه سمعها ، ولا سمع غيرها ، وبهزة من
رأسه يمنة ويسرة أجاب عن السؤال .
وعاود الرجل الحديث :

— يجب أن تسمعها ، ستعجبك جداً .. وشيء آخر
أنصحك أن تشاهده .. « فيلم » عن حياة شوبان يعرض
الآن في سينما .. سينما .. لست أذكر الآن .

وهو أيضاً لا يذكر ، ولكن الفارق بينهما أن الرجل

لا يذكر السينما فقط . . أما هو فلا يذكر شيئاً أبداً .
وتجاوز الرجل عن السينما التي لا تذكر ، كما يتجاوز هو
عن كل شيء لا يذكره . . وعاود الحديث :

— كنت بالأمس أسمع الإذاعة فسمعت مصادفة إحدى
السمفونيات لبيتهوفن وعلت أنهم يذيعون سمفونية لأعلام
الموسيقى يوم الأربعاء من كل أسبوع فصممت ألا تفوتني
بعد ذلك ولم تكذب تنهى السمفونية حتى تبعتها دور من
موسيقانا الشرقية القديمة لركي مراد هو « ياللي جرحت القلب
داويه » . . وأؤكد لك أنه أطربني جداً . . إني أحب كل
أنواع الموسيقى . . مادام اللحن جيداً . . وأن مقياس جودة
اللحن هو الأثر الذي يتركه في النفس . . وهو نفس مقياس
جودة أى عمل فنى . . ولذلك فإني لا أجد هناك معنى لتقديم
العمل الفنى لنفس لا تملك وعياً فنياً . . ولذا يجب تنمية
الوعى الفنى فى النفوس حتى يجد العمل الفنى التربة الخصبة
التي ينتج فيها ثمرته . . ويبدو لى أن خير ما فعلت أنت هو
تنمية هذا الوعى . . إني لا أعتبرك مجرد موسيقى ، بل
أعتبرك صاحب رسالة . . لقد غرست فى نفوس العامة
القدرة على استساعة نوع من الموسيقى العالمية كانت تنفر
منه لأنها لا تدرك قيمته . . لأن وعيها الفنى كان محدوداً . .

وإدراكها كان لا يتعدى الموسيقى المتكررة المعادة ذات
الليالي والآهات . . وهو شيء قد يكون له قيمته الفنية كلون
من ألوان الموسيقى ووجه من وجوهها ولكنه ليس كل
شيء . . ومن الخطأ أن يقصر إدراكها الفني إلا عن فهم
واستساغة هذا اللون بالذات . . ويبدو لي أنك قد أدركت
هذا النقص وبدأت تعمل على علاجه . . فعندما أتبع
موسيقاك أستطيع أن أجد بها نوعاً من تربية الوعي الفني
لعامتنا ، وأجد انتقالاً تدريجياً بموسيقانا من المحيط الشرقي
الضيق إلى الأفق العالمي المتسع .

عجيب هذا الكلام !

وأحس ابراهيم بأنه ينصت إلى الرجل في لطفة . . ويتبع
حديثه تتبع المشوق المدرك الواعي . . الصافي الذهن ، السريع
الفهم ، الحاضر الذاكرة .

هذا الكلام قد بدد الكثير من السحب التي كانت تحيط
به وأذهب الكثير من الخوف والحذر مما حوله .

وبدأت أعصابه المشدودة . . تهدأ وتسترخي . وابتسم
للرجل وهو يحس بوثاق من الصداقة والثقة يقرب بين
أحدهما والآخر .

وابتسم الرجل وهو يتمم حديثه في لهجة تشعر السامع
بصدق صاحبها :

— كان آخر ما سمعت لك ، هو لحناك « ساعة
غروب » ولقد ترك بنفسى أثراً عجيباً .. عجيباً جداً .. لا أظن
لحناً ترك بها نفس الأثر .. كان له شيء يجعلنى أميل إلى ذرف
الدمع .. لست أدري لمَ ولا علامَ ! ولكنى كنت أحس
وأنا أسمعُه كأن شيئاً عزيزاً يتسرّب من يدي ولا أملك
حفظه أو منع تسرّبه .. كنت أحس كأن شيئاً مضيئاً فى
حياتنا تهب عليه وعلينا ريح توشك أن تخمد ذبائله ونحن
لا نستطيع لها صدأ .. كنت أحس .. بحياة تنتزع
وروحاً تخمد .. كنت أكاد أبصر أمامى الشمس
الغاربة .

وهنا تحدث إبراهيم .. لأول مرة .. بلا جهد ..
ولا مشقة ولا تكلف .. وانفجرت أساريره وانسبطت
عقدة لسانه .. وأحس كأنما قد خلف وراءه أكواماً
من القيود والأثقال والسحب والآكام والرمال
والأمواج ، وأنه بات وحده حراً طليقاً .. قال ببساطة
وحرارة :

— أنا أيضاً كنت أحس ساعة وضعه بنفس إحساسك

وليس أحب إلى نفسي من أن أعرف أنه استطاع أن ينقل
إليك مشاعري نقلاً صادقاً خالصاً . . لقد صدر اللحن من
قلبي ، فليس عجباً أن يستقر في قلبك ، وإذا كنت قد أبصرت
من خلال أنغامه شمساً غاربة . . فأنا أيضاً قد وضعت وأمامي
الشمس تهبط وراء الأفق . . كان الوقت ساعة غروب . . .
والشمس قد صبغت البحر بلون الدماء . . وأخذ قرصها
الأحمر يتوارى وراء الأفق كأنه جمره تنطفيء في الماء مخلقة
وراءها رماداً من السحب .

أجل . . أجل . إنه يذكر المنظر جيداً . . يذكره بكل
تفاصيله ودقائقه بغير غموض ولا إبهام . . وبغير تلك السحب
المعتمة التي تعود أن يراها تتكاثف في ذاكرته وتلفها في ظلمة
غاشية تحجب كل ما بها .

وسادت فترة صمت استعاد خلالها تلك الفترة إلى
ذاكرته ، وقد أطرق برأسه وأطلق من صدره زفرة هادئة
مريحة .

وأخذ الدكتور يلقى عليه نظرة فاحصة وبودّه
لو يستشف ما في ذهنه ، وانتظر أن يعاود الحديث ليلقي
بكلماته بعض الضوء على المتاهة التي يضرب فيها .
وطال الصمت ، واضطر توفيق أن يقول شيئاً يخرج به

به من تخيلاته فسأله في رقة :

— لا بد أن المنظر أرهف مشاعرك؟

ورفع إبراهيم رأسه وأجاب في يسر :

— جداً .. لقد كان منظرًا عجيبيًا .

— أتذكر أين؟

— في الشاطيء .. على صخرة نائية في سيدي بشر ..

كنت أجلس وحيداً في المرة الأولى .

— والمرة الثانية؟

— الثانية ! !

ولم يدم صمته أكثر من ثوان ، ثم انطلق في الحديث كأنما

ي ناجي نفسه :

— كانت معي ، كنا نجلس متجاورين على صخرة

مشابهة ، والمنظر الرائع قد امتد أمامنا ، والنسيم قد رق ،

والموج قد انبسط ، والجمرة القانية تنزلق في الماء ، وهي

قد استندت برأسها إلى كتفي ، وهمست في أذني : « وددت

لو أسمعني شيئاً » ، وكنت أحمل في جيبى نايًا صغيراً ،

وجذبتة ببطء من جيبى ، ثم أخذت أنشدها « ساعة غروب » ،

وعندما انتهيت ، التفت إليها فإذا بالدموع تنساب من مآقيها ،

وإذا بها تخفي وجهها في صدري ، وسألتهما وقلبي من دموعها

متفتت : « ما بك »؟ وهمست ، وكأنما العبرات تنساب في
 همساتها : « أخشى أن أفقدك ، كنت أحس وأنا أسمعك
 أنك تذهب بعيداً ، بعيداً ، وأني أناديك فلا تجيبني إلا
 صدى صرخاتي تتردد بين الصخور » ، وضحكت وقلت لها :
 « لا تخشى شيئاً ، إنه تأثير اللحن الذي وضعته في ساعة يأس
 ووحدة ، ولو كنت معي وقتذاك ، لكان شيئاً آخر ،
 ولسميته ساعة شروق ، لشمس لا مغرب لها ، شمس باقية
 إلى الأبد ، كما سأبقى إلى جوارك » وأفعمها حديثي بالأمل ،
 ففاضت عبرتها وفاضت بسماتها ، ولقد كنت في حديثي
 ساعتذاك مخلصاً لها مؤمناً بحبها ، ولم أكن أظن أني سأخلى
 عنها قط ، كنت واثقاً أن شمس حينا ، لا مغرب لها . ولكن
 يبدو لي أن كل شمس مآلها إلى الغروب .

ومرّة أخرى عاود صمته ، وخشى توفيق أن يجمع بعيداً
 ولم يجد بداً من أن يجذب عنانه بكلمتين ليعيده إلى الطريق
 فقال :

- وكل غروب مآله إلى شروق جديد .
- إلا هذا ، فهو غروب بلا شروق .
- أي شيء يدعوك إلى هذا اليأس ؟ ما من ظلمة يأس
 إلا وراءها بارقة أمل .

— لقد أطفأت يدي كل البوارق ، لقد انتهى كل شيء ،
لا فائدة هناك .

أجل ، لا فائدة ، إنه يذكر الآن ، أنه قطع كل حبال
الرجاء ، يذكر ساعة أن ذهب اليها وأنها أن كل شيء
بينهم ما قد انتهى .

وعاد يردد :

— أجل . . لقد قطعت يدي كل علاقة بيننا .
وأحس توفيق أنه قد وضع يده على شيء ، وأنه قد
أمسك بطرف الخيط ، وتركه برهة ليتمالك أنفاسه ، ثم عاد
يستحّته :

— كيف قطعتها؟! ماذا حدث بينكما؟! لقد خيل الى
من حديثك أنكما كستما خطيبين سعيدين؟!
— أجل كنا كذلك ، ولكن

وفجأة فتح الباب وأطل الخادم برأسه حاملا بين يديه
فنجانين القهوة .

وفوجيء ابراهيم بدفعة الباب وراه فتوترت أعصابه
وشدّت عضلاته وأطبق بذراعه على الحقيبة ، وتلاحقت
أنفاسه وهو ينظر بحذر الى القادم خلفه .

ماذا يريد؟ لماذا استدرجوه الى هنا؟ ومن هذا

الجالس أمامه ذو العوينات ، ما له يحملق به هكذا ؟ !
وتدفقت السحب في ذهنه ، وبدأت المطاردة ، وبدأ العدو
في الرمال ، وضل الذهن وضاعت الذاكرة ، وأخذ العرق
يتصبب من جبينه .

وأدرك توفيق أن طرف الخيط قد ضاع مرّة أخرى ،
واعتمر جبينه بيده ثم نظر إلى الخادم في يأس وقال :

— إنها غلطى أنا ، كان يجب أن أذكر مسألة القهوة
هذه .. على أية حال .. اذهب الآن وادع الدكتور زكى .

وبعد لحظة عاد زكى فأشار إليه توفيق بالجلوس ، فاتخذ
مجلسه على المقعد الجلدى الآخر .

ثم حوّل بصره إلى إبراهيم وسأل :

— ماذا به ؟

وأجاب توفيق بهدوء وقد تمالك نفسه :

— لا شيء . أصابته النوبة التى حدثتني عنها .

— ولكن .. هل عرفت منه شيء ؟

— بعض الشيء .. لقد جلوت عن ذهنه بعض صدئه .

وانطلق يتحدث بطلاقة واطمئنان ، حتى دخل ذلك الأحمق
يحمل القهوة .

— خسارة .. ولكن لم لا تحاول مرة أخرى ؟

— لا أظن هناك فائدة .. يجب عليه أن يستريح الآن .
على أية حال لقد عرفت شيئاً هاماً ، أعتقد أنه يضع لنا
أساساً لحالته تلك ، ويمنحنا سبباً طبيعياً لما أصابه .

— ما هو ؟

ونظر توفيق إلى إبراهيم فإذا به ما زال بعيداً ، وقد بدا
عليه الإرهاق والتوتر ، ثم حوّل بصره إلى زكي قائلاً :

— لقد فك خطبته ، لقد أنهى هو كل شيء على حد قوله
إن المسألة صدمة عاطفية أعقبها انهيار في الأعصاب .

— ولكن ما السبب ؟

— السبب ! إنه لا شك محتبىء في ذهنه الشارد وذاكرته
المعتمة ، إنه أمامك ، اجث عنه إذا شئت .

— ولكن ، ألا يمكنك معرفته ؟

— بل يجب علينا معرفته ، وبغير معرفته لن نستطيع
علاجه ، لا بد من جلسة أخرى وثالثة ورابعة ، حتى نجلو
خبيثة نفسه .. المسألة تحتاج الى وقت .. هذه ليست عملية
جراحية يا أستاذ زكي .

— أجل ! أجل ! ولكن مع ذلك أخشى ألا نستطيع ..
أخشى أن تزداد حالته سوءاً .

— اطمن ، لا أظن هناك ما يدعو للمخاوفك ، ثم إنه

ليس أماننا سوى ذلك ، ان حالته تحتم عدم إرهابه .

وأطرق زكي برهة ثم رفع رأسه نجأة قائلاً :

— ألا تظن أن خطيبته تستطيع معاونتنا في شيء ؟

— يتوقف ذلك على رغبتها في المعاونة ، وعلى نوع

مشاعرها نحوه الآن ، وعلى طبيعته ما حدث بينهما ، وعلى أية

حال لست أرى ضرراً من سماعها على حدة اذا استطعت

إحضارها .

— سأحاول ، سأبذل كل جهدي ، وأعتقد أنها لن تحيب

رجاءنا ، ففهما يكن قد أساء اليهما فلا أظنها ترفض معاونتنا

في شفائهم ، إنها مسألة انسانية ، إنها

ولم يتم حديثه فقد قطعه زفرة من ابراهيم أحس فيها

كأنه ينفض عبئاً يجثم على صدره ، والتفت الإثنان اليه فإذا به

قد عاد من رحلته الشاقة المضنية ، ومد زكي يده فربت بها

ذراعه وقال مخاطباً توفيق :

— أظننا نستطيع الانصراف الآن ، لقد أضعنا الكثير

من وقتك .

— أبدأ ، لقد أتحت لي فرصة كنت أحلم بها ، وما أعظم

سروري لو استطعت أن أقضى مع الأستاذ وقتاً أطول .

ونفض زكي وهو يقول :

— إن شاء الله نكرر الزيارة .. إن ابراهيم لاشك سعيد بمعرفتكم .

ولم يكن يبدو على ابراهيم شئ من السعادة .. كان منهاكاً مكدوداً عقب المطاردة والصراع الذى انتهى منهما . ونظر إلى الإثنين فى حيرة .. ولم يملك سوى النهوض والشد على اليد التى امتدت لمصافحته والتمتمة بالكلمات غير المفهومة التى تعود أن ينقذ بها نفسه كلما أصابه حرج ، وكلما أعياه الفهم .
وقال زكى وهو يحيى الرجل الآخر :

— سأصل بك تليفونياً لأنبئك بالنتيجة .. السلام عليكم .

ودلف الإثنين من الباب .. وبعد لحظة كانت إحدى عربات الأجرة تعود بهما إلى مسكن ابراهيم فى الحدائق . كان ابراهيم ما زال مطبقاً على الحقيبة وصور الطريق تتتابع على بصره من وراء نافذة العربة .

وكان زكى قد استغرق بدوره فى التفكير .. لقد بدا له إحضار الخطيئة مسألة هينة فى مبدأ الأمر .. كأنما لم يكن عليه إلا أن يشير إليها بالحضور فتندفع إليه .. ولكنه عندما استغرق فى التفكير وقلب الأمر على وجوهه وجد أن المسألة متعذرة ان لم تكن مستحيلة .

إنه لا يعرفها ولا تشرّف بمعرفة جدها . . ومن العسير عليه أن يذهب لدعوة فتاة لم يسبق له معرفتها للحضور إلى طبيب لكي تعترف له بما لا يمكن أن يسمى بأقل من مأساة حب هي أحد طرفيها .

إنها قطعاً غير ملزمة بذلك . . ثم من يدري أنها ليست في مثل حاله من الضيق واليأس . . أو من يدري أنها ليست غاضبة لا تطيق ذكر اسمه . . إن الأسوأ لا بد أن يكون في الانتظار . . فالقطيعة واقعة . . وهي لا بد أن تكون ناتجة عن خطأ من أحد الطرفين : إما هو وإما هي . فإذا كانت هي فعني ذلك أنها لا تريده مع سبق الإصرار . . وإذا كان هو فقد أصابها بصدمة جعلته يفقد الكثير من موقعه في نفسها .

وهكذا ظلت الإفتراضات تلف في رأسه وتدور . . حتى جعلته يندم على هذا العرض ويتهم نفسه بالسخف لمجرد التفكير فيه . . ويقدر سعة صدر الدكتور توفيق لأنه تقبله منه دون أن يسفه آراؤه .

على أية حال . . المسألة « ملحوقة » إنه لم يتورط في شيء بعد . . ليس عليه سوى الانتظار حتى الغد ، ثم يدق التليفون لتوفيق لينبئه أنه لم يستطع إحضارها . . هذا كل ما في الأمر .

ولكن لم لا يحاول؟ .. ماذا يخشى؟ .. هبها صدته ..
هبها ثارت وغضبت .. أى ضرر فى ذلك؟ ! إن النتيجة
لن تسوء فى حالة الرفض أكثر مما هو كائن .. وإذا قبلت
وإذا ذهبت .. وقالت شيئاً .. فربما يكون ذا فائدة ..
مهما ضوّلت فهى خير من لا شيء .

ووقفت العربية أمام باب البيت وهبط الاثنان ، وتقدم
ابراهيم بسهولة واطمئنان .. إن المكان محبب إلى نفسه
ليس عليه منه خوف ولا حرج .

وكان مدبولى فى الانتظار فقد تركهما فى المحطة واتجه
لإعداد البيت وكانت على سيمائه الطيبة علائم التساؤل واللهفة
وتتقدم يقود سيده إلى حجرته .. ثم تركه وأقبل على زكى
متسائلاً :

— خير ياسيدى ؟

— خير يامدبولى .. لقد استطاع الدكتور أن يحدثه .

— الحمد لله .. وماذا قال له ؟

— قال إنه فك الخطبة ، وأنهى كل شيء .

— لا حول ولا قوة إلا بالله . إذا فهذا هو السبب ..

كان يجب أن أحنه .. ولكن لم يخطر ببالى مطلقاً أنه

يمكن أن يفك الخطبة .. الله يسامحك ياست راجية .. الله

يسألك .. ولكن فك الخطبة يحدث كل هذا؟

— لا بد أن تكون قد حدثت أشياء قبل فك الخطبة ..
مشاكل أدت إليه .

— عجيبة؟!!

— أى شيء عجيب فى ذلك؟!!

— المسألة كلها عجيبة .. أنا أعرف أنه يجب الست راجية
وأعرف أنها تحه .. وأنها ليست من صاحبات المشاكل ..
إنها طيبة جداً .. وتحبه جداً .

— متأكد؟

— متأكد فقط .. أستطيع أن أقسم على هذه النعمة ،
(ورفع رغيفاً إلى جبينه) .

ولكن زكى قاطعه :

— لاداعى للقسم .. على أية حال هذا شئ فى مصلحتنا
هذا يسهل المسألة كثيراً .

— أى مسألة؟

ولم يجب زكى .. بل أخذ يحدق فى مدبولى وقد شرد
ذهنه .

أجل!! لماذا لا يستعين بمدبولى؟! إنه يبدو من
حديثه أنه على معرفة بها ، وهو لا شك قد رآها وحدثها

كثيراً . . وهو رجل طيب محبوب . . وستقبل « راجية »
رجاءه قبولاً حسناً .

ولكن هل يستطيع إيفهامها ؟ . . إنه على شيء من
الغبوة . . ولكن لو ألح زكى فى إيفهامه فلا شك أنه سيفهم
وسيحاول إيفهامها .

ثم . . ليس هناك سواه . . إنه الوسيلة الوحيدة . .
ولا بد من تجربتها .

— اسمع . . يا . .

— خادمك مدبولى .

— اسمع يا مدبولى . . هناك مسألة هامة . . يتوقف
عليها شفاء سيدك إلى حد كبير . . وأعتقد أنك خير من
يستطيع أداءها .

— أنا ؟ !

— أجل أنت .

— أنا يا سيدى لا أفهم كثيراً فى الطب . . إن والدتى
كانت « داية » . . وأبى كان « حلاق صحة » . . ولكن أوكدلك
أنهما لم يورثانى — عليهما رحمة الله — أى شىء من معلوماتهما
الطبية .

— لسنا نريد منك خدمة طبية . . كل ما نريده منك هو

- أن تقنع « راجية » بالحضور إلى الطبيب للتحدث معه .
- أنا؟ .. أحضر راجية؟ .. لا .. لا .. بعد
- ما حدث لا أجرؤ على الدخول .
- ما هذا الصباح؟ .. أجنون أنت؟ ..! أهذا هو الإخلاص لسيدك؟! أتخاف من فتاة؟
- أنا لا أخاف منها .. إذا كان عليها هي فإني على استعداد لكي أطير إليها حالا .. إنها طيبة جداً ، كالسكرة .
- إذاً من تخاف؟
- جدّها — يا سيدي — أعوذ بالله .
- ماذا سيفعل بك؟
- لو ذهبت قبل الغداء .. قد يأكلني .
- إلى هذا الحد؟
- وأكثر .
- إذاً اذهب إليها بعد الغداء .
- إسمع ياسيدي .. ليس هذا وقت مزاح .
- أنا لا أمزح .. لا بد لك أن تذهب .. إن المسألة حقيقة ذات فائدة كبيرة في علاج سيدك .
- إذاً اذهب والأمر لله .. ولكنني سأبلغ الأمر

أولا إلى « سيدة » .

— سيدة؟ .. من تكون سيدة؟

— خادمة راجية .

— لا .. لا .. يامدبولى أريد أن تبلغها شخصا ..
أريد منك أن تحاول التأثير عليها بنفسك .

— إنى أستطيع التأثير على « سيدة » أكثر مما أؤثر
عليها .. إن بيننا علاقات طيبة .. وسيدة بدورها تستطيع
التأثير على سيدتها أكثر مما يؤثر عليها أى شخص آخر ..
ثم هى تحب سيدى ابراهيم وهى ليست مجرد خادمة .. انها
فى حكم المريية .

— إذا كنت واثقا من هذا .. فافعله .. المهم هو أن
تقنع راجية بالحضور الى الطيب .. وعندما تصل الى
القاهرة دعها تحدثنى فى التليفون حتى أصطحبها الى هناك .
— ان شاء الله .. ربنا يسهل .

وهمّ مدبولى بالانصراف ، ولكنه التفت فجأة وسأل
متداركا :

— ولكن .. من سيمكث مع سيدى؟

— سأمكث معه أنا .. وسأرسل فى احضار خادى

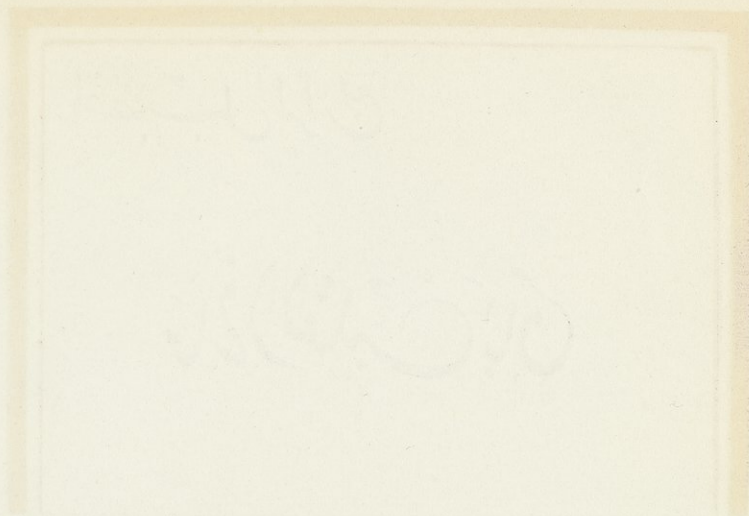
محمود حتى تحضر .. لاتحمل له هما . كل ما عليك هو أن
تحقق مهمتك وتسرع بالعودة .
— حاضر .. حالا .. حالا .. سأحاول أن ألحق
بأول قطار .



افصل الرابع

ما في القلب ياكي





واندفع الرجل الطيب الأمين إلى مطبخه يهرول بجسده
المتليء وبطنه البارز وأمسك بمعطف أبيض علق فوق
مشجب في المطبخ فدرس فيه جسده ثم قذف بالطربوش
على رأسه ، وأخذ يتلفت حوله في حيرة كأن هناك شيئاً
هامماً يحاول تذكره . . وأخيراً اندفع إلى الباب ورفع يده
إلى أعلى وجذب عصاه المعلقة خلفه وانطلق إلى الخارج .

وفي أول قطار إلى الاسكندرية ألقى الرجل نفسه فوق
المقعد وتنفس الصعداء ، ولم يكد جسده يحس الراحة
والاستقرار حتى انطلق ذهنه يفكر فيما هو مقدم عليه .

من كان يصدق أن سيده العاقل الرزين يحدث له هذا ؟
حقيقة أنه كان أحياناً يأتي بتصرفات لا تعجبه كثيراً . .
وحقيقة أنه كان كثير الشرود والذهول . . دءوباً على
الوحدة والتنتنة والدندنة .. ولكن هذا لم يكن قط ليوذى
به إلى ذلك المصير .

أكان يخطر له ببال أن إبراهيم . . الذي رباه كابنه . .
بعد عشرة الأعوام الطوال . . لا يعرفه . . سبحان الله !

وما سر هذه الحقيبة التي يحتضنها ليل نهار ؟ ! لا بد أن
بها شيئاً هامماً . . لو استطاع أن يعرف ما بها !! ولكنه

لا يمكنه منها . . . إنه يحتضنها ليل نهار . . . حتى في نومه
لا يتركها لحظة .

ومسألة فك خطبته هذه . . . عجيبه جداً . . . إنها لا شك
كانت مفاجأة . . . فهو يعرف أن العلاقات كانت على أطيها
ويعتقد أن الزواج كان يوشك أن يتم قريباً .

ما ذا حدث ياترى ؟ هل فعلت راجية شيئاً ؟ لا يظن
مطلقاً . . . انها فتاة طيبة كاملة . . . ولكن من يدري . . .
« ياما تحت السواهي دواهي » ، وسبحان علام الغيوب .

ترى هل مستقبل المحيء الى التماهرة ؟ . كيف ستلقاه بعد
ما حدث ؟ ! وهل علمت ما حدث لإبراهيم ؟ !

أجل . لا شك أن « سيدة » أنباتها . . . فقد استطاع هو
أن يخبر « سيدة » بالنبا في كلمات خاطفة قبل العودة الى مصر ،
ولكن لم تخبره « سيدة » عن نبا فك الخطبة .

ربما لم تكن لديها فرصة ، أو ربما لم تخبرها « راجية » .
ولكن هل تخفى « راجية » عنها نبا كهذا ؟

هذه كلها أحاجي وألغاز . . . أعيا ذهنه التفكير فيها
والخبط في معمياتها .

يجب أن يريح ذهنه ، بعد لحظات سيلتق بسيدة ،
وسيعرف منها الكثير .

وأغمض الرجل عينيه ، ولم يدر أنام أم لم ينم ، ولكنه فتح عينيه على حركة في القطار وأبصر ملاح الاسكندرية تقرب في بطء بمزارع الموز والبرج العالى فى يمينه والأبنية تزداد وضوحاً فى خط الأفق .

وفى طريقه إلى السيوف ، كان يحس ، فوق كل مشاعر القلق والضيق والخوف التى تتنازع نفسه ، شعوراً بالرحمة قد يصل إلى حد النشوة .

عجباً !! لم كل هذا ؟ أمن أجل سيدة ؟

ولم لا ؟ إنها لطيفة طيبة ، بنت حلال ، وبها كل ما يعجبه ، حقيقة أن بها شيئاً من سلطة اللسان ، وقلة الأدب ، ولكنها سلطة بحنة دم ، وقلة أدب بظرف ولطف ، أم ترى المسألة كلها لا تزيد على « عين الرضا » .

على أية حال ، هو يحبها ، ويظن أنها تحبه ، أو على الأقل تحب شتمه ومضايقته ، وهو نوع من الحب على أية حال .

ولكن ما هذا السخف الذى يشغل ذهنه به ؟ ! أهذا وقته ؟ ! أفى مثل هذه المآزق والأزمات يفكر عجوز مثله فى هذا العبث ؟ !

إنه سيلقاها جاداً عابساً .

ولكن أهي سترد له جدّه وعبوسه؟! أم يستطيع
هو أن يحتفظ أمامها بجدّه وعبوسه ، وهي المهزار الضاحكة
حتى في أشد أوقات الضيق والحرج؟!!

على أية حال ، سيؤدى هو واجبه ، فيجد ويعبس ،
ولتفعل هي ما تشاء ، لا بد أن يلبس ثوب الوقار حتى
تمتزعه هي عنه .

ووصل إلى البيت . وبدأت أولى المشاكل .

كيف يتصل بـ « سيدة »؟!!

إن لديه الطريقة العادية التي يتصل بها دائماً وهي قرع
نافذة مطبخها بالحصى من نافذة مطبخه .

ولكن مثل هذه الطريقة كانت تستعمل في أيام السراء
عند ما كان المزاح مستحجاً واللهو مرغوباً .

أما الآن ، فالمسألة جد ، والوسيلة لا بد أن تكون
جداً ، إذا يذهب إلى الباب ويدق الجرس ، ثم يقول إنه
يريد أن يقابل سيدة .

وإذا أطل الجد؟

يا ساتر يا رب . فالله ولا فالك يا مدبولي!

ماذا يقول له؟ . يقول إنه أتى لمقابلة سيدة؟ له؟

للغزالة؟ أم لكي تقنع سيدتها بالحضور إلى القاهرة؟

من أجل ماذا؟ هل يعرف الجدّ فك الخطبة؟ وهل
يعرف ما أصاب إبراهيم؟
كل هذه مشكلات تواجهه إذا ما ذهب بالطريق الطبيعي
ودق الجرس .

أما بالحصى ، وقرع النافذة ، فالطريق آمن .
وأمسك مدبولى بحصاة وقذف بها النافذة وهو يردد :
« لا تدخلوا البيوت من أبوابها ، إن نوافذها آمن كثيراً » .
ولم تمض لحظة حتى فتحت النافذة وأطلت سيدة ، ولم
تكذب تراه حتى ضربت صدرها بيدها وباليد الأخرى أصلحت
« أوية » المنديل الذى عصبت به رأسها .

— مدبولى؟ . « ينيلك » . متى حضرت؟ ألم تسافر
صباح اليوم؟

ولم يكن مدبولى يعتبر لفظه « ينيلك » داخلة ضمن ألفاظ
السباب فقد كانت تخرج من فم « سيدة » ببساطة التحية ،
كأنها « سعيدة » أو « سلام عليكم » ولذلك فقد أجاب
بتؤدة وأدب :

— سعيدة مباركة؟ لقد أتيت حالا ، منذ دقيقة واحدة .

— ولم أتيت؟ ! وكيف حال سيدى إبراهيم؟

— أتيت من أجله ، إن حالته كما هى ، لقد عرف

الدكتور منه أنه فك خطبته ، هل تصدقين ذلك ؟
وأطرقت « سيدة » برأسها ، ورأى مدبولى على سياتها
علامات حزن شديد ، وأطلقت من صدرها تنهيدة حارة
وأجابت :

— علمت منها ذلك الصباح .. عندما أنبأتها بسفركم
المفاجيء وما حل بسيدك ، وكانت على حال من الحزن
والياس مروعة . ولقد حاولت عبثاً أن أعرف ما بها ، فقد
أغلقت عليها حجرتها ورفضت .. حتى أن تجيبني أنا ،
وعندما أنبأتها بما حدث اليوم ، كادت تجن ، وقالت لا بد
أن هناك سرأ .

— معها حق ، أنا نفسى أوشك أن أجن ، ما السر ؟
ما السبب ؟ وكيف يحدث كل هذا فى هذه الفترة القصيرة ،
يومين أو ثلاثة ؟ إنها « عين أصابته » كما قلت ألف مرة ، أو
من يدرى ؟ . ربما يكون سحراً ، أنا دهش ، أنا مذهول .

— ولكن ما الذى أتى بك الآن ؟

— إني أتيت لأقابلك من أجله ، إنك تستطيعين أن
تؤدى له خدمة جليمة .

— أنا ؟ ! كيف ؟

— اسمعى أولاً . اهبطى إلى الحديقة ، واقتربنى من

السور ، فالحديث العلى من النوافذ غير مستحب فى مثل هذه
الأمور ، وأخشى أن يسمعى سيدك الكبير أو سيدتك .

وهبط الاثنان واقتربا من ناحية منخفضة من السور
الفاصل بين الحديقتين وهمس مدبولى :

— أين سيدتك ؟

— فى الناحية الأخرى من الحديقة .

— اسمعى يا سيدة ، هل تستطيعين إقناعها بالذهاب إلى
القاهرة ؟

— لمه ؟

— الدكتور يريد أن يتحدث إليها عله يعرف شيئاً عن
سبب الحالة .

ووجمت « سيدة » برهة ، وقبل أن تجيب أجاب صوت
راجية ، وقد ظهرت فى الحديقة من وراء احدى الخنازل وبدأت
عليها دهشة شديدة :

— الله ! مدبولى !! ألم تسافروا ؟

— سافرنا فى الصباح وحضرت أنا الآن .

— لمه ؟

— والله ، ياسيدتى ، كنت أريد شيئاً .

ثم صمت متردداً .

واقتربت « راجية » من السور ، وانتظرت أن يتم
مدبولى حديثه ، فلما يئست قالت له فى شئ من نفاذ الصبر
والضيق :

— ماذا تريد ! انطق .

— أريد . . لقد قلت لسيدة . اسألها .

وفى شئ من التوسل اقتربت منها سيدة وقالت :

— كان يريد منك الذهاب إلى القاهرة لأن الدكتور الذى

يعالج سيدى ابراهيم يريد أن يقابلك .

— يقابلنى أنا ؟

وهزّ مدبولى رأسه بالإيجاب ، وعادت راجية تتساءل :

— ولكن لماذا؟ ماذا أستطيع أن أفعل أنا؟

— إنه يريد أن يتحدث معك ، وقد قال لصديقه الدكتور

زكى إنك تستطيعين أن تفعلى شيئاً كثيراً من أجله .

— أنا؟

وصمتت ، وبدت عليها الحيرة والحزن واليأس ، وقالت

سيدة فى لهجة متوسلة :

— لماذا لا تذهبي يا سيدتى؟

— بعد كل ما حدث؟

— أجل . ألا يحتمل أن يكون ما حدث نتيجة للأزمة

التي يمر بها ، يجب أن تعاونه ياسيدتي .
واستمر إطراق راجية ثم همست أخيراً :
— وهي أني قبلت الذهاب . . كيف أقنع جدي
بالسفر ؟

— جربي أن تقنعيه بأية وسيلة .
— لا أظن المسألة سهلة إلى هذا الحد .
— قولي له
ولم تتم « سيدة » قولها فقد انطلقت صيحة من داخل
الدار تنادى راجية ، وكانت صيحة الجد .
وأصاب الثلاثة الارتباك ، وهتفت سيدة :
— إصعدى إليه ياسيدى ، وحاولى ، عسى أن
يوفقك الله .

واختفى مذبولى . . واندفعت الاثنتان إلى الداخل .
وبعد لحظة كانت راجية تقف أمام جدّهما مطرقة ،
ورفع الجدّ عينيه عن رسالة أتم قراءتها ، ثم خلع منظاره
وقال في لهجة مقتضبة :

— سنذهب باكر إلى القاهرة .
هكذا ، مرة واحدة ، القاهرة ، القاهرة .
ولم تصدق راجية أذنيها ، وهمت أن تقفز إليه لتعانقه ،

ولكنها تصنعت الثبات وقلة الاكتراث وتساءلت في صوت
خافت :

— لماذا ؟

— أختي « زينب » مريضة وقد أرسلت « رقية » ابنتها
هذه الرسالة اليوم .

ثم مدّ يده إليها بالرسالة ، وتناولتها راجية ومررت بعينها
على سطورها مرأً سريعاً ، لم تستطع أن تميز سوى كلمات
قلائل ، ثم خفضت يدها بالرسالة ، ولم تجب ، وقال الجدّ :

— سنأخذ « ديزل » الظهر .

ودون أن تدري وجدت نفسها تتساءل :

— ولماذا لا نأخذ قطار الصباح ؟

— لدى موعد في الاسكندرية لا بد أن أتهي منه .

— أمرك .

— على أية حال ، الظهر من الصباح قريب ، جهزي

الحقائب واعلمي حسابك أننا سنمر على العزبة في عودتنا .

— حاضر .

وانتهى الحديث ، وعادت راجية إلى حجرتها لتجد

سيدة في انتظارها وهي تسألها متلهفة :

— ماذا قلت له ؟

- لم أقل شيئاً .
- كيف ؟
- لقد قال هو كل شيء .
- ألم تحاولي إقناعه ؟
- أقنعه بماذا ؟
- بالسفر .
- طبعاً لم أحاول إقناعه .
- لماذا ؟

— لأنه هو الذى أقنعتى بالسفر ، لقد أنبأنى من تلقاء نفسه أننا سنذهب فى الغد إلى القاهرة لزيارة أخته زينب لأنها مريضة .

وتنهدت سيدة ورفعت يديها إلى السماء وهتفت « يامدبر الكون » ، وبعد لحظة كان الحصى يطرق نافذة مدبولى ، وكانت سيدة تهتف به :

- انتهينا ، سنسافر ظهر الغد .
- هكذا بسرعة ؟ . من الذى أقنعه ؟
- أقنعه ربنا ، أصاب أخته بداء عجل بسفره ، وصدق من قال : مصائب قوم
- بشرك الله بالخير . . هذا أحلى مرض سمعت عنه .

- ومتى ستسافر أنت؟
- الليلة .
- ولم لا تبقى إلى الغد؟
- خير البر عاجله ، ومن الأفضل أن أعود الليلة حتى
أنبيء سيدي زكي بالأمر لكي يعمل ترتيبه مع الدكتور .
- وكيف تقابله سيدتي؟
- سأعطيك رقم تليفونه في البيت والعيادة ، ودعها
تتصل به بمجرد وصولها .
- وأملأها أرقام التليفون ثم ودعها واختفى .
- وعادت سيده إلى راجية فوجدتها ساهمة شاردة ، وقد
أسندت رأسها على كفها ، وربتت كستفها قائلة في خشية :
- مالك يا سيدتي راجية؟! أعدل جدك عن السفر؟
- لا .
- إذآ فعلام الحزن ، ما دمنا سنسافر إلى مصر في الغد؟
- وأى فائدة في السفر إلى مصر؟
- ستلتقين بالدكتور وتعاونيه في علاج إبراهيم .
- وهيبه شني .. ماذا أرتجي منه وقد قطع كل شيء بيننا؟
- لا تئسى هكذا يا سيدتي ، عند ما يفيق إلى نفسه
لا بد أن يعود كل شيء إلى ما كان عليه .

— لا أعتقد .

— على أية حال ، لا أظنك تكرهين شفاءه .

— ولهذا سأذهب وسأفعل كل ما أستطيع . . إذا كان هو قد تخلى عني ، فلن أتخلى عنه .

— وإذا لم تتخلى عنه فلن يتخلى عنك الله . إن هناك رباً يا سيدتي ، علمه فوق علمنا ، وتديره فوق تديرنا ، وإرادته فوق إرادتنا . . كل ما علينا أن نفعل الخير ونمضي في طريقنا .

— أجل . صدقت ياسيدة . . نفعل الخير . . ونمضي في الطريق ، لكي يدمى الشوك أقدامنا .
ثم أطلقت تنهيدة يأس ومست بكفيها بشائر دمع
توشك أن تهطل .

* * *

وفي اليوم التالي دق التليفون في عيادة الدكتور زكي
قبيل الغروب ، فرفع الساعة . . وهو يتمنى أن تكون هي
المتحدثة . . ولم تخيب أمله وحملت الأسلاك إلى أذنيه صوتها
الراقيق تسأله :

— أستطيع أن أتحدث إلى الدكتور زكي ؟

— أنا الدكتور زكي .

— مساء الخير يادكتور . . أنا راجية .

— أهلاً وسهلاً . . راجية هانم . . مساء الخير ، حمد الله
على السلامة ، أنا متأسف جداً على ما قد أكون سببته لك
من انزعاج ، ولكن لم يدفعني إلى ما فعلت إلا ثقتي بأنك
سترجي بمعاونتنا وأن أمر إبراهيم يهيك كما يهمننا .

— بالطبع يادكتور، إني سأفعل من أجله كل ما أستطيع .

— وهذا ما كنت أتوقع . . متى تستطيعين الذهاب إلى

الدكتور توفيق؟

— وقتاً تشاء .

— أيمن اليوم؟! لقد أنبأته عندما علمت أنك

ستحضرين ، أننا قد نوره اليوم أو غداً .

— أظن من الخير أن نؤجلها إلى الغد .

— كما تشائين ، لاتضايق نفسك . . كان يجب أن أعرف

أنك ما زلت متعبة من السفر .

— ليست مسألة تعب . . ولكني لا أجد من اللائق أن

أترك عمتي المريضة في أول يوم .

— معك حق . . لنؤجلها إلى الغد .

— صباحاً؟

— كما تشائين .

— في أى ساعة ؟

— العاشرة ؟

— أجل .

— حسن جداً . . أتفضلين أن نلتقي في مكان . . ثم

نذهب معاً ، أم نلتقي في العيادة مباشرة ؟

— أين العيادة ؟

— شارع ماسيرو . . الشارع الموصل بين كوبرى

« أبو العلا » وشارع الملكة .

— أعرفه جيداً . . من أى ناحية في الشارع ؟

— من الناحية الأقرب إلى شارع الملكة هي أول عمارة

بيضاء عالية رقم ٣٧ بجوار إدارة شركة التزام . . أتعرفينها ؟

— أجل . . إنى أعرفها تماماً . . وأستطيع أن آتى إليها

مباشرة ، فالمسافة بينها وبين بيت عمى ليست بالبعيدة . إن

البيت في الزمالك ، ولن يستغرق الوصول إليها أكثر من

خمسة دقائق في السيارة .

— إذا اتفقنا . . سأكون هناك في الساعة العاشرة .

— وأنا سأحضر في نفس الساعة .

— الشقة رقم ٢٧ الدور الخامس عيادة الدكتور توفيق

عبد الله . . وعسى ألا يعوقك عائق .

— سأحضر إن شاء الله .

— مرة أخرى أكرر الاعتذار عن إزعاجك .. إني
أعتقد أني السبب الأول في كل ما حدث .. إني أنا الذي
ألقيت به إلى هناك . كان يجب أن أكون جاراً أقل ضرراً .

— هذا قضاء الله ولا راد لقضائه .

— صدقت .. أشكرك جداً على تكرمك بالحديث .

— العفو .. لا شكر على واجب .

ووجد زكي أن الحديث قد طال ، وانتظر أن تكون
هي البادئة بختامه وبإلقاء تحية الوداع .. ووجد أنه قد قال
كل كلمات الشكر والأسف ولم يعد في جعبته شيء .

ولكنها هي ، كان في جعبتها شيء .. لم تلق به بعد .. كان
يبدو في لهجتها التردد كأنما تريد أن تسأله شيئاً .

وبعد فترة صمت قالت :

— كنت أود أن أسأل عن شيء يادكتور .

— تفضلي .. سلى ما تشائين .

— هل .. هل ...

واستطاع هو أن يخمن .. ولكنه لم يجسر على التصريح
بالإجابة قبل أن تتم سؤاها ، وأخيراً أتمته :

— أياكون موجوداً ؟

— لا .. ولكن إذا كنت ترغيبين .
— لا .. لا .. لست أرغب شيئاً .. إني أسأل فقط .
— لقد نصح الدكتور بأن تأتي على حدة فهو لا يستطيع
أن يخمن وقع لقائك عليه .. ولذلك فضل الحذر .
— معه حق .. هذا أفضل .. أفضل كثيراً .
لقد كانت تتوق إلى لقائه .. لكنها مع ذلك تحذره ..
إنها تخشى منه المجهول الذى توشك أن تلتقاه فيه .
هل سينكرها ؟ هل سيتجاهلها ؟
إنها تجزع من أن تبصره على حالته الأخيرة .. كيف
أصبح .. وكيف يبدو .
ووجدت أن الساعية ما زالت في يدها .. وأن الطرف
الآخر ما زال ينتظر منها أن تستدعى ذهنها الشارد .. لكي
تصرفه إلى حاله .

وأصابها الارتباك وتمتعت معتمدة :

— طيب يا دكتور .. سنلتق في الغد إن شاء الله .

— إن شاء الله .

— تسمى على خير .

— وأنت من أهله .

ووضع كلاهما الساعية .

وكان في ذهن كل منهما عن الآخر صورة قديمة باهتة
من اللمحات العابرة البعيدة التي كان يبصر بها كل منهما صاحبه
في فترات الصيف الماضية .

أما صورتها فكانت أقرب إلى الطفولة . . . كان يذكرها
بمجرد صبية رقيقة ، دقيقة .

أما صورته . . . فكانت نحيفة طويلة جادة . . . لا تلتفت
يمينه ولا يسرة ، يميزها شعر غزير حالك ، وحركات سريعة
وثابة .

والتقيا في الصباح . . . وعندما ألتقت عليه النظرة الأولى
لم تجده به كثير اختلاف عن الصورة القديمة التي رسمتها في
ذهنها لجارهم الدكتور كما كانت تسميه .

أما هو . . . فقد كان الفارق الذي وجدته ، أكبر من أن
يكتف في نفسه آثاره ، فارتسمت الدهشة على وجهه .

لم تعد طفلة ولا صبية وإن كانت الرقة والدقة لاتفارقانها
بل حددت نوع جمالها ، فأبدتها فتاة بديعة التكوين ، رائعة
السياء . . . ولكن في رقة ودقة . . . وليس فورة طاغية تحس
من خطواتها وهي مقبلة عليك إحساسك بنسمة رطبة عطرة
تبل روحك وتندى فؤادك . . . أكثر مما تحس بلفحة أنوثة

حارة تثير أعصابك وتلهب نفسك .. لقد كان جمالا ينزل
على النفس برداً وسلاماً .
وتصافح الاثنان ولم يكن لدهمما الكثير مما يقولانه ،
وكان الدكتور توفيق في الانتظار ، فأشار إلى باب حجرته
قائلاً :

— أظننا من الأفضل ألا نضيع وقتاً ، فأنا أعرف
أنك لا تملكين وقتك تماماً ، تفضلي .
— تفضل أنت .

وتقدم زكى وطرق الباب ثم دفعه وأشار إليها بالدخول .
دخلت راجية الحجرة ودارت عينيها دورة سريعة
في محتوياتها ، ثم استقرت على الرجل الواقف خلف المكتب
مفترة الشعر ، باش الوجه ، باسطاً يده بالسلام .
وشدّت على يده وهي تشعر أن هذا الرجل مطمئن ،
مريح .

وشدّ هو على يدها وقد أحس بما سبق أن شبهناه ،
بنسبة رطبة عطرة ، تبل الفؤاد وتندي الروح .
وجلس الثلاثة ، واستطاع توفيق ، أن يبدد بسرعة
سحب الحرج والتكلف التي توشك أن تخيم عليهم ، وأن
يفرض بطلاوة حديثه نوعاً من الألفة الطبيعية غير المفتعلة .

ولم تعرف راجية ، أكانت تلك قدرة يمتاز بها الدكتور
توفيق وحده ، أم أنها ميزة من مزايا الأطباء النفسانيين ،
وضرورة من ضرورات عملهم .

على أية حال ، لقد ملأها الرجل ثقة واطمئناناً ، وأزال
من نفسها كل شعور بالقلق والحذر .

كان متحدثاً في غير ثرثرة . . كان يعرف كيف يفك
عقدة الصمت .

ويجري الحديث سلساً طليماً في سهولة ويسر دون أن
يشعر أنه يقصد ذلك ، بل تحس أن كل ما يقوله ضرورة
من ضرورات الموقف .

وعندما انتهى الحديث عن التحيات ، والجو ،
والاسكندرية ، والسيوف ، وغيرها من توافه الأمور ،
ومقدماته ، بدأ الرجل يطرق الموضوع وكأنه لا يطرقة ،
بل هو يصله بما سبقه كأنه ما زال يتم حديثه عن الجو .

واستطرد الرجل يقول :

— على أية حال ، أنا أحب الاسكندرية في الشتاء ،
إنها لطيفة وهادئة ، وليست بها رطوبة الصيف ولاضجة
المصطافين .

وأجابت راجية :

— معك حق ، إنها — باستثناء أيام الزواجع والأمطار —
ولا سيما في شهرى أكتوبر ونوفبر تكون رائعة ، والبحر
أملس كالزيت ؛ ولكن هدوءها ، ولا سيما في منطقة
السيوف يكون مملاً مزعجاً في بعض الأحيان .

— وكيف تقتلين الملل ؟

— بأشياء كثيرة ، الرسم والموسيقى .

— أنجيين الموسيقى ؟

وبدأت تحس أنها توشك أن تنزلق في الفخ ، ولكن
سؤال الرجل كان برىء المظهر فلم تملك إلا إجابته :

— أجل ، أحبها .

— أنا أيضاً أحب الموسيقى ، أى نوع تفضلين ؟ !

الكلاسيك ؟

— أنا أحب الموسيقى الجيدة . أياً كان نوعها ، الموسيقى
التي تصل إلى قرارة نفسى ، بغض النظر عن نوعها .

— ذلك هو رأي بالضبط . . . وذلك هو ما قلت
لإبراهيم . إنى أحترمه وأحبه لأن كل موسيقاه متميزة ،
لم أسمع له لحناً واحداً ، لم يطربنى ، ما رأيك أنت ؟

ولم تجب راجية ، ولم يبد عليه أنه يحاول أن يستدرجها
إلى شيء ، واستطرد ليقول دون أن ينتظر إجابتها :

— لقد حدثته عن آخر لحن سمعته له وهو « ساعة غروب » فحدثني كذلك كيف وضعه ، وكيف عزفه لك في ساعة غروب . . ووصف لي أثره عليك ، وكيف قال لك لو كنت معي لكان لحناً آخر ولسميته « ساعة شروق » .

وهتفت راجية في تأثر شديد :

— أحقاً قال ذلك ؟

وأدركت بعد سؤالها أن إرادتها قد خانتها ، وأنها كان يجب أن تكون أكثر ثباتاً من ذلك ، ونقلت بصرها بين الرجلين ، والتقى بصرها بأحدهما ، أما الآخر ذو العوينات فقد كان مطرقاً برأسه .

وكأنما أحس زكي أن وجوده قد يزيد في حرج الفتاة ، وأنه قد يعرقل عمل صاحبه ، وأن خير آله لو ترك الغرفة لأمرها .

ولم يكن الانسحاب بالأمر الصعب ، ولا سيما في لحظة الصمت الحرج التي أعقبت سؤالها المتلهف فنهض في هدوء قائلاً :

— أئسمحان لي ، بضع دقائق .

ثم غادر الغرفة قبل أن يسمع ردهما .

ومرة أخرى أوشكت سحب الحرج والتكلف أن تخيم

عليهما ، ولكن توفيق وجد أن من الخير أن يبدأ عمله فاتجه
رأساً إلى الموضوع :

— اسمعي ياراجية ، سأحدثك بمنتهى الصراحة ، وأرجو
أن تعتبريني في حديثي مجرد صديق ، إني لا أبشر عملي كطبيب
ولكن كإنسان . . فانزعي من ذهنك أنى طبيب . ولست
مكلفة بأن تقولى لى شيئاً لا يعجبك أو تجدين حرجاً فى
قوله ، لأنك حرة فى كل ما تقولين ، وأنا بالطبع لا حق لى
فى استجوابك ، ولكنها مجرد مساعدة تتطوعين بها لإنقاذ
شخص نرغب جميعاً فى إنقاذه . . ولكن قبل أن نبدأ
الحديث أحب أن أوجه لك سؤالاً خاصاً أرجو منك أن
تجيبى عليه بمنتهى الصراحة و « البساطة » لأنى أعتقد أن عليه
تتوقف قيمة المعاونة التى يمكن أن ننظرها منك ، وعليه
كذلك يتوقف مدى الجهد الذى يمكن أن أطلبه منك وأمل
أن تؤديه لى ، ومدى الصراحة التى يمكن أن تتحدث بها
بلا حرج ولا مضايقة ، أتفهمني؟

وأحست راجية كأن الرجل قد سلط عليها ضوءاً كشافاً
أو أنه وضعها على قطعة من الزجاج وأخذ يفحصها بالمجهر .
وأحست بأنفاسها تتلاحق وأخذت أصابعها تضغط على جانب
المقعد ، ثم رفعت بصرها فواجهت عينيه اللتين ترقبانها من

وراء المنظار ، وأحست منهما الثقة والطمأنينة وداخلها إيمان
بأن صاحبهما لا يملك أن يهب سوى العون والمساعدة ،
ورويداً رويداً بدأ التوتر في أعصابها يتراخى والخرج
يتبدد .

وعاد الرجل يسأل في رقة :

— ما رأيك ؟

ودون أن ترفع إليه بصرها أجابت :

— سل ما تشاء .

— فهمت من حديث ابراهيم أنك تحمينه ، أو على وجه

أدق ، كنت تحمينه ، فهل ما زلت تحملين له هذا الحب ؟

وأجابت بهزة رأسها دون أن تنفرج شفاتها .

وعاد هو يواصل أسئلته :

— رغم ما حدث ؟

وانفرجت شفاتها عن إجابة قصيرة بما يشبه الهمس :

— أجل ، رغم ما حدث .

— ألم تؤثر فعلته في نفسك ؟

— أثرت بالطبع ، ولكن ما في القلب باق كما هو .

— أستطيع أن أؤمن برغبتك القوية في معاونته ؟

— سأفعل من أجله كل ما أستطيع .

— رغم أن شفاهه ، قد لا يكون ذا نفع لديك . .
أعنى ، أن . . .

— أفهم جيداً ما تعنى ، وأنا أريد معاونته من أجل
نفسه ، لا من أجل نفسى .

— حسن جداً . . هذا هو ما كنت أود أن أعرفه ،
وبهذه الطريقة ، نستطيع أن نعمل على أساس متين من الرغبة
المشتركة والثقة المتبادلة . . لكي نحقق هدفاً واحداً . أليس
كذلك ؟

— أجل . . إني على أتم استعداد لبذل كل جهد تطلبه
فى سبيله .

— أنا لا أريد جهداً ، كل ما أريد هو أن تستريحى
فى مقعدك ، وتحدثى . . حدثينى عن كل شىء . . تكلمى
بإسهاب . قولى ما شئت من التفاصيل والدقائق ، والتفاهات
والسخافات ، دون أن تخشى المضايقة أو الإثقال . . فإنى
مستمع جيد ، وأنا أجد فى التفاصيل التى قد تبدو تافهة أشياء
قيمة قد توصلنا إلى نتائج لا نتوقعها ، حدثينى عن كل خصام
حدث بينكما ، وعن كل ما كان يضايقه ، وعمما يظننه أدى
إلى الانفصال .

وهزّت راجية رأسها فى حيرة ، ثم رفعت كتبها وأجابت :

— إن التفكير في هذا قد يودى بي إلى الجنون ، إنى
لا أذكر أنى فعلت قط ما يضايقه ، لا أذكر شيئاً أبداً أبداً .
— إذاً ، دعينا من هذا ، حدثني من البداية .. قصى على
القصة من أولها ، كيف التقيتما ؟ ! وكيف تطور الأمر بينكما ؟
وأحست راجية أن الرجل دفع فى نفسها رغبة فى
الحديث . إنها هى نفسها فى حاجة إلى علاج . إنها فى حالة
جفاف ومرارة قد تضيعها الذكرى المحيرة . إن بها حيناً إلى
ماض جميل . إن بها شوقاً إلى لحظات مضيئة .. ومضت فى
حياتها كلبح البرق .. أعقبها ظلمة كثيفة موحشة .
ما أحب أن تغض عينيها ، وتحيا بذهنها فى ذكرياتها
الحلوة ، البائدة .

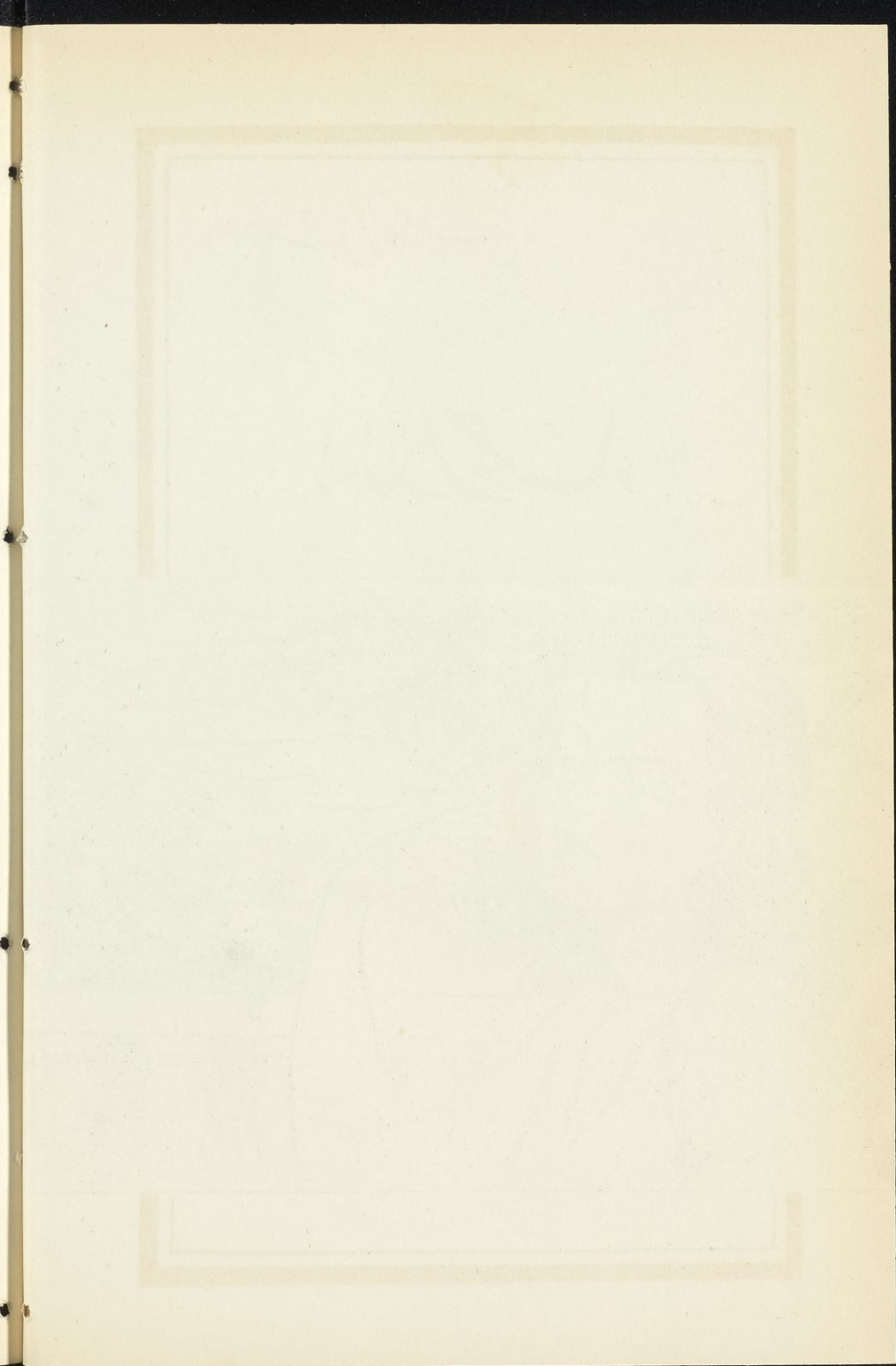
وأطلقت من صدرها زفرة حملتها مرارة الحاضر . ثم
ألقت برأسها على مؤخرة المقعد ، وأرخت جسدها وأغمضت
عينيها ، وأغفت كل حواسها ، إلا من ذهن ينطلق فى ربوع
الماضى ، ولسان يهمس بما يراه .



الفصل الخامس

بلد الحماة





قبل أن أفص عليك كيف التقينا وكيف توثقت عرى
الحبة بيننا ، أود أن أعطيك لمحة سريعة عن أكون وكيف
كنت أحيًا قبل أن ألتقي به . . كنا نعيش في بيتنا في السيوف
أنا وجدى فى شبه عزلة عن العالم ، فقد فقدت أبوى وأنا
طفلة صغيرة .

ووجد فى جدى عزاء عن ابنته الراحلة إذ كنت شديدة
الشبه بأبى . فضمنى إلى كنفه وتولى رعايتى وتريتى . . حتى
بت كل شىء لديه فى دنياه الخالية .

ولقد نشأت بطبيعة خلقى مرهفة الحس ، ميالة إلى
الموسيقى والرسم ، ولكن جدى كان يكره تلك الفنون
وكان يراها عبثاً لا طائل تحته ولا فائدة منه . وأنها أشبه
بالمخدر ، الذى يصرف الإنسان عن حياة الجد والعمل . .
ولكى يضمن مستقبلى بدأ هو ينسج خيوطه ويبنيه حجراً
حجراً . فاختار لى زوجى المقبل وهو « ابن خالتي »
عبد الرحمن حفيده الآخر وشريكى فى إرث ثروته العريضة
وأراضيه الممتدة وأملاكه الواسعة ، ولقد علمه التعليم الذى
يكفل له إدارة كل ذلك الثراء العريض وعوده الحياة الجادة
الجافة وساعده طبيعته على قبول تلك الحياة . . فلقد كان

جاداً ، جافاً ، مادياً ، لا يعرف سوى الأرقام والحسابات
والأرض والمال والطعام ، وهكذا ضمن جدى المحافظة على
مخلفاته ونحن بينها .

وفي وسط هذا الجو المادى الجاف نشأت أشبه بزهرة
رفيقة بين الصخور الصلدة . . يذيني صوت رقيق ، وتشيني
نعمة حلوة ، وتورقني لفضة قاسية . ولم أملك إلا أن أخلق
لنفسى وسط تلك الصحراء الجافة واحة صغيرة أتفياً بظلالها
وأنهل نيمرها ، وأن أشيد لروحي وسط ذلك العالم المتجهم
الصارم ، عالماً صغيراً حلواً كائناً فى غرفتى المطلة على الحديقة
المتكاثفة الأشجار الرحبة الأرجاء .

وحاشاى أن أزعم أن هناك من كان يتعمد القسوة
على ، بل الأمر على النقيض . لقد كان الكل يحبني ولكن
بطريقتهم الجافة ، وكان الكل يحاول إسعادى ولكن بوسائلهم
التي لم تكن تحمل إلى أى نوع من السعادة . بل إنى أعتقد
أن ذلك الجو الصارم الجاف الذى أحاطنى به جدى لم يكن
فى حد ذاته إلا دليلاً على حبه إياى ومحاولته أن يحيطنى بسياج
يصد عنى شرور الحياة ومفاسدها حتى يضمن لى ما يتوهمه
من مستقبل سعيد .

مخلوقة واحدة هى التى كنت أجدها تستطيع فهمى ، وفهم

تفكيرى . . ولا تهمنى بالجنون إذا شرد ذهنى عند وقوفى
لأرقب الغروب ، أو دمت عيناى وأنا أستمع إلى هديل بلبل
أو نوح حمامة ، تلك هى « دادتى سيده » التى قامت على تريتى
منذ طفولتى ، والتى كانت أما أشبه منها مربية . . وكانت
تتسلل من مخدعها لتجلس إلىّ وأنا أسترق السمع فى سكون
الليل إلى الراديو وهو يحمل إلىّ النغمات الهادئة اللطيفة ،
وكانت وحدها التى تجلس لتحدثنى عن أبى وعن أمى .

ولم أكن أعرف الحب بعد ، أو كنت أعرفه مجرد شعور
أتوق إليه وأخترنه لفارس أحلام لم بيد فى الأفق بعد .

كنت أحب مجهولا أتوهمه ، وأتوهم فيه رقة الأزهار
المتناثرة حولى وعذوبة الموسيقى المنبعثة فى أذنى ، وجمال
الشروق أو الغروب الممتد أمام ناظرى .

ولم أحاول قط أن أربط بين زوجى المنتظر الذى أعدّه
لى جدّى وبين فارس أحلامى الذى أعددته لنفسى ، إذ لم
يكن هناك بينهما أقل شبه ولا أذى صلة .

ورويداً ، رويداً بدأت أوهامى عن فارس أحلامى
تتركز فى مخلوق لم أره ، ولكنى كنت أتخيله من بين ألحانه
العجيبة التى يحملها إلىّ سكون الليل .

كنت دائماً أكثر ميلا إلى الموسيقى الغربية حتى سمعت

موسيقاه فإذا هي تشدني في رقة وحنان ، كأنها صدر يضمني
أو يد تربت كتفي .

وهكذا بدأ العشق . . عشق في الهواء . . مخلوق لم ألقه
ولا أتوقع أن ألقاه . مخلوق لا أعرف شيئاً من سماته وإن
كنت قد رسمتها في ذهني من ألحانه التي سمعتها .

وذات ليلة . . ليلة من الليالي الفاتنة . . ذات القمر المظلم
من ثنايا السحب ، والنسيم الرطب الذي يحمل بين نفحاته
شذى الأزهار وكأنها أنفاس عذبة عطرة ، جلست في الشرفة
فإذا الألحان السحرية تتسرب إلى أذني خلال النسيم .

ولم أكن قد أدرت مفتاح الراديو . ولكني اعتقدت أن
« سيدة » قد أدارته وتسالت من الحجر فخدمت لها فعلتها .

وصمت اللحن وطال صمته فظننت بالجهاز عطلاً ، ونهضت
لإصلاحه فوجدته مغلقاً وخيل إلي أنها قد أغلقتة ، فأدرته
ثانية ولكني لم أسمع سوى نشرات الأخبار .

وأغلقت الجهاز وعدت إلى موضعي بالشرفة ، ومرة ثانية
حملت إلى الريح الألحان العجيبة . وأصابني رجفت . . ونهضت
لأرى الجهاز فإذا هو مغلق وإذا اللحن ما زال يسرى .
وخرجت إلى الشرفة فإذا هو يأتي إلي متخللاً الأشجار من
ناحية البيت المجاور .

وكنت أعرف أن البيت مهجور طوال الشتاء ، ولم
يحل به أحد بعد ، ولكنني تذكرت أن عربة وقفت أمامه
بالأمس واستطعت أن ألمح بعض الأضواء تتسرب من
النوافذ .

وعجبت أن يكون لساكنيه تلك الموسيقى العجيبة وظننتها
آتية من إحدى الموجات الأخرى للإذاعة وحاولت أن
أضبط الجهاز على الموجة المخصوصة ولكن عبثاً .
وأخذت أنصت عندما سمعت فجأة صوتاً مزعجاً يقطع
على متعة الاستماع ويصيح قائلاً :

— العشاء جاهز يا أستاذ ، تفضل للأكل وكفى « التننتة » .
وتوقفت « التننتة » وسمعت صوتاً آخر يجيب في لهفة
صاحكة :

— حاضر يا عم مدبولي .. نترك « التننتة » .
وتمنيت أن أضرب « عم مدبولي » هذا .. وأن أصبح
بالآخر استمر في « التننتة » ولكن الحياء عقد لساني ، وقبعت
في مجلسي أحملق في الظلمات .

ومرّت الليلة بعد الليلة وأنا أسمع الصوت العجيب
دون أن أعرف صاحبه ، وحاولت عبثاً أن أميز شكله

خلال النهار . وأخيراً لم أجد بداً إلا الاستعانة بـ « سيدة »
فأرسلتها تتنسم الأخبار عليها تعرف شيئاً .

والتقت سيدة بمديوني ولم يصعب عليها بلباقها أن تعرف
ما تريده عن جارنا الجديد عازف الموسيقى .

وأنت إلىّ تحمل الأنباء . . . وكانت عجباً . . . من تظنه ؟
لقد كان صاحب اللحن نفسه هو فارس أحلامي . .
وحبيب الروح الذي كنت أختزن له مشاعري وأكنز
حبي .

ولا أظن من السهل أن تتصور وقع المفاجأة علىّ عندما
أبصر الأمنية التي ظننتها حلماً مستحيلاً . . . والمخلوق الذي
ظننته وهماً لا يتحقق ، قد بات منى قاب قوسين أو أدنى .

لقد سمعته ليلتذاك وأنا في نشوتي في شبه غيبوبة ،
وأصدقك القول أني لم أذق النوم من فرحتي إلا لما . . .
وعندما أقبل الصباح كنت قد عقدت النية على أن أراه بأى
شئ .

وعلمت أنه يقضى معظم وقته معتكفاً في حجرته يضع
ألحانه ، ويؤلف موسيقاه ، وأنه يجلس أمام البيانو الصغير
المواجه للنافذة التي تطل على الحديقة ، وأنني لو اعتليت
السور الفاصل بين البيتين المواجه للنافذة لاستطعت أن

أبصره جيداً وهو منهمك في عزفه دون أن يرانى ودون أن ألفت إلى نظر أحد.

وهكذا لم أكد أسمع العزف يبدأ حتى أدركت أن الفرصة قد حانت ، وهبطت متسللة إلى الحديقة وبدأت أتسلق السور كاللصوص حتى وقفت على حافته وأخذت أزيح فروع الشجر المتكاثفة القاسمة بين الحديقين حتى استطعت أن أجدلى منفذاً يطل على النافذة ، ثم أمد عنقى بين الفروع وكان اللحن مستمرأ على أشده ولم أشك في أنه جالس أمام البيانو ، وقد انهمك في العزف ، وشعرت بنشوة شديدة عندما أيقنت أنى أوشك أن أراه . . . ووقع بصرى على النافذة ، ثم تخللها إلى الداخل واستقرت عيناى على « البيانو » ، ولكنه كان خالياً . وفى نفس اللحظة التى شعرت فيها بخيبة الأمل والدهشة سمعت صوتاً مفاجئاً من أسفل السور يهتف بى :

— ضبطتك ، أيتها السارقة .

ونظرت إلى أسفل ، ولدهشتى الشديدة ، وجدته هو ، أجل هو ، هو ، كما رسمته فى أوهاى وأحلامى . وكانت مفاجأة شديدة الوقع على ، ولا سيما أن العزف كان مستمرأ ، وهممت بالتراجع والفرار عندما زلت قدمى

وارتطمت بحجر واه في السور فانزلت من على وهويت من
السور إلى داخل الحديقة .

والتوت قدمي ، وانتابني من الالتواء ألم شديد . وصرخت
صرخة مكتومة ، ولم أتمالك أن بكيت .

وأقبل هو علىّ منزجاً وأمسك بقدمي يدلّكها في رفق
وأنا أتألم وأتأوه ، وهو يعتذر في لهجة مستعطفة نادرة .

وفي نفس الوقت كان العزف ما زال مستمراً .

ولم أتمالك رغم ألمي أن أتساءل في دهشة :

— من الذي يعزف إذأ ؟

— لا بد أنه مدبولي .

— مدبولي ؟ إذأ لست أنت ؟

— لا ، لست أنا .

— إني أتكلم جادة ؟

— وأنا أيضاً أتكلم جاداً .

— ولكن كيف لا تكون أنت الذي تعزف ؟

— لأنه لا يمكنني أن أكون واقفاً أمامك ، وفي الوقت

نفسه أعزف في الداخل . وعلى أية حال ليس هذا وقت

تحقيق ، لا بد أن أدخلك الآن حتى أربط قدمك .. أنا

متأسف جداً لأنني تسببت لك في ما حدث ، ولكن عذري

أني أستيقظ كل صباح لأعد الورد في الحديقة فأجده ناقصاً
فلما لقيتك واقفة فوق السور قلت لا بد أن تكوني
سارقة الورد .

وبسرعة ، وقبل أن أفكر في الرد عليه حملني بين يديه
وأسرع إلى الداخل .

ولم أكد أستقر في الحجرة حتى وقع بصرى .. على
السبب في كل ما حدث . وقع بصرى على مسجل صوتي يذيع
اللحن الذي سمعته .

ونظرت إليه وقلت في عجب :

— أهذا آخر لحن لك ؟

— لي أنا ؟ . أتعرفين من أنا ؟

— طبعاً أعرف .

— أوائية أنت ؟

— إني أعرفك ، وأعرف كل لحن وضعته . أنا حقيقة

سارقة . . لكنني لست سارقة ورد ، أنا سارقة ألحان ، إني كل
ليلة أسترق السمع إليك .

وكان يبدو عليه مزيج من الدهشة المصحوب بالألم لما
سبب لي . وأخيراً انتهى من ربط قدمي .

وأخذت أفكر كيف أعود إلى المنزل . أمن المعقول

أن يحملني إليه كما فعل عندما أدخلني إلى داره ؟ ماذا يفعل
جدى لو وقع بصره على هذا المنظر ؟ ! بل ماذا يفعل لو عرف
أنى هنا أجلس هذه الجلسة ؟

وتبددت نشوة اللقاء وغلبني الارتباك والخوف وقلت :

— إنى لا بد أن أعود إلى البيت .

— انتظرى على الأقل حتى تستريح قدمك .

— لا أستطيع .

— ولما ؟

— لا بد أن يكون جدى قد استيقظ الآن وأن تكون

« سيدة » قد جهزت الإفطار وهو لا بد سائل عنى .

— إذا انتظرى حتى أحملك إلى هنالك .

— تحملنى ؟ .. مستحيل .

— وما وجه الإستحالة ؟

— ماذا يقول جدى ؟

— لن يقول شيئاً إنك كما بنتى ؟

وآلمنى منه قوله أننى كما بنته ، وكرهت أن يرانى صغيرة

وصحت به :

— أنا كبيرة ، إن عمرى ست عشرة سنة .

— ستة عشر عاماً ، مرة واحدة ، أنت كأمى إذا ؟

— أتمرح ، فى وسط هذه المشكلة التى أوقعتنى فيها ،
ما ذا ترانى فاعلة ؟

— قلت لك أحملك . . أو على الأقل أسندك . . فلم
يرق لك هذا .

— أمعقول أن أعود إلى البيت وأنت تحملنى أو
تسندنى ؟

— سأوصلك حتى الباب وهناك تسندك الخادمة .

— باب ؟ . . ! . . أتريدنى أدخل من الباب وأمشى
فى الطريق ؟

— إذا من أين ستعودين ؟

— كما أتيت .

— أتعودين من السور مرة أخرى ؟

— أجل . حتى لا يرانى أحد .

— ولكن كيف أحملك وأقنض بك فوق السور ؟ !

انتظرى ، لقد وجدت فكرة هائلة ؟

ثم صاح ينادى مدبولى ، ولكنى أمسكت به وقلت له
إنى لا أريد أن يعرف أحد ما حدث خشية أن تصل القصة
إلى مسامع جدى .

وأقبل مدبولى فأمره بالوقوف فى الخارج .

وهمس إلى :

— لا بد أن يساعدنا أحد إذا كنت مصرّة على أن
تعودى من السور .

— إني لا أريد أن يعرف أحد .

— اصبرى إذاً .

ثم هتف بالرجل الواقف في الخارج :

— مدبولى .. اغمض عينيك .

وأجاب مدبولى :

— أغمض عينيّ ؟ أنا ؟

— نعم أنت .

— له ؟ !

— قلت لك أغمض عينيك .

— أنا أغمض عينيّ ؟ لماذا ؟ أتتوى أن تلعب معي

« استغاية » . وحياتك والدك يا أستاذ ليس لى وقت للعب

معك ، أنت رجل « فائق ورائق » لا عمل لك سوى

« التنتنة » . ولكن أنا عندى أعمال كثيرة .

— اغمض عينيك ولا تكن لحوحاً . اغمض عينيك .

— أهو حكم قراقوش .. أمرنا الله .. أغمضت عينيّ ..

ماذا تريد بعد ذلك ؟

— استمر مغمضاً .

— « خلاص » ؟

— قلت لك انتظر . . لا تفتح عينيك حتى آمرك .

— حاضر ، لن أفتح عيني حتى أرى آخرتها معك !

ثم أخذ يهمس إلى :

— الآن سأسير به إلى السور وهو مغمض العينين . ثم

أوقفه على السور وأناولك إياه . وأقفز أنا في حديقة بيتك

وأتناولك منه . وعندما أعود تنادي أنت عليهم ، وكأن

قدمك التوت وأنت في الحديقة . ما رأيك ؟

— مسألة فيها مغامرة ، ولكن ربنا يستر ، ليس أمامنا

من حيلة سواها .

وخرج هو إلى مدبولى فوجده واقفاً في الخارج وهو

مغمض نصف إغماضة فصاح به :

— ما عسى أن أصنع معك ؟ أنت لا تغمضهما جيداً ،

لا أريدك أن ترى شيئاً أبداً . . أسمع ؟ أم ترى من

الخير أن أربطهما لك . . أنا أعرفك رجلاً غشاشاً .

ثم ربط عينيه بمنديل ، وقاده إلى السور ورفع على

مقعد إلى حافته ، ثم تركه وعاد إلى فخملنى بين يديه ووصل إلى

السور فرفعنى إلى مدبولى وهو على السور معصوب العينين

فاغر النغم من فرط الدهشة .

وهمس إبراهيم وهو يرفعني بين يديه :

— مدبولي . خذ .

— آخذ؟ . آخذ ماذا؟

— مدّ يدك وتناول ما سأعطيه لك . واحتفظ به برهة

حتى آخذه منك ثانية .

ومدّ مدبولي كفه ، ولكن إبراهيم صاح به في حنق :

— مد يدك الاثنين ، وانحنى قليلا .

وفعل مدبولي ، كما طلب منه ، وعند ما استقرت بين

ذراعيه هتف في دهشة :

— يا نهار اسود ، ما هذا ؟ ! قتيل ؟

— صه ، أيها الخمار ، أمسك به جيداً وإلا سقط منك .

— ولكن .. أنا

وقفز إبراهيم بسرعة إلى الناحية الأخرى من السور

وصاح بمدبولي :

— هات ، مد يدك . اخفضهما قليلا ، أجل هكذا .

واستقرت مرة ثانية بين يدي إبراهيم الذي انحنى ووضعني

برفق على الأرض وتلفت حولى في حذر وخشية وقلت له :

— عد أنت بسرعة لثلا يراك أحد .

وفى غمضة عين كان قد قفز فوق السور واستقر فى
الناحية الأخرى من الحديقة .

وكانت الحوادث تجرى بسرعة وبطريقة مضحكة أنستنى
آلام قدمى ، بل لا أكذبك إذا قلت إن المغامرة بعثت
فى نفسى نشوة لذيذة وأنا أبصر فارس الأحلام ، العاقل
الرزين ، يحملى ويتوائب فوق الأسوار .

وكنت أستقر فى رقدتى فوق الحشائش كما تركنى إبراهيم
وأنا أرقب مدبولى معصوب العينين يقرب كفه وشفتيه فى
دهشة وهو يتمم « أصحاب العمول فى راحة » عندما أبصرت
بـ « سيدة » تبدو قادمة من وراء البيت . ولم تكذبصرنى
رافدة حتى صاحت منزعة :

— سيدتى راجية ، مالك ؟! كفى الله الشر ؟

— التوت قدمى وأنا سائرة .

ولكن قبل أن تستقر الإجابة فى أذنيها وقع بصرها
على مدبولى فوق السور فضربت صدرها بكفها صائحة
فى دهشة :

— مدبولى « ينيك » ما الذى تفعله فوق السور ؟

وأجاب مدبولى فى سهولة :

— ألب « استغاية » .

— تلعب استغاية وأنت في هذه السن وفوق أسوار
الناس . إلهي « تنسخط » .

ومدّ مدبولي يده لينزع العصاةة عن عينيه . ويبدو أنه
لم يكن يدرك حتى هذه الساعة أنه واقف على السور فقد
نظر حوله في فزع ثم هوى داخل الحديقة ، قريباً مني .
ولطمت يده ساقى فصحت متألمة .

وعلى صوت صياحي وصياحه ، صاح صوت ثالث ،
هو آخر ما كنا نود أن يصيح وهو صوت جدى ، إذ بدا
في الشرفة وأطل على المنظر العجيب ، منظرى ومدبولي
طريحي الأرض .

صاح جدى غاضباً :

— ما شاء الله . ماذا يفعل هنا هذا الرجل ؟

وهمست سيدة في حرج وخشية :

— انهض يامدبولي ، وكفى مصائب .

ونهض مدبولي متعثراً والجد يصيح به :

— انطق . ماذا أتى بك إلى هنا ؟

— أنا ، أنا ، كنت فوق السور .

— فوق السور ! وماذا تفعل فوق السور ؟

— . . . أ . . . أشم الهواء .

وتداركت سيدة الأمر فقالت للجد :
— كان يقص فروع الشجر فوق السور ، فزلت قدمه
وسقط عندنا . خذ بالك مرة أخرى يا حاج . الظاهر إن
نظره ضعيف .

وصاح مدبولى مرتبكا :
— أجل ، أجل ، ضعيف جداً ، السلام عليكم .
وهمّ بالعودة قافزاً على السور فهره الجد بقوله :
— اخرج من الباب ، أيها الأحمق ، إن ما تفعل لا يفعله
سوى اللصوص .

— حاضر ، لا مؤاخذة .
وهرول الرجل متجهاً إلى الباب .
وانحنت سيدة فوقى تفتحص قدمى وتحاول معاوتى على
النهوض .

وبعد لحظات كنت أستقر على الفراش وجدّى يربت
جسمى ثم يأمرنى أن أستريح ولا أحركها .
ولم يكذب جدّى يغادر الحجرة وسيدة تخلو بى حتى نظرت
إلى نظرة اتهام وهمست :
— هذا الكلام لا يدخل عقلى أبداً .
— ما هو ؟

— التواء قدمك . كل يوم تسيرين في الحديقة في أمان
الله ، دون أن تلتوى قدمك .
— قضاء ، وقدرآ .

— كلام فارغ ، لا بد أن هناك شيئاً ، هل تريدن أن
أصدق أن هذا الأحمق قد وقف على السور معصوب العينين
لكي يلعب « استغاية » كما قال لي ، أو لكي يشم الهواء كما قال
لسيدي ، المسألة لا بد أن يكون فيها سر .

— اسمعي يا سيده ، أتريدن الحقيقة ؟
— طبعاً ، إذا لم أعرف أنا الحقيقة فمن يعرفها ؟ من الذي
يعرف خباياك وأسرارك في هذا البيت سوى ؟ !
— الحقيقة يا سيده أني قفمت فوق السور لمشاهدته وهو
يعزف على « البيانو » فسقطت .

— هكذا !! إذا فهذا السر في حيرتك منذ بضعة أيام
وانتقالك من النافذة إلى الشرفة ، ومن الشرفة إلى النافذة . أو
قد هدأ بالك الآن بعد أن رأيته ؟ أو قد استرحت ؟

— طبعاً . لقد كنت أتمنى رؤيته منذ أكثر من عام .
— وماذا رأيته ؟ ! رأيته به شيئاً أكثر مما بسواه
من الناس ؟

— أكثر كثيراً . كنت دائماً أتخيله في صورة رائعة

ولكن ما رأيته فيه كان أروع . لا تستطيعي أن تتصورى
مقدار رفته ولطفه ، هل تصدق أنه حملنى إلى حجرته وذلك
لى قدمى ثم حملنى مرة أخرى إلى السور ؟

— ما شاء الله . إياك أن تذكرى هذا الكلام مرة
أخرى . فلو عرف جدك ، لسوّد عيشنا ، إنه لن يرى به
شيئاً من اللطف الذى ترينه ، سيراه رجلاً عادياً وقحاً ،
يغازل بنات الجيران .

— لا ، لا يا سيدة ، لا تقولى هذا . إنه ليس كغيره
من الناس .

— أنا لا أرى به شيئاً أكثر من الناس ، إنه يمشى على
قدميه ويهز يديه .

— لا يا سيدة ، إنك لا ترينه جيداً ، إن به شيئاً أفضل .
شيئاً أسمى وأجمل . إن به . . .

ولم أستطع أن أعبر عما أريد أن أقول ، إن به أشياء
كثيرة ، إن به الروح وبه الحياة . ولم أملك سوى أن أطلق
تهنئة حملتها الكثير من الحرارة التى تصهر جوانحى .

ووجدت سيدة تبسم ، ثم تقرب منى وتتحسس شعرى
فى حنان وتسألنى فى رقة :

— ماذا به أيضاً ؟ !

— به . . به . . اسمعى يا سيدة ، ألم تجرّبى الحب ؟ !

— الحب ؟ ! !

وتنهدت سيدة وأردفت قائلة :

— أجل جرّبتّه . وأسأل الله لك منه السلامة .

— لمه ؟

— لأن أوله حلو وآخره علقم .

— أهذا كل ما تعرفين عنه ؟ !

— وماذا تعرفين أنت ؟

— ماذا أعرف ؟ ! أعرف أن الإنسان يظل سائراً في

حياته كعابرة صحراء مجدبة قاحلة ، لا يبصر من حوله رجاء

ولا أملاً ، لا شئ غير سراب يلمع من بعد ، ويغريه بالمسير

وسط الفراغ والوحشة والعدم ، ليحمله المزيد من مشقة

والمزيد من إعياء ، ويستنفد منه جهده وقواه ، ومرة واحدة

يشعر فجأة كأن الصحراء قد مستها يد ساحر ، أو كأن أنفاس

عيسى — كما قال الخيام — قد سرت فيها :

فنفخن الروح فى أرض موات

وجعلن التبت يزكو من رفات

وبعثن الطير يشدو هادلا

فى أريك الأيك مثنى ورباع

ويرى الحياة قد دبت في كل ما حوله . فأضحى بريق
السراب ماء ، والحصى لآلاء ، والظلمة سناء ، والياب نضرة
وبهاء ، وأضحى ثقل الناس لطفاً وسخاقتهم ظرفاً ، وغباؤهم ذكاء
وقبحهم جمالا . ولم يعد في الحياة إلا كل حلو مستعذب .
إذا كان الإنسان — وهو غالباً ما يكون — كما قلت لك
أولاً ، ثم أصابه فجأة ذلك الذى حدثتكَ عنه ثانية . فاعلى
— بلا جدال — أنه أحب ، هل فهمت إذن ما هو الحب ؟
وافتر ثغر « سيدة » عن ابتسامة عريضة وأجابت فى
لهجتها الخائبة :

— والله ما فهمت شيئاً ، أتقولين كلاماً مثل الذى تقرئينه
فى الكتب ، ثم تسألينى إذا كنت قد فهمت ! أنا لا أفهم شيئاً
من هذا الذى قلته عن الصحراء والماء والحصى . . أنا أعرف
الحب ، يعنى الحب ، يعنى بالعربى « حُضن وبوس » .
— لا ، يا سيدة ، حرام عليك ، الحب أسمى من أن
يركز فى مثل هذه المظاهر المادية ، إن تلك بعض مظاهره ،
وقد يكون الحب ، ولا تكون هى .

— افهمى الحب كما تفهمينه . . المهم أنك قد وقعت ،
والإصابة لم تصب قدمك ، ولكن أصابت قلبك « ربنا يجعل
العواقب سليمة » لأن الإصابة سريعة وحامية .
— الظاهر أنك لاتعرفين شيئاً ، إن الإصابة قدينة ،

أنا لم أحبه اليوم أو الأمس ، لقد أحببته منذ سمعته ،
كانت أنغامه تطير بي إلى عالم آخر . كنت أعيش معه أكثر
بما أعيش معكم .

— هكذا ! ولم أكن أنا أعلم شيئاً عن ذلك «السرхан» .

— هل تدرين ماذا أحسست عندما أنبأتني أنه هو

نفسه الذى يتطن بجوارنا ؟

— بماذا ؟

— أحسست إحساس الذى يتوق إلى الحج ولا يستطيع

إليه سبيلا ، عندما يجد الكعبة قد جاءت له . أحسست

أنى حصلت من الحياة على أقصى ما أريد ، وقلت لنفسى إن

من الجحود أن أسأل الله شيئاً بعد ذلك .

وزادت ابتسامة «سيدة» وضربت كفها على كف وقالت

فى دهشة :

— اسمعى ياسيدتى راجية ، الظاهر أن الصدمة لم تصب

قدمك ولا قلبك ، بل أصابت رأسك . . أمتأكدة أنت

أنك فى تمام وعيك ؟ هذا الحديث لا يقوله إلا الشعراء ،

أو المجانين .

— أو المحبين ، وأنا أحب ياسيدة ، أحب .

— سلامتك من الحب ، أدعو أن يكون لمن يكرهونك .

— لماذا؟!

— لأنى أخشى عليك من الحب ، أعنى من هذا الحب

بالذات .

— تخشين علىّ؟ أمجنونة أنت؟! تخشين علىّ من الحياة

ومن الأمل؟

— لا ، ياسيدتى ، أنا أخشى عليك من ضياع الأمل .

أخشى عليك من فقد الحياة .. هذا شيء لا فائدة فيه .. أنت
تعلمين أنك مخطوبة .

— لست مخطوبة .

— شبه مخطوبة .

— ولا هذا أيضاً .

— لا تكونى عنيدة ، ولا مكابرة ، أنت تعرفين جدك

تماماً ، وتعرفين أنه قد وطد عزمه على أن يزوجك ابن

خالته ، وأنه ليس هناك قوة تستطيع زحزحته عن رأيه .

ثم أريد أن أسألك : هل أنت واثقة أن الطرف الآخر

خال؟! ألا يحتمل أن يكون متزوجاً!! أو خاطباً!! أو

على الأقل ، مشغولاً ، فلباذا تعلقين نفسك بأمل لا طائل

تحتة ولا فائدة ترجى منه .

ولست أدري لم لم أفكر فى هذا من قبل ، وأحسست

كأنما أوشك أن أهوى من حائق أو كأن الضياء الباهر
الذى غمرت به نفسى قد انطلقاً بجأة . . لكن ما لبثت أن
نفضت عن نفسى بسرعة غبار اليأس ، وعلام اليأس ، وأنا
لم أحدد بعد ما أريد منه ؟ إنى سعيدة بتحقيق أمل سابق ،
بل لقد تحقق لى أكثر مما كنت آمل . لقد أصبحت أراه ،
وأسمعه ، وأحس أنه يحيا بجوارى ، وأن النسمة التى تمر بى
قد سبق أن مرّت به .

ووجدتنى أقول لها بنفس ملؤها الثقة والإيمان :

— كل هذا لا قيمة له عندى ، إنها عقبات لا دخل
لى بها ، إنها لا تقع فى طريقى . ولا تمنع عنى رجاء ولا تحيب
أملا ، إن كل ما آمل فيه هو أن أراه من بعد ، وأن أسمعه
وهو يعزف ، إنى لا أطمع حتى فى أن يحس بى ، أو
يسأل عنى .

وهزّت « سيدة » رأسها ، كأنها لم تقتنع بقولى ، غير
أنها لم تر فائدة فى استمرار المناقشة ، ولم تملك سوى أن
تضمنى إليها ، متممة ببعض الدعوات التى كانت لا تفتأ
تحيطنى بها .

ومضت بضعة أيام وأنا قانعة راضية .. كل ما أطمع فيه
هو سماع ألحانه واختلاس النظر إليه . أو إشارة سلام

ولإيماءة تحية كلما التقت الأبصار .

كنت سعيدة ، ولم ينقص مقدار سعادتي أنى شبه مخطوبة
وأنى مقيدة إلى إنسان آخر ، لأن مطامعي لم تكن تصل إلى
أكثر من مجرد الرغبة في سماعه أو رؤيته ، ولم أك أتخيل
قط احتمال حدوث نوع من الصلات بيني وبينه ، وبالتالي لم
أجد ذلك الارتباط قد حال بيني وبين شئ أطمع فيه .

كنت أحيأ - كما سبق القول - حياتين : الحياة الآلية
الصماء التي أفضيها مع جدى وابن خالتي والتي لا يسعني
سوى أن أقبل كل ما فيها برضاء شكلي ، والحياة الأخرى
المرهفة الذائبة التي أفضيها في الشرفة عندما يخيم الظلام
ويبدأ النسيم يحمل إلى الحانة .

وهكذا ظلت قانعة بالصلة الروحية الموسيقية حتى
بدرت منه أول بادرة حركة مطامعي وجعلت القلب يتوق
إلى أكثر مما كان يقنع به .

لقد أرسل خادمه لسأل عنى وعن قديمى من « سيدة »
وأنت إلى « سيدة » متسللة تبلغنى السؤال ، فأحسست منه
فرحة شديدة وطلبت منها أن ترد له السلام وأن تسأله أن
يعزف الليلة اللحن الذى كان يعزفه أول ليلة أتى إلى
الأسكندرية .

ولم يكن اللحن ذاته هو ما أريد ، ولكنى كنت أود
أن أسأله مطلباً وأردت أن أشعره أنه يفعل من أجل شيئاً .

وفي تلك الليلة كنت أجلس على مقعد في الشرفة ، وقد
أرخت رأسي على حافته ، ورحت من شرودي في شبه
إغفاءة ، وكانت تجلس على الأرض بجوارى « سيدة » ،
وقد اتكأت بذراعها على حافة المقعد ، واللحن يسرى في
سكون الليل . واستمرت الألحان تصل إلى أذني ، وكأني
بها هابطة من السماء ، وأخيراً انتهى العزف ، وساد السكون .
وأطلقت بعده تنهيدة حارة أعقبها سؤال من سيدة :

— ما بالك تنهدين ؟

— أنا سعيدة ياسيدة ، سعيدة جداً ، لقد كنت بالأمس
سعيدة وأنا أشارك « الملايين » في سماعه ، كنت سعيدة بألحانه
التي تصل إلىّ كما تصل إلى كل إنسان سواي ، كأنها أشعة
شمس أو هبة نسيم ، تصوّري مقدار سعادتي الآن وأنا
أحس أنه يعزف لي ، وأني أستمع إليه وحدي ، تصوّري
مبلغ سعادتك عندما تحسّين أن الشمس لم تشرق إلا لتضئ
لك ، وأن النسيم لم يهب إلا ليملاً رثتيك وحدك .

— يا سيدتي زاد الله سعادتك ، أنت طيبة وتستحقين
كل خير ، إنى لا أمتكثّر على الشمس أن تشرق لك

وحدك ، ولا على النسيم أن يهب من أجلك . . . ولو كان
الأمر بيدي لمحوت من صفحتك شوائب الكدر وجعلت
حياتك هناءاً خالصاً . . . ولكن الدنيا لا تفعل ذلك . . .
الدنيا تستكثر علينا النسمة التي يشاركنا فيها الملايين . . .
فلا تشرق علينا الشمس إلا وقد حرمانها . . . ونحن أتم
ما نكون صحة . . . الدنيا تكره أن تديم على ابن آدم نعمة . . .
فقدس له في طياتها النعمة تلو النعمة حتى تغلب النقم النعم . . .
وأنت يا سيدتي تعيشين في هذه الدنيا . . . وتخضعين لقضائها . . .
ومن أجل هذا أخشى عليك منها .

— ماذا تخشين عليّ ؟

— أخشى عليك الخيبة والخذلان .

— قلت لك إنى لا أرجو شيئاً . . . حتى يخب لي رجاء . . .
ولا أمل في شيء حتى يضيع لي أمل . . . إن سعادتى مستمدة
من هنا . . . من باطنى . . . من قلبى . . . ومن ذهنى ومن سمعى . . .
ومن تفكيري . . . ومن أحلامي .

— إنى أخاف عليك من أحلامك . . . إن الأحلام
حلوّة والحتماتق مريرة . . . وشر ما في الأحلام أنها تجسد لنا
مرارة الحتماتق إذا ما فتحنا العين عليها .

— دعيني أغمض عيني برهة . . . دعيني أحلم . . . حتى أرى

ما أحب .. غداً سأفتح عيني وأرى ماسترغمني الحياة على
أن أراه .. فدعيني أترودّ من أحلامي ما يعينني على مرارة
اليقظة .. أنا لا أستطيع أن أرفض نعمة الله التي وهبها لي ..
لا أستطيع أن أقتل الإحساس الذي أنعم به عليّ والذي
جعلني أحس بالمتعة في كل ما أرى .. لا أستطيع أن أوقف
ذلك الشعور الذي يجعلني أمسك منديلاً كهذا .. الذي ربط
لي به قدمي .. فأضمه وأشمه .. وأشعر منه بنشوة ممتعة ...
منديل لا يختلف نسيجه عن نسيج الآلاف من المناديل
الملقاة في جيوبنا .. لانحس لها أثراً ... ومع ذلك فقد
جعلته مشاعري نسيج وحده .. جعلت خيوطه تتنفس
وتهمس بأعذب الهمسات وأتناجي أرق المناجاة .

ولم أكن مبالغاً في قولي ، فقد كان هذا هو بالضبط
ما أشعر به .. ولذلك لم أحاول أن أحد من مشاعري ..
وأوقف من هيامي .. بل اندفعت في استسلام ممتع في
أحلامي الجميلة .

ومنذ تلك الليلة .. بدأت الأحلام .. تتخذ طريقها
إلى التجسد .. ونشأت بيننا صلة سؤال وجواب بعون خادمينا :
مدبولى وسيدة .. وأخذت كل ليلة أسأله اللحن الذي أود
أن أسمع .

وزاد التعلق وزاد الوله . . ولم أعد أقنع بصحبة الألمان
في سكون الليل . . وبدأت أتطلع إلى صحبة أخرى خلال
النهار . . ولم يك يصعب على ذلك . . وأمسكت « باللوحة
والفرشاة » وبدأت أرسم صورته . . وبت بذلك لأفارقة ،
ليل نهار . . بالليل أُلحانه . . وبالنهار رسمه . . أمتع وإياه في
خلوة في حجرتي . . أجرى « الفرشاة على اللوحة » لأبرز
السمات وأوضح التعابير .

ودخلت « سيدة » وأنا أرسم ، فنظرت إلى الصورة في
دهشة وضربت صدرها — كعادتها عند ما تريد أن تعبر
عن الدهشة — وصاحت في صوت لا يخلو من الجذل :

— بسم الله الرحمن الرحيم . . من أين أتى هذا ؟

وقلت وأنا أتراجع ناظرة إلى الصورة في إعجاب :

— ما رأيك ياسيدة ؟ أليس بها شبه كبير ؟ !

— والله ، الخالق الناطق .

— ستزين الشبه أكبر عند ما تتم الصورة . . ستجدين

أنه هو بعينه يجلس معنا .

— ولكن ألا تخشين أن يراه أحد ؟ !

— لا تخشى شيئاً . إن لدى احتياطات الأمن ، انظري .

ثم قلبت الصورة ، وكان بها رسماً كاريكاتورياً لمذبولى .

وضربت « سيدة » صدرها الضربة المألوفة ثم استغرقت
في الضحك وقالت وهي تتفرّس في الصورة :

— « ينيّلك » يامدبولي . . حتى انت ترسم في الصورة
« ومالك ماداً بوزك كالغراب النوحى . . والنبي دمه خفيف
ياسيدتي » . . اليوم أتى إلىّ يتسلل من وراء السور وأخبرني
أن سيده إبراهيم يسأل عنك ويقول أنك قد أوحشته وأن
به شوقاً إلى رؤيتك . . ويسأل متى تنوين الوقوف على
السور حتى يستطيع أن يتلقفك هذه المرة . . فلا تصاب
قدمك .

وأحسست من حديثها بنشوة وسألتها :

— أحقاً قال هذا ياسيدة ؟

— وحياتك عندي قال هذا ؟ . وما الذي يدعوني

إلى الكذب . !!

— أنا أعرف أنك تريد إدخال السرور على قلبي . .

ويحتمل أنك اخترعت الحديث من أجل هذا .

— أنا أحب إسعادك حقيقة ، ولكن ليس بالكذب .

أقسم لك أن هذا ما قاله . . . ولقد ظننت في مبدأ الأمر أنه
يحاول بذلك خلق الحديث معي . . . وأنه يريد « جر
الشكل » . . وأنا أعرفه خبيثاً « بصباصاً » رغم ما يبدو عليه

من طيبة . . فقلت له : قل باختصار ماذا تريد . . ولا تدخل
سيدك بيننا ؟ ! فأجاب أنا لم أدخله بيننا . . إنه هو الذى أقحم
نفسه . . الظاهر يا سيدة . . إن سيدتك شغلت باله . . فهو
لا يفتأ يكرر السؤال عنها . . ولا أكاد أسمع منه طول النهار
إلا « يا مدبولى . . اسأل على الجيران » . . « يا مدبولى كيف
حال الجيران » حتى لقد ضقت به وبالجيران ذرعاً .

كان الحديث لذيذاً ممتعاً على رغم أنه منقول بواسطتين . .
وأن حرارته خلال النقل قد ضاعت وتفصيله قد بهت ،
ولكن مع ذلك أخذت أستفسر منها وأستعيد ، وأستطيع
أن أجزم أنى أكرهتها بالسؤال على تكراره ما يزيد عن
عشر مرات وأخيراً سألتها فى استحياء :

— أتظنين حقاً أنه يريد رؤيتى ؟

— أظن حقاً؟ . . وله لا ؟ ! . . أهنالك فى الدنيا من

لا يريد رؤيتك ؟ ماذا تظنين بنفسك ؟ إنك خير البنات .
إن ذرات الثرى التى تسيرين عليها . . .

ولم يكن هذا المديح هو ما أطلب . . ولا كان هذا هو
الاتجاه الذى أردت أن أوجه إليه الحديث . . بل كنت أهدف
إلى أكثر من هذا . . ولذا لم أجد بداً من مقاطعتها حتى لا تضيق
على الفرصة ، فقاطعتها قائلة :

— ولكن كيف يتمكن من رؤيتي إذا كان يريد ذلك ؟
وتوقفت سيدة عن الحديث ونظرت إلى بعين خبيثة
ماكرة فاحصة . وقالت بلهجة ممدودة :

— أجل .. دخلنا في الجدد .. كيف يراك ؟ ! هذه هي
المشكلة .. ولكن هل هناك ضرورة لأن يراك ؟.

— إذا كان هو لم يرفض لي طلباً من طلباتي التي أثقل
عليه بها كل ليلة . أفيجق لي أن أرفض أول طلب له ؟
وأجابت في لهجة لا تخلو من السخرية :

— لا .. كيف ترفضين ؟ ! أستغفر الله .

— لا تضحكين يا سيدة .. إني أتكلم جادة .

— ولكن رؤيته يا سيدتي ليست بالمسألة السهلة .. بل
هي أمر مخوف بالمخاطر .. وأنت تعرفين جدك جيداً .

— لن يعرف جدى شيئاً .

— إذا دعينا ن فكر يا سيدتي .. كيف يراك !! كيف
يراك !! على أية حال لن نعدم وسيلة للقاء .. ولكن المهم
ألا تكون كالمرءة السابقة من فوق الأسوار .. لقد مرّت
الأولى بسلام .. ولكن ليست كل مرة .. تسلم الجرّة ..
دعيني أفكر يا سيدتي راجية .. كيف يراك !

وقلت لها مقاطعة وقد طاف بذهنى خاطر جعلنى
أطير فرحاً :

— اسمعى ياسيدة .. لقد خطرت لى فكرة هائلة .

— غير القفز وشغل « البهلوانات » !؟

— أجل .. أجل .. يوجد معرض لهواة الفنون الجميلة
فى الأتيليه .. وقد قلت لجدى إنى أود مشاهدته ، فوعد
بالتوجه إليه اليوم قائلاً إن لديه موعداً فى التريانون وأنه
سيوصلنى إلى هنالك ثم يذهب هو إلى مواعده ويرسل
لى العربية كى أمر عليه بها بعد مشاهدة المعرض ، فما رأيك
لو أبلغته أنه إذا رغب فى رؤية المعرض فسأكون هناك
من الرابعة إلى الخامسة وأننا نستطيع مشاهدته معاً ..
ما رأيك فى هذه الفكرة ؟

— هائلة .. وأعتقد أنها مأمونة جداً .. ولكن .. هبى

جذك غير رأيه .. ورغب فى مشاهدة المعرض ؟

— لا أظن .. إنه يسمى الفنون كلها مسخرة ..

لا تؤكل صاحبها عيشاً .

— إذا .. سأذهب لأبلغه .. ولكن خذى بالك .

كونى حذرة جداً .. ولا تتحدثى معه أمام الناس .

— لا تخشى شيئاً .

وانطلقت سيدة تبليغ مذبولى النبأ . . وجلست أعد
الدقائق والثواني وانتقل حائرة من حجرة إلى حجرة . .
وبى فرحة شديدة ملؤها القلق .

وأذكر أنى لم أتناول من غذائى شيئاً . . فإنى أفقد شهيتى
لأى انفعال . . سواء أكان حزناً أم فرحاً أم غضباً . .
وغادرت المائدة سريعاً . . وبدأت أرتدى ملابسى وكانت
الساعة لم تزل الثانية والنصف .

وفى الثالثة كنت أوقظ جدى من غفوته فوق مقعده
الكبير . ونظر إلى الساعة ثم إلى وقد ارتديت كامل ملابسى :
— ما هذا ؟! الساعة مازالت الثالثة . . علام كل
هذه العجلة ؟

وقلت متلعثمة :

— إن مشاهدة المعرض ستستغرق وقتاً كبيراً . . وأريد
أن أنتهى منه قبل حلول الظلام .

— وأين نحن من الظلام ؟

— إنى أخشى أن أترك شيئاً دون مشاهدته .

— اطمئنى ستشاهدين كل شىء . إذهى الآن وارقدى قليلا

وذهبت عنه ، ولكنى لم أرقد بالطبع ، بل جلست

أرقب عقرب الساعة الذى أقسم ألا يتحرك .

وفي الثالثة والنصف أيقظته مرة ثانية . . وفي هذه المرة نهض وهو يرفرف في غيظ قائلاً :

— لافائدة من النوم .. إنها غلظتى من أول الأمر لأنى وافقتك على مشاهدة هذه السخافات .

ولم يستغرق منه ارتداء ملابسه أكثر من خمس دقائق وعندما هممنا بالخروج وسيدة ورائى تهمس فى أذنى بنصائحها فوجئت بأخر ما كنت أرغب فى مجيئه فى هذه اللحظة . . وهو ابن خالتى عبد الرحمن .

ووجدت جدى قد تهلت أساريره وأقبل عليه مرحباً وكنت أعلم أنه يحبه . . فالاثنان كما قلت متشابهان فى التفكير والأخلاق .

وقال جدى مهللاً :

— أهلاً .. أهلاً .. أتيت فى وقتك .. لقد كنا ذاهبين إلى البلدة . . لأن راجية ترغب فى مشاهدة الأتيليه وكنت أنوى أن أوصلها وأذهب إلى التريانون ، فهيا معنا لكي تصحبها إلى هناك . . بدلا من ذهابها وحيدة .

وسمعت سيدة تهمس قائلة « جالك الموت ياتارك الصلاة » والواقع أن وصول عبد الرحمن فى ذلك الوقت كان شراً من الموت . . لقد كان أشبه بسكين حاد قطع خيوط أمل

شدتني إلى السماء . . . فهبطت فجأة وارتطمت بالأرض .
وأجاب عبد الرحمن وهو يضع منظاره على عينيه :
— كنت أريد أن أعرض عليك بعض مسائل وأطلعك
على بعض الحسابات . ألا تجلس قليلا ؟
وصحت وأنا في ضيق :
— لم يعد هناك وقت .
وأجاب جدى عندما أحس بضيقى :
— دع هذا حتى عودتنا . . هيا بنا .
وخرجنا نحن الثلاثة فركبنا السيارة .

ولم أكن أكره عبد الرحمن ، بل على النقيض . . كنت
أحس له بما تحسه الأخت لأخيها ، فتمد أمضينا معاً معظم
طفولتنا وصبانا ، ولكنى كنت أكره مذهبه في الحياة
وطريقة إحساسه بها . . وإغراقه في عمله واعتبار كل شيء
عداه توافه لا قيمة لها . . وقد يكون هو غير مخطيء . . وقد
يكون الواجب على الإنسان أن يكون كذلك . . وقد
أكون أنا الشاذة بتفكيرى ، المراهمة بإحساسى الفياض . .
فلمست أزعم عندما أقول أنى أكره طريقته في الحياة أنه هو
الخطيء وأنا الصائبة . . ولكن كل ما هناك أنى كنت أحس
أننا مخلوقان متباينان . . وأن ميولنا شتى . . وأهواءنا متفرقة

ولذلك كنت أتجنبه . . وأتجنب مناقشته أو الحديث معه .
ولكن في هذه اللحظة كنت أحس بضيق شديد منه . .
فعلى الرغم أنه لا ذنب له في حضوره في هذا الموعد . . فهو
بلا شك لا يعلم أنى ذاهبة لأرى ابراهيم — والحمد لله أنه
لا يعلم — ومع ذلك لم أبرأ من كرهه والسخط عليه .
ويبدو لى أن الضيق الذى استبد بى ساعتذاك قد ارتسمت
معامله على وجهى حتى أن جدى لم يملك أن سألنى فى دهشة :
— ما بك ياراجية ؟

وأفقت لى لى . . وأدركت أنى يجب أن أكون على
حذر أشد . . وألا أترك العنان لمشاعرى حتى تبدو جليلة على
وجهى . . ولم أملك إلا الاعتذار بأقرب عذر طراً على ذهنى
فقلت له :

— ألم بى صداع مفاجيء .

— أتحيين أن نعود بك ؟

— لا . . لا . . إنه سرعان ما يزول .

أجل إن رؤيته ، ولو من بعيد . . خير من ألا أراه . .
وأنى أكره أن يقول لى أنى أخلفت موعدى ولم آبه له .
ثم . . من يدرى ؟!

وكانت « من يدرى » هذه . . هى أملى الدائم ورجائى

الآخير . . في عالم الغيب المعتم بظلمات اليأس .
أجل إن كل مالم يكشف عنه الغيب . . مهما بلغ ياسنا
منه . . قد ننتظر منه شيئاً .

وهكذا جلست في العربة . . أمل في ذلك الشيء .
وأخرجني من شرودي صوت عبد الرحمن يقول لجدى :
— كنت أريد أن أشرح لك مسألة السباد . . لأن بنك
التسليف رفض أن يسلمنا ، وكذلك كنت أرغب في أخذ
رأيك في أسهم شركة الحرير . . ومعنى الآن تقرير مصلحة
الضرائب .

ولمحتة يخرج ورقة يعرضها على جدى . . ولم أكن أفهم
شيئاً من حديث السباد ولا الضرائب ، وكان هذا هو حديثهما
الدائم .

وشردني الذهن مرة أخرى في أشياء أقرب إلى نفسي
من السباد وشركة الحرير وغيره مما يتحدثان فيه . . ولم أفق
إلا وقد وقفت العربة أمام الأتيليه . . وفتحت باب العربة
وقفزت إلى الرصيف ، وعبد الرحمن ما زال منهمكاً في شرح
بعض الأوراق لجدى ، وقلت أستحثة :

— هيا يا عبد الرحمن .

— دقيقة واحدة .

ثم استمر في حديثه إلى الجد :
— يبقى بعد هذا خمسة آلاف وخمسة وتسعين جنيهاً
مضافاً إليها خمسة عشر في المائة عمولة الشركة .. فيكون جملة
الحساب ...

وصحت به في ضيق :

— أنا واقفة يا عبد الرحمن .

— آ .. أهذا هو الأتيليه .. ماذا به ؟

— والله لست أدري ماذا به .. به صور بالطبع .

— صور ...

ثم التفت إلى جدي الذي كان منهمكا في فحص الأوراق
ووجه إليه الحديث :

— أظن نؤجل المسألة حتى نعود لأن راجية متعجلة .

ولكن يبدو أن جدي كان منهمكا في الأوراق التي ألقى
بها عبد الرحمن إليه فقد وجدته يقول دون أن يلتفت حوله :

— لكنني لم أفهم بعد حساب ألف الجنيه .. أي دخل

لها في جملة الإيراد مادمت قد خصمت النسبة المطلوبة !

وبدأ صبري ينفذ .. فصحت بجدي :

— بعدين يا جدي تقدر أن تفهم .. ليس هكذا في

الطريق .

ويبدو أن جدى قد استغرق فى الأوراق بكليته
إذ لم تبلغ صيحتى أذنيه ووجدته ما زال مستمراً فى توجيه
الحديث إلى عبد الرحمن قائلاً :

— وثانى شئ . . مسألة الضرائب هذه .

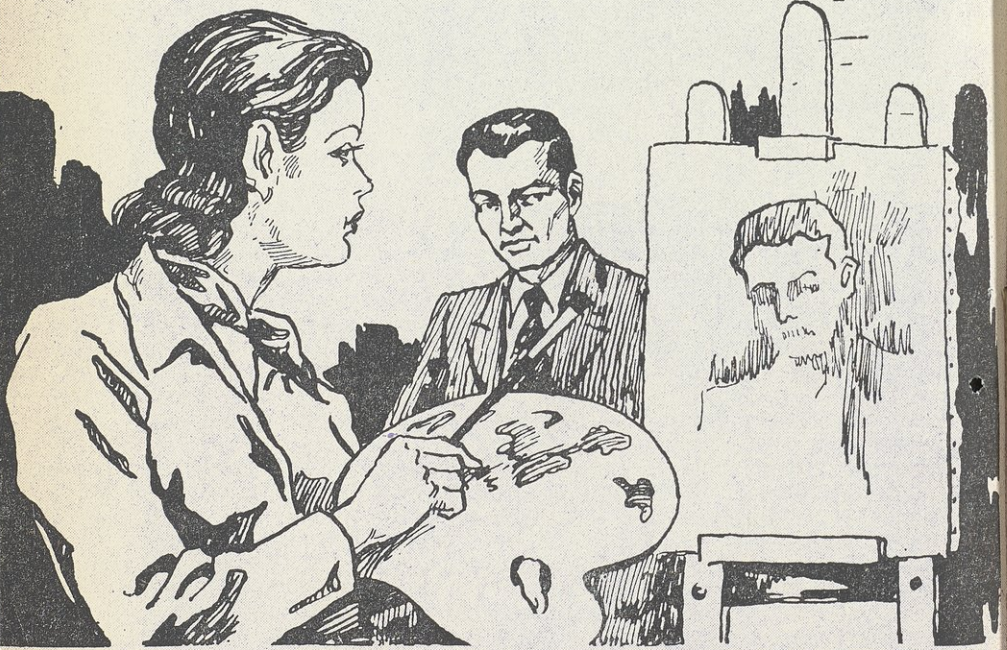
وكان عبد الرحمن قد أدرك مبلغ ضيقى ومبلغ استغراق
جدى فى مناقشته فأراد أن يضع حلاً للمشكلة . . وكان
أسعد حل يمكن أن يوضع ما سمعته يقوله :

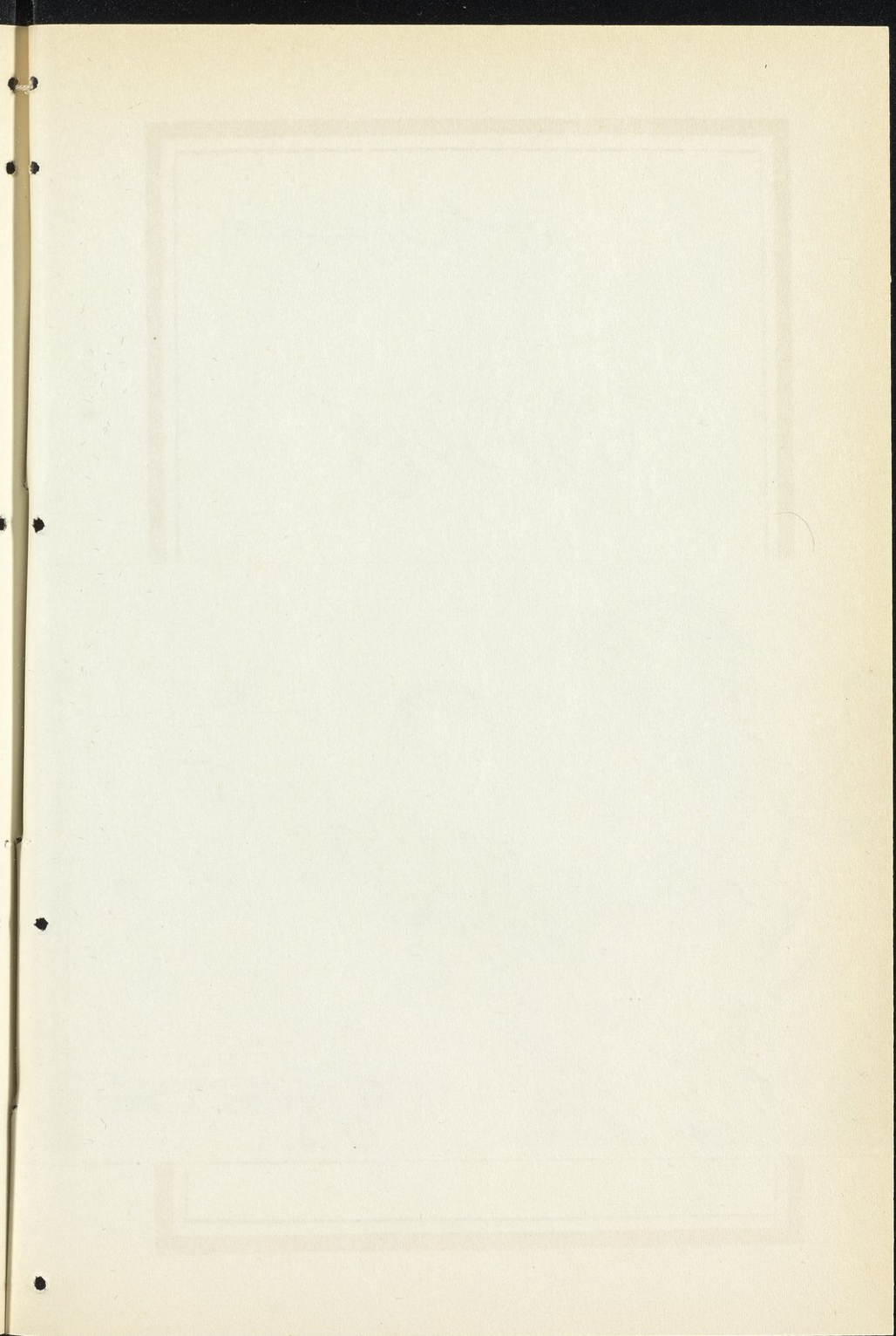
— أظن الأفضل أن تدخل أنت ياراجية . . ودعيني
أنا أرافق جدى لتكملة الحساب . . أنا فى الواقع . . ليس لى
فى المعارض . . ولا فى الرسوم . . تفضلى أنت ياراجية .
وكان قوله كان حكماً بالإفراج عنى وإطلاق حرىتى . .
وأحسست أنى أكاد من الفرحة أقفز إلى الداخل وهممت
بأن أستدير إلى الباب عندما سمعت جدى يقول فى يسر :
— لا . . لا . . دع الحساب إلى وقت آخر . . انزل
معها أفضل .

وهكذا . . فى نفس الوقت . . ألغى حكم الإفراج
وتبدد الأمل . . ولم أملك إلا أن أدير ظهرى إلى العربة
وأتقدم إلى الداخل . . وخطواته تطرق الأرض ورأى . .
وظله يتبع ظلى .

الفصل السادس

مفهوم الذاكرة





نفذت من الباب الحديدي « للأتيليه » وعبرت الحديقة الصغيرة ثم صعدت سلمه الرخامي المنحني القائم أمام البناء الأصفر العتيق ولحمت الساعة في يدي فوجدتها الساعة الرابعة وعشر دقائق ، وكان السلم خالياً إلا مني ومن عبد الرحمن الذي كان يصعد ورأى في تناقل المكلف عملاً يضيق به .

ودلفنا من الباب الخشبي المفضى إلى (صالة) العرض الرحبة ولم يكن المكان قد ازدحم ، فأخذت أقلب النظر يميناً ويسرة ، ويبدو أن وقتي قد طالت إذ سمعت صاحبي يقول بصوت متبرم :

— مالك حائرة ؟ . أتبحثين عن شيء ؟

وحاولت جهدي أن أخفي ما بي من اضطراب وارتباك وقلت متصنعة الهدوء :

— لا . . . إني أسائل نفسي من أين أبدأ .

— أهذه مشكلة ؟ ابدئي من أي مكان وستنتهي حتماً إليه .

ابدئي من هنا . . . من هنا . أليست كلها صوراً ؟

وأجبت في ضيق :

— لا يا أستاذ . . . ليست كلها صوراً . . . إنها مذاهب

ودراسات لا بد أن أبدأ بالناحية المهمة .

وهنا بدت لي — بما لا يقبل جدالاً ولا شكاً — الناحية المهمة .. بل المهمة جداً ، إذ أبصرت إبراهيم يقف في أحد الأركان وهو يتطلع بقامته المشوقة إلى إحدى الصور .

وأصابني الاضطراب .. لست أدري لم .. فرؤيته كانت أمراً متوقعاً .. بل مرجواً ومأمولاً .. فعلام الاضطراب إذاً؟

وحاولت جهدي أن أتمالك .. ولا سيما وأنا أرى تبرم عبد الرحمن قد زاد وهو يقول في ضيق :

— ألم ترى بعد الناحية المهمة؟

وبقدر ما استطعت من السهولة أجبته :

— أجل وجدتها .. لنبدأ من هذا الركن .

وأشرت إلى الركن الذي وقف عنده إبراهيم ثم اتجهت إليه ، وتسائل عبد الرحمن وهو يهرول ورأى :

— ولم هذا الركن بالذات؟ .. هل أستطيع أن أفهم أهميته؟

وكنا قد اقتربنا من الركن ولحمت به بعض الصور « السير يالية » فأجبت في لهجة الواثقة :

— إن به بعض دراسات هامة للذهب « السير يالى » .

— « سير يالى » ؟

وتطلع إلى الصور المعلقة ثم قلب شفثيه احتقاراً ورفع
كتففيه عجباً وقال :

— هذه « اللخطة » .. اسمها « سير يالى » !! أنا أستطيع
أن أفعل مثلها بسهولة .

— اخفض صوتك .. من فضلك .. إذا كنت تجهل
الفن .. فكف عنه لسانك .. ولا تفضحنا ؛ وإذا كنت
تستطيع أن ترسم مثل هذه الصور فمن الذى منعك من رسمها ؟
وكنت قد اقتربت من إبراهيم .. حتى وقفت بجواره ..
ولست أدري إذا كان لم يرني .. أم أنه رآني وبصحتي
عبد الرحمن . ، فما حاول ألا يلتفت إليّ .

وأخذت أتطلع إلى إحدى الصور وذهنى شارداً ..
وتفكيرى مضطرباً .. وأعصابى متوترة ، ولم يحل كل هذا
بينى وبين شعور بالمتعة تسرب إلى نفسى من مجرد إحساسى
بأننى واقفة بجواره . ، برغم أنى لا أراه واحتمال انتقاله
من موضعه .

ولاشك أن الوقفة قد طالقت فقد وجدت عبد الرحمن
يخرج زفرة ملل ثم يهمس إليّ فى صوت حاول جهده أن
يخفضه حتى لا يسمعه سواى :

— وبعد !! إلى متى الوقوف هكذا؟ ... ألا تنوين
التحرك من أمام هذه الصورة؟!

وأفقت من شرودي ... لأهمس إليه في برود:
— دعني أشاهد كما أشاء .

— ولكن إذا وقفنا أمام كل صورة هذه الوقفة فلن
يكفيها عام لمشاهدة المعرض كله .

— أنا لا أستطيع المشاهدة إلا هكذا .

— ثم إن الصورة لا تستحق كل هذا التطلع .

— أنا لم أرغمك على التطلع إليها .. أمامك المعرض
متسع .. تطلع إلى ما يعجبك .. وإذا لم يعجبك المعرض
كله فيمكنك مغادرته .. لم يرغمك أحد على الحضور .

ويبدو أن رنة الغضب في همسي كانت واضحة .. وكان
عبد الرحمن بطبعه مسالماً غير ميال إلى العناد أو المشاكسة .

ولذلك لم يلبث أن قال في هدوء :

— أنت وما تشائين .. شاهدي ما يعجبك .. وباتي في
المعرض إذا أردت . سأشاهد أنا بقية الصور .

ثم أخذ في الابتعاد عني ملقياً نظرات سريعة عابرة على
الصور المعلقة .

وأحسست من ابتعاده بعض الحرية ، فالتفت يمينا إلى
حيث كان يقف ابراهيم فوجدته يتنقل اتجاهي ببطء وهو
يرقب الصور كماأما انتقاله طبعي غير مقصود ، فلما اقترب
منى التفت إلى نصف التفاتة وهمس قائلا :

— نهارك سعيد ياراجية .

ومرة أخرى — رغم اضطرابي الشديد — لم أستطع
منع شعوري بالمتعة وأنا أسمع اسمي يخرج من شفتيه . .
وأحسست بشيء من الزهو باسمي وهو ينطقه هكذا مجرداً .
وأجبتة في مثل همسه :

— نهارك سعيد يا أستاذ . . أنا متأسفة جداً لأنني
لا أستطيع مصاحبتك أو الحديث معك ، لأن ابن خالتي
معي . . كنت أنوى المجيء وحدي ، ولكنه صادفنا ونحن
خارجون من البيت .. فدعاه جدّي إلى مصاحبتني .

— لا داعي للأسف . . نحن على أية حال استطعنا أن
نلتقي . . وأن يرى كل منا الآخر .

وهنا رأيت عبد الرحمن يقترب . . بعد أن شاهد
بطريقته السريعة كل المعرض ، ولم يستطع أن يخفي علامات
الضيق والامتعاض ولا حاول أن يخفض صوته إلى درجة
الهمس بل قال في ضيق :

— كفى حملقة في هذه السخافات التي تسمينها
« السير يا ليزم » !

وانتقلت خطوة اتجاهه .. فقد شعرت هذه المرة أن
الوقفه قد طالت فعلا وأنها لم يعد لها مبرر بعد أن اعتذرت
لإبراهيم .

وكانت وقتي أمام صورة أخرى من الرسم السيريايلى
أكثر تعقيداً من الأولى .

ويبدو أن عبد الرحمن قد توهم أن وقتي أمام الصورة
الأخرى ستطول كالوقفه الأولى .. وأن هذا قد جعل
صبره ينفد وصدرة يضيق وحلمه يصل إلى نهايته فقد قال
لى فى حنق :

— هذه ليست طريقة ياراجية .. كأنى بك لا تشاهدين
بل تتعمدين إثارتى .. أى شىء يمكن أن يوقفك أمام هذه
الصورة كل هذه الوقفة ؟! ماذا يمكن أن ترين هذه « اللخبطة
والشخبطة » ؟!

ولم أكن غاضبة بالقدر الذى أجت به .. ولكن كان
على أن أدعى الغضب حتى أجعله لا يتماهى فى طريقته وحتى
أوقفه عند حده . قلت له :

— ما شاء الله .. أنتوى أن تفتح لى تحقيقاً فى كل صورة

أف أف أمامها .. شيء عجيب !! .. أجعلوك قيمياً على .. إنك
تنظر إلى الصور نظرة خاطفة لأنك لا تفهم ما بها ...
أمعقول أن تشاهد المعرض كله في هذه الدقائق التي مررت
به خلالها؟! ... إنك تنظر إليها كما تنظر إلى إعلانات الحائط
في الطرقات ونحن نمر بها راكبين السيارة .. ولكني أنظر
إليها نظرة تعم . وخص .. إني أشاهدها مشاهدة نقد
ودراسة .. هذه هي طريقي في المشاهدة .. وأنا أحس منها
بمتعة كبيرة .

— ولكني لا أشعر أبداً بهذه المتعة .. فما ذنبى أنا؟
— ما ذنبك؟ .. ومن الذى أجبرك على المجيء؟ أنا
لم أضربك على يدك ولم أربطك من عنقك .. إذا كنت
لا تحتلم البتاء فإذهب إلى حيث تريد .. ودعنى أشاهد على
مهل .. بدل هذا الضيق الذى تبديه فى كل لحظة والتحقيق
الذى تفتحه أمام كل صورة .

والظاهر أنه كان قد ضاق بى فعلاً .. إذ لم يكسد يسمع
منى هذا العرض حتى قال :

— وهذا ما سأفعله ... لأنى قطعاً لا أحتمل الصبر
على هذا الحال .. سأذهب إلى مأمورية ناحية الجمر ..
لأقضى عملاً مفيداً بدل هذا اللسكع الذى أتسكعه بجوارك

وسأتي إليك بعد ساعة .. أظنك تكونين خلالها قد اكتفيت
مشاهدة ؟

ساعة مرة واحدة !! لقد كان هذا أكثر مما أتصور ..
ولم أشأ أن أبدى فرحة زائدة حتى لا أثير شكوكه بل رفعت
كتفي وبصرى معلق بالصورة وقلت في غير اكتراث :
— كما تشاء .. سأنتظرك حتى تعود .

وأولاني ظهره رافعاً عنى القيد ، وانطلق . وأحسست
أنا بزوال الغمة .. وانتابني شعور لذيذ .. وأحسست بالرغم
من امتلاء المعرض بالزوار .. بشعور العاشق في أول خلوة
له .. وانتظرت لحظة حتى أعطى لسجاني فرصة الخروج ..
ثم بدأت أتلفت حولى باحثة عن إبراهيم .
وتملكني خذلان شديد إذ لم أجد له أثراً .

أيعقل هذا ؟ ! أهذا الحد بلغت سخرية الظروف
وجنونها ؟ ! ولم لا ؟ .. ألا يعقل أن يكون قد انصرف
بعد أن أنبأته بأنه ليس هناك فرصة لكي أحدثه ؟ ! ثم هو
لم يأت لمشاهدة الصور وإنما أتى للقائي .. فلماذا يبقى بعد
ما حدث !!

ولكن ما ضره لو بقي بضع لحظات أخرى !! أهكذا
قد ضاق بي سريعاً ؟ !

وكانت كل هذه الخواطر تتزاحم على ذهني .. وبصرى
يطوف بأرجاء المعرض .. باحثاً منقباً .

أجل .. أجل يجب أن أبحث جيداً .. فقد يكون مختلفياً
وراء هذا العمود .. أو مندساً وسط هذه التلة .. أو .. ربما
في هذا الركن أو في هذه الزاوية .

واندفعت كحمقاء .. أبحث هنا وهناك .. ولم يكن المكان
بالاتساع أو الازدحام الذي لا أستطيع أن أتبين فيه ابراهيم
من أول نظرة .. ولكنها بقية من أمل جعلتني أبحث عنه
كأنه « إبرة » في كوم من التبن .

وأحسست بصدري يضيق .. واتجهت نحو الباب أنفـس
عن كربى عندما رأيته يعبر الباب إلى الداخل .

وتنفست الصعداء .. وكدت أعدو إليه لأسأله أين كان ،
ولكننى تمالكت حتى اقترب منى .. ومدّ يده فشدّ على يدي .
وتركت يدي تستريح برهة في يده ، ووددت ألا أنزعها
من كفه ، ولكن أعين الناس — التى أحسست فى تلك اللحظة
بأنها تركت الصور وتركزت على يدينا — أجبرتني على أن
أسحبها منه .

وقلت له فى لهجة تأنيب :

— أين كنت ؟

وأجاب ضاحكا :

- كنت أوصله .. لأتأكد من عدم رجوعه .
— لقد بحثت عنك كثيراً .. ويشت من لقاءك ..
إذ خشيت أن تكون قد انصرفت .
— أنا أنصرف ؟ .. أنصرف .. وأنت باقية ! ؟
وبدأت النشوة تدفق إلى رأسي .. وأخذت أوجه دفقة
الحديث بحيث أستدرجه إلى منحى أكبر قدر من المتعة ..
قلت متسائلة :

- ولم لا .. قد تكون لديك أمور أهم ؟
— أهم من رؤيتك .. ! ؟
— أتعبر رؤيتي أمراً هاماً ؟
— ليس هاماً فقط .. بل حيويًا .
— برغم وجود ابن خالتي وبرغم أنه لم تكن لدينا فرصة
الحديث ؟

- أجل برغم هذا .. لقد أطرني مجرد إساسي بوجودك
معي في مكان واحد .. ولو لم أنظر إليك أو أراك .
وكدت لا أصدق أذني .. عندما رغبت في استدراجه
لم أكن أطمع قط في مثل قوله .. أتراه حقاً يعني ما يقول ..
أم تراها مجرد ألفاظ غزل .. يجيدها مثله ! !

وعدت أستدرجه .. ورأسي يدور كالسكري .. قلت له
هامسة :

— أحقاً تقول هذا ؟

— ليس هذا فقط .. في بضعة الأيام الماضية .. كنت
أشعر بالمتعة ... من إحساسى بجيرتك .. لقد أصبحت
أحب هيكل بيتك .. وأعارض قول الشاعر الذى قال :
« وما حب الديار شغفن قلبى » .

وكننا فى ركن ناء .. ولم يكن حولنا أحد .. ولو كان
ما أحسسنابه .. فقد كنا — أو على وجه أدق — كنت
شبه هائمة .. فقدت كل إحساس إلا به .. وبهمساته .

وكان قوله أكثر مما كنت أحتمل .. ولم أعد — ذائبة
كما أنا ، مرهفة الحس كحد السيف — بالقادرة على
الاستدراج ونصب الشباك ووضع الخطط ، ووجدتني
أهمس إليه .. وبصرى معلق فى صورة أمامى دون أن
أشاهد منها شيئاً :

— أنا أيضاً أحس بنفس الشعور .. ولكنى كنت
أسبق إليه منك .. كنت فيما مضى أشعر بذنوة إذا ما سمعت
ألحانك .. كنت أحتاج لموسيقاك لكي تشعرنى بالحياة
والسعادة .. أما الآن ... فإنى أحس بالسعادة دون أن

أسمعك .. أحس بها بمجرد التفكير فيك .. فإذا ما علمت
أني لا أكف عن التفكير فيك لحظة .. وأني أفكر فيك
يقظي وأحلم بك نائمة .. أدركت أني في سعادة دائمة ...
لا ينضب لها معين ولا يجف لها نبع .. سعادة مستمدة من
لا شيء .. من الأوهام والأحلام .

— إذا فلم يعد بك حاجة إلى سماعي ؟ !

— لست أقصد هذا .. إنما أقصد أن كل شيء منك

ممتع .. إذا صمت عنى فأنا سعيدة .. وإذا عزفت لي فإن
سعادتي أوفر وأكمل .. أتعرف معنى أن تعزف لي وحدي ؟
أيمكن أن تدرك أثر هذا ؟

— وهل تعرفين معنى أن أعزف لك أنت !! وهل

تعرفين أثرك عليّ .. على عزفي وتلحيني !! لقد بتّ أشعر
أني أعمل من أجل شيء .. وأني أعزف لإنسان أتوق إلى
إرضائه ، ولذلك يخيل إليّ أنني فعلت شيئاً أفضل .

— لا أظن هناك أفضل مما سمعت .

— بل هناك قطعة أتمتها أخيراً .. أعتقد أنها ستكون

خير ما وضعت .

— ما اسمها ؟

— راجية .

— راجية !!

واعجباً !! أحمقاً يقول هذا؟! أحمقاً وضع قطعة من
أجلى؟! وباسمى!! وخفضت رأسي عن الصورة التي كنت
أحملك فيها.. وتملكتني رغبة جارفة في أن أستند إلى ذراعه
وأضع رأسي على كتفه، ولكن أحد الزوار اقترب منا،
فخطونا إلى الناحية الأخرى بضعة خطوات قادتنا إلى خلوة
أخرى.

وعدت أهتف به وقد تلاحقت أنفاسي من فرط
الفرحة:

— أتقول حقاً!!؟

وحول إلى عينيهِ وعلت وجهه ابتسامة وأجاب في رقة:

— طبعاً أقول حقاً.. ماذا يدهشك في ذلك؟

— هذا أكثر مما كنت أرجو، بل أكثر مما كنت

أحلم. أكثر كثيراً.. لست أظنني أستحق أن تضع من
أجلى لحناً.

— لقد وضحته دون أن أفكر فيما إذا كنت تستحقين

أو لا تستحقين، فعند ما يشغل ذهن الفنان شيء بذاته..

ويسيطر على تفكيره.. تجددين هذا الشيء قد برز في عمله

والصق به طابعه دون أن يقصد.. هذا الشيء هو

ما يسمونه الملهم .. وأظن أن من أبسط أصول الذوق
واللياقة أن يسمى الإلهام باسم الملهم .. أو الملهمة ..
أعرفت بعد هذا إذا كنت تستحقين أو لا تستحقين ؟
ولم أعرف كيف أجيب فقد كنت أشبه بالثلمة .. ولماذا
أشبه وأنا أوكد أن أعتق أنواع الخمر لم تكن تفعل برأس
شاربها مثل ما فعل حديثه .. ورفعت رأسي إلى وجهه ..
وتذكرت الصورة التي رسمتها له وقلت له في حياء :

— أنا أيضاً .. كان لدى شيء يشغل ذهني ويسيطر على
تفكيرى .. ولا أكاد أتخلص من سيطرته لحظة واحدة .
— وماذا فعلت ؟

— كما فعلت أنت .. ولكن بطريقتي الخاصة .. الطريقة
التي أفدر عليها .. لقد رسمت صورتك .
— أنقولين حقاً ؟ !

— أقول حقاً ؟ ! ! هل تصدق أنى لم أكن أستطيع أن
أفعل شيئاً سوى رسمك .. وأنى عند مبادئه .. أخذت
أتباطأ وأتمهل خشية أن أنتهى منه .. وأفقد بذلك نوعاً
من صحتك ... واستحضارك فى ذهنى .
— أرسمتى من الذاكرة ؟

— طبعاً !

— وأجدت الشبهه ؟

— جداً !

— عجباً ؟

— أى عجب فى ذلك !! أفى أن أرسمك من الذاكرة

عجب ؟ . إنك أثبت فى الذاكرة من أى شىء آخر . . أنت
مقيم فى الذاكرة .

— إقامة دائمة ؟

— للأبد .

— ليت هذا يتحقق . . إنك مخلوقة عجيبة . . تختلفين

تمام الاختلاف عن غيرك من البشر . . يبدو لى أنك لم
تخلقى مثلهم من طين ، بل من شعاع ، وأن تكوينك ليس
من دم ولحم ، ولكن من مشاعر وأحاسيس . . إنك أشبهه
بالنسمة العطرة السارية . . منك بالبشر . . ومن أجل هذا
أخشاك .

— تخشاني أنا ؟

— أجل . . أخشى « بساطتك » ورقتك . . وقدرتك

العجيبة على التسرب فى دى . . لقد تسلت إلى مشاعرى
دون أن أشعر . . أتدرين كيف يتسلل النوم إلى جفونك . .
ويتزكك نائمة دون أن تعرفى متى نمت ولا كيف نمت ؟ . .

لقد فعلت أنت بي هذا .. مرة واحدة لقيتك فيها .. خيل
إلى بعدها .. أن بيننا ودقديم ، وصلة وثيقة .. ووجدت
أن رؤيتك كل يوم في شرفة منزلك قد باتت فرضاً واجباً
على .. ألا أخشاك بعد كل هذا ؟

— إذا كان لي أن أخشاك .. فعليك أن تخشاني ..
ومادمت لا أخشاك .. ولا أخشى في شعوري نحوك أحداً ..
فلا أظن هناك ما يدعو من خشيتي .. بل لا أظن برغم كل
ما قلت أن بي ما يخشى .

ومرة أخرى بدأ الزوار يزدهمون حولنا .. فأخذنا
نتنقل جانباً خطوة بعد خطوة ... ولكننا لم نجد لأنفسنا
خلوة كالسابقة ، ولم تعد الفرصة سانحة للسلامة ، وخشيت
أن يحضر عبد الرحمن فنفترق فجأة دون أن تتفق على شيء
فقلت له :

— متى سأسمع القطعة الجديدة ؟ !

— الليلة إذا شئت .

— أية ساعة ؟ !

— الثامنة .. أو التاسعة ؟ !

— لتكن التاسعة .. إذ نكون قد انتهينا من العشاء ،

وأوى جدّي إلى حجرته .

وزاد الازدحام حولنا ، وازدادت خشيتي من عودة
عبد الرحمن ، وكنت أود لو نتفق على موعد لقاء آخر . .
ولكنني كنت أخجل من سؤاله .

وصمت برهة متشاغلة بمشاهدة صورة سلطت عليها عيني
دون أن أفقه ما بها .

وقطع هو هذا الصمت بسؤاله :

— ألا أستطيع أنا أن أرى الصورة التي رسمتها ؟

— طبعاً . . عندما أنتهى منها سأرسلها لك .

— ترسلينها ؟ !! أنا لا أريدها وحدها .

ودق قلبي . . فقد وجدت أنه يوشك أن يعرض

ما أهفو إليه ، ولكنني تساءلت متجاهلة ما يقصد :

— وماذا تريد معها ؟

— أريد أن أراك معها . . أو على الأصح أراها معك .

ونظرت اليه باسمته وأجبتة :

— لا أظن من السهل أن ترانا معاً . . فلست أدري

كيف أحملها لك .

— إذاً أراك أنت . . لا ضرورة لأن تتبعني نفسك

بحملها . . أظنني أن أستطيع أن أستغني عنها الى حين . . ليس

أسهل عليّ من أن أبصر صورتى . . فما أكثر المرايا في الدار

أما أنت فرويتك نادرة . . .

وبدأت أفكر . . كيف يمكن أن ندبر فرصة للقاء .
والإنسان دائماً عندما يحاول التفكير في حل لسؤال
سريع . . تسد أمامه جميع السبل وتهرب كل الحلول . .
كيف ألقاه؟ . . كيف ألقاه؟

وأردف هو يستحني :

— لم تقولى كيف أراك؟

— دعنى أفكر . . إن المسألة ليست سهلة . . لا بد من

تفكير وتدير .

— ألا تخرجين من البيت؟! ألا تذهبين الى السينما؟!

— أجل أخرج . . ولكن لست وحدى . . لا بد أن

يصحبني جدى أو عبد الرحمن .

— ألا تذهبين وحدك أبداً الى أى مكان؟

— وحدى!! لا أظننى أذهب الى أكثر من مارىكا . .

ومع « سيدة » .

— مارىكا؟ أخياطة هذه؟

وضحكت وسألته فى دهشة :

— ألا تعرف مارىكا؟ . أتمكث فى السيوف هذه

المدة ولا تعرف مارىكا؟

— والله لم أسمع بها .. أهي قديسة كسانت تريزا مثلاً؟
وأضحكني قوله هذا أكثر .. ولم أنمالك نفسى من
القهقهة .. ورأيتة يحدق فى وجهى دهشاً وتساءل ضاحكاً:
— اسمعى ياراجية .. قولى من تكون وأريحنى ..
أم تريدين أن نضيع اليوم فى حديث عن ماريكا؟
— إنها صاحبة «كشك» المرطبات عند المنتزه وسط
تفتيش السيوف قرب محطة الأوتوبيس .. هل عرفت
ماريكا؟

— والله أعرف «الكشك» الذى تقولين عنه ..
ولكنى لم أتشرف بمعرفة ماريكا بعد .
— لا ضرورة للتشرف بمعرفتها .. لأنها لا تمكث فى
«الكشك» الا نادراً ، ولكن الكشك مازال يسمى
باسمها .. نحن تعودنا أن نسميه هكذا .
— اذأ فهى امرأة خالدة .
— ستكون خالدة منذ الآن .. بعد أن نلتقى عندها .
ونظر الى بطرف عينيه وتساءل فى خبث :
— ومتى تنوين تخليدها ؟

— انى أخرج للسير عادة فى الحقول مع «سيده» قبيل
الغروب .. ثم ينتهى بنا المطاف الى ماريكا ، ثم نعود بعدها

إلى البيت .

— إذا نلتقى غداً لنجول معاً بين الحقول؟! .

— ولكن .. أخشى أن يرانا أحد من أهل المنطقة .

— لا تخشى شيئاً .. إن المنطقة خراب .. لا أكاد

أبصر بها إنساناً .. متى نلتقى؟

— في الخامسة .. سأنتظرك ومعى «سيدة» عند ماريكا،

ثم نبدأ سيرنا من هناك .

ونظرت إلى الساعة في معصمى فإذا بالوقت قد طار ..

وإذا الساعة قد مرّت في لمح البصر .. وأصابنى قلق وتلفت

نحو الباب خشية أن يكون عبد الرحمن آتياً ثم قلت له

في ارتباك :

— أظن الوقت قد حان لكى نفترق .. إن عبد الرحمن

يوشك أن يأتى .

— سأنتظرك فى الخامسة؟

— إن شاء الله .

ولم يكذب يتعد عنى بضع خطوات حتى ظهر عبد الرحمن

فى الباب يتلفت باحشاً عنى .. فرفعت يدى ملوِّحة له ..

واتجهت إليه فى خطوات خفيفة سريعة .. وأقبلت عليه

هاشئة باشة .

لقد أحسست من فرط نشوتي أنى أحبه .. بل كنت
أحب جميع الناس .. والصور والتماثيل ، والحراس .
وكان الكره الذى سبق أن شعرت به عند حضوره
المفاجيء .. قد قلب امتناناً له وتفاؤلاً به .. بعد أن
منحني تلك الساعة التى حصلت فيها على أقصى ما كنت أتصور
أن أحصل عليه .

وسألنى عبدالرحمن ضاحكا :

— أما زلت تدرسين « الشخبطة واللخطة » ؟

وضحكت وأجبتة :

— لا . لقد انتهيت منها .. إني على أتم استعداد للرحيل

معك .

— وأنا على أتم استعداد للحملقة معك كما تشائين .

وسحبتة من ذراعه واتجهنا إلى الباب وأنا أقول :

— لا داعى للسخرية .. أنا لا أسخر من حساباتك

التي تقضى الساعات شاخصاً بها .. ولا أسخر من أوراق

السهاد وتقارير الضرائب وغيرها من « اللخطة والشخبطة »

التي أنت غارق فيها .

وأجاب عبدالرحمن ضاحكا :

— ولكنها .. لخبطة مفيدة ومربحة .

— مريجة للجيب .. ولكن «خطبتي» مريجة للنفس
والذهن .

وكنا قد وصلنا إلى العربية وانطلقت بنا لناخذ جدّي من
الترينون ثم نعود إلى البيت .

وفي الثامنة اتهمنا من العشاء وتسللت من غرفة الجلوس
تاركة جدّي وعبد الرحمن في حساباتهما مدعية أن النوم قد
أثقل جفوني ثم آويت إلى حجرتي وارتديت ثياب النوم
وخرجت إلى الشرفة .. وجلست على مقعدى المريح أنتظر
حضور سيدة إذ كان بي لطفة على أن أقص عليها المعجزة
التي حدثت .. وبعد لحظة أتت سيدة .. ولم تكن لطفها
على السماع بأقل من لهنّتي على الحديث .

وبدأت أجتز ماحدث .. شاعرة من قصه بما يشابه متعة
حدوثه .. وعجبت لنفسى كيف استطعت أن أحفظ أحاديثه
كلية كلية .. كأنها قطعة محفوظات كلفت حفظها .. بل أكثر
من هذا .. كانت كأنها ثروة حصلت عليها بعد طول حاجة
وحرمان ، فأنا أخشى أن أبدد منها دانقاً .. وأحرص كل
الحرص على أن ألمها في الذهن وأحفظها في الذاكرة .

وكانت سيدة سعيدة بسعادتي .. تربت يدي وتمحسس
شعري وأنا أقص عليها .

ولم أكد أنهى من الحديث حتى سمعت دقات على البيانو
وأدركت أنه سيبدأ العزف .. فقلت لسيدة :

— اغلق الباب .. وانصتى جيداً .. حتى تسمعى إلى
« راجية » .

— لقد مضت ساعة وأنا أستمع إلى راجية .. أديك
شئ أكثر مما قلت ؟!

وضحكت وقلت لها ساخرة :

— يا جاهلة .. أنسيت .. ألم أقل لك أنه في الساعة
التاسعة سيغزف لى القطعة التى وضعها باسمى ؟!

وبدأ العزف .. وأغمضت عيني .. واستسلمت للحن
يحملنى على أجنحته بعيداً .. بعيداً .

ولم أفق من نشوتى .. إلا وقد ساد السكون .. وخيم
الصمت وأطلقت من صدرى تنهيدة الراحة .. التى تعودت
أن أطلقها كلما شعرت بالهدوء والسكينة والاستقرار .

ونظرت فى الظلمة تجاه شرفته .. فإذا بى الملح شبجه
وقد استند على حافتها .. وأحسست أنه يود أن يعرف رأى
فى لحنه ، أو على الأقل يثق أنى سمعته .

وقفزت من مقعدى فجأة .. حتى أفزعت سيدة .. ثم
أضأت نور الشرفة .. وأشرت بيدي ملوحة .. فتلقيت تحية

منه رداً على إشارتي .

وكانت سيدة قد قفزت بدورها ومدت يدها فأطفاأت
النور وقالت لى ناهرة :

— أجنونة أنت؟ ماهذا الذى تفعلينه « آل ماشافو همش
بيسرقوا . . شافوهم بيتحاسبوا » ماذا تفيدك هذه الإشارة
سوى الفضيحة؟! ألم يكفك طول اليوم وأنت معه؟! ألم
تكتفى بكل ما حصل؟! ألا تحمدن الله على أن مرّ اليوم
بخير . . حتى تحاولى أن تتميه بفضيحة . . هبى أن جدك أو
عبد الرحمن أو أحد الخدم . . رآك تشيرين هكذا! . .
فماذا يحدث؟

وكانت سيدة على حق . . ولكن اندفاعى كان غير
إرادى . . كانت رغبة شديدة فى أن أعبر له عن تقديرى ،
ومشاعرى .

وعدت إلى مقعدى وأنا أتمم معذرة :

— متأسفة يا سيدة . . لم أقصد ما فعلت . . لقد حدث
على غير إرادة منى .

— هذه هى المصيبة . . كل الأخطاء تحدث لنا من
الأفعال التى نفعلمها بلا وعى . . ولو كنا فى وعينا ما فعلناها.
إنى أريد منك أن تتعتملى وتتندى . . إن لم يكن من أجل

مصالحتك .. فعلى الأقل من أجل متعتك .. كلما زاد تسترك
زادت علاقتك به طويلاً واستمراراً .. فالناس لا يقدرّون
الأخطاء بوقوعها ولكن بظهورها .. فاحذري يا حبيبتى
ما أمكنتك .. ولا تعبى كأسك مرة واحدة .. لأنه كلما
بطؤ الرشف زادت فترة الاستمتاع .

وكانت سيدة تبدو في بعض الأحيان حكيمة .. ولست
أشك أن قولها هذا كان إحدى حكمها الرائعة .. ولكنى
بجالتى الهائمة التى كنت عليها .. لم أكن على أى استعداد
لسماع أى نوع من الحكم .. مهما بلغت من الروعة .
من يستطيع أن يقول للهجر الصادى الذى أقبل على
عين نيمره .. تمهل .. وخذ قطرة قطرة .. ؟

ونمت ليلتى تلك .. لمأماً .. كان ذهنى مليئاً بالمتع التى
أخشى أن أعفو عنها .. برغم أن الغفوة عنها كانت حلماً بها .
وفى الفترات التى كان ينبو بي المضجع كنت أستلقى على
المقعد فى الشرفة .. ونظرى يتنقل بين النجوم المتألقة فى أديم
السماء .. وضوء خلتها يتألق فى أديم الأرض ، ينبعث خافتاً
من وراء إحدى النوافذ .

وقبيل الفجر نمت نومة عميقة ملؤها حلم طويل لذيد ..
رأيت نفسى وإياه فى زورق يجرى فى عرض البحر وقد

وقف الناس يلوّحون لنا على الشاطئ . . . وعندما تحسست
رأسي وجدت عليه « طرحة بيضاء » ثم وجدت ذبول ثوبي
البيضاء تفرش أرض الزورق . . فأدرت أني ألبس
ثوب العرس .

هكذا أنالتي الأحلام أقصى الأمانى . . . وعندما
استيقظت في الصباح . . خيل إلى أني إما أن أكون مخلوقة
أخرى وإما أن تكون الدنيا قد أضحت دنيا أخرى . .
فقد كان الجبور يملأ نفسي . . والثقة والاطمئنان والأمل
العريض والأمانى الحلوة تفيض بها .



الفصل السابع

فئة وإيماناً





قضيت اليوم من أوهاى وأحلامى فى طرب دائم
ونشوة مستمرة .. حتى حلّ الموعد فانتعلت صندلاً خفيفاً ،
« وبلوزة حمراء » ، و« جيب أسود » ، وقلت لجدى إبنى
خارجة للتمشى مع « سيدة » ، فهز رأسه وهو منهمك فى
القراءة قائلاً :

— لا تغيبى حتى الظلام .

— حاضر .

وهبطنا السلم وعبرنا الحديقة وألقيت نظرة على الدار
الأخرى ثم سرت متجهة إلى كوخ « ماريكا » .

ورأيت « سيدة » تتلفت حولها فى حذر ثم تتمم بوضع
كلمات .. وخيّل لى أنها تقول شيئاً لم أسمعه .. فسألتها عما
تقول فأجابت بلهجة خائفة :

— أطلب الستر من الله .

وكنت أراها منشائمة أكثر مما يجب ولم أكن أرى
لحذرها موجباً .

وكانت المسافة لاتزيد على بضع مئات من الأمتار يقطعها
المراء سيراً على الأقدام فى بضع دقائق .. وكان الكوخ
على مدى البصر من البيت لولا بيت آخر يقوم بينهما .
وسرت فى الطريق المترب حيناً وخضت بين الحشائش

في الأراضى الفارغة حيناً آخر . . . وكان المكان قد خلا
على مدى البصر إلا من بضعة كلاب تتبادل النباح وعربة
تنساب في الطريق الرئيسى الآتى من فيكتوريا المتجه إلى
القاهرة .

ووصلت إلى الكوخ الحشبي الأخضر الذى أحاطت به
المتسلقات ووضع فى داخله بضعة صناديق فيها زجاجات
الكازوزة والكوكا كولا وبعض قطع الشيكولاتة والحلوى،
واللادن ، ورصت حوله مناخذ خشبية ومقاعد من القش .
ولم أر أحداً أمام الكوخ فى أول الأمر . . اللهم إلا
عربة جلس فيها رجل وامرأة . . ولكنى لم أكد أدور
حول الكوخ حتى أبصرته .

وتوالت ضربات القلب . . برغم سبق الاستعداد للقاء .
وأصابنى الارتباك . . . وخشيت إن أنا أقبلت عليه أحبيه
أن يرانا أحد ، ولا سيما أن الساقى يعرفنى جيداً .

وكان بجوار الكوخ متنزهاً عاماً لا يزيد على مسطح
من الحشيش والأشجار أحيط بسور من الدرنته ووضعت
به بضعة مقاعد ، وكان غالباً ما يلجأ اليه عمال الأوتوبيس ،
أو الركاب الذين ينتظرونه ، وكان من الجنون أن أُلجأ إليه .
لم يبق أمامى إذاً غير الاندفاع تجاه الطريق المؤدى إلى

المزارع ، وإلى المتنزه الآخر المهجور القائم في أطرافها .
وهكذا سرت في الطريق وقد منغى الارتباك من تحميته
أو إعارته مجرد الالتفات .

وبعد مسيرة برهة أحسست بالارتباك الفجائي الذي
لامبرر له قد بدأ في الزوال ، وتلفت خلفي فوجدته يلاحقنا
بخطا متسدة .

وتمهلت . . وأخذ هو يقترب منا رويداً . . رويداً . .
وعندما وصل إلينا كنا قد ابتعدنا عن الكوخ ولم أعد
أبصر حولنا . . سوى المزارع والأشجار .

ورأيت يضحك وهو يشد على يدي :

— ما هذا العدو . . أتظنيننا في سباق ؟

وأردفت سيدة مؤيدة قوله :

— لقد قطعت أنفاسي وأنا أحاول اللحاق بها .

وكنت أكاد أسمع دقات قلبي . . كانت بي فرحة جارفة

وأنا أسير بجواره وقد تركت يدي مستسلمة في يده . . .

وقد انبسطت أمامنا الخضرة وأخذت أطراف أعواد

القصب المتكاتفة تتماوج في هبات النسيم . . وانبعثت من أعلى

الشجر خشخشة ووشوشة وتغريد وزقزقة ، وسرت الريح

بين الأغصان والأوراق فملاؤها حياة وحركة .

ولم نقل شيئاً .. كان اللسان في صمت .. والجوانح في
صخب .. حتى وصلنا إلى المتنزه الخالي ، الكائن على أطراف
المزارع ، وكانت حشائشه قد استطلت في إهمال مستحب ،
وأشجار البوتشارديا الباسقة قد تدلت أوراقها العريضة
كالمرآح من قممها العالية وعلى أطرافها من الزغب ما يشبه
الشعر الأبيض .. وأحواض من الوينكا البيضاء والجمبة
قد تناثرت في أنحاء الحديقة .

واجتزنا مدخل المتنزه ، وتمهل إبراهيم قليلا وتساءل :
— ما رأيك لو استقررنا هنا على أحد المقاعد .. أم
تصيرين على المشى في الحتمول ؟

— أبدأ .. أنا لا أصر على شيء .. لنجلس إذا شئت .
وكنت أفضل الجلوس .. ، فإني في السير لا أستطيع
مواجهته ، وقد كنت أرغب في أن أعب النظر منه .. إذ
كنت أشعر أن هذه الفرص للقاء لن يجود القدر بمثلها كثيراً .
وجلسنا ، وكانت الشمس توشك أن تغيب ، وتذكرت
أن جدّي أمرني أن أعود قبل سقوط الظلام ، وأحسست أن
فرحتي قد بدأت تشوبها شوائب القلق .. وأن سيل النشوة
أخذت تعترضه جنادل خوف ممبهم مبعثه الإحساس بعدم التملك
الدائم ، وبعدم السيطرة المستمرة على ذلك الشيء الثمين النادر

الذى أطبق عليه بين يدي .. وأن مدى استحواذي عليه
رهن بكل مشيئة .. إلا مشيئتي .

أجل . كل شيء يتحكم في استحواذي عليه .. جدتي ..
وعبد الرحمن .. وسيدة .. وكل عابر سبيل .. يستطيع أن
يمنعني من أن أضمه إليّ أو أنعم بالهدوء إلى جواره .
حتى هذه الشمس الغاربة .. تتحكم فيّ دون أن
تدري .. إنها تهوى بسرعة نحو الأفق .. كأنها على موعد
وراءه .. أو كأنها تحسدني على جلستي .. فهي تأتي أن
تطيلها عليّ .

ويبدو أن شرودي قد طال . إذ أبصرت أصبع إبراهيم
تمتد متسللة فتعذب بخصلة شعر دفعها النسيم إلى جيبني فأخذت
تضطرب فوقه .

ونظرت إليه باسمّة فأجابني :

— صح النوم .. فيم كنت شاردة ؟

— في الدنيا .

— ما لها الدنيا ؟

— عجيبة !

— أي عجب بها ! ؟

— كل أحوالها .. عندما تهب .. تهب بحمق .. كأنها

سفيهه يستحق الحجر . . حتى يبيت الإنسان من فرط إغداقها
وهو غير مصدق أنه يعيش في الواقع . . وأن ما به ليس
حلماً من أحلام الدجى .

— ما ذا تريها أعذفته عليك ؟

— كل شيء . . . لقد قلت ذات مرة لسيدة وأنا أسمعك
تعزف من أجل أحد ألحانك . . إني كنت فيما مضى أحس
بالسعادة وأنا أشارك الناس فيك كما أشاركهم في الشمس
والهواء . . . وسألتها ما ذا يكون إحساسها لو علمت أن
الشمس قد طلعت لتضئ لها وحدها .

— ألم تسألها عن شعورها عند ما تجد أن الشمس قد
أضحت ملكها ؟ ! بل ألم تسأل الشمس عن مدى سعادتها . .
وهي تضئ من أجلك ؟

وكانت سيدة قد جلست على مقعد ناء وأخذت تتسلى
بمضغ قطعة « لادن » ووجدت نفسى أبتسم وأنا أنظر إليها .
وما لبثت أن قلت له :

— لا أظننى أستطيع أن أسأله الآن . . ولا أظننى
أجسر على أن أسأل الشمس .

ومد إبراهيم كفه فبسط باطنها على ظاهر يدي وأخذ
يتحسسها بحنان ويضغط أصابعى برفق . . كما ما يقول شيئاً . .

لولا الحياء .. لجسرت على أن أترجمه .. بلفظة « أحبك » .
وأحسست أنى أوشك من مسة يده وضغطها أن
أذوب ، وأتى إلى صوت هامساً فى أذنى :

— الشمس التى تتحدثين عنها تستمد نورها منك .. من
مشاعرك .. ومن إحساسك المرهف .. إنك ما تبصرينه بها
من ضياء .. هو ضوء قلبك معكوس عليها .. كنت أحس
بالوحدة والفراغ .. ولم يخطر لى ببال .. أن هذا الفراغ
العريض يمكن أن تملأه مخلوقة فى مثل ضآلتك .. ومع ذلك
فقد ملأته .. حتى بت أشعر أنك أصبحت لازمة لى .. بل
جزءاً منى .

وازددت به التصاقاً .. حتى أحسست فعلاً أنى جزء
منه .. وعادت أصابعه تعبث بخصلة الشعر المتهدلة على جبينى
وهو ينظر إلى عيني .. مما جعلنى أتلهف على الارتقاء فى
صدره .. والالتصاق به .. إلى الأبد .

وهمست به :

— أنا أيضاً أحس بما تحس .. ولكنى لا أجروء على
التصريح به لأحد حتى لنفسى .. لأنى أتوهم أنك أكبر من
أن أمتلكك .. إنى أحس بأنك معجزة .. وامتلاك المعجزة
ليس من نصيب البشر .

— أنا أكره أن تقولى عنى ذلك .

— ولكنك كذلك .

— لو كنت كذلك بالنسبة للناس جميعاً فإنى أكره
أن أكون كذلك بالنسبة إليك . . أكره أن تحبى فى المعجزة
التي تتوهمينها . . أكره أن تحبى فى الضخامة التي تقولين عنها .
أريد أن تحبى فى ما أحبه فيك . . المخلوق الفرد « البسيط » .
أريد أن تحبى فى البشر الذي يكمن فى داخلى . . بمساخرى
وسخافتى . . أريد منك أن تحبى فى الرجل القابع بلا ضوء
ولا ضجيج ولا شهرة . . ولا ألحان . . فهذه كلها . . يحبها
الناس جميعاً . . أما الباقي فلا يحس به أحد . . وما أشد شوقى
إلى أن تحسى به أنت .

وأحسست من قوله بعبرة تطوف بعينى وتراودها على
النزول . . فأمسكت يده بين يدى . . وتناسيت ما لحواء من
كبرياء . . ورفعت كفه فمسستها بشفتى ، وهمست وأنا دافئة
وجهى فى كفه وقد أخذ يتحسس بحنان ورفق :

— إنى أحبك كما أنت . . أحب المخلوق الذى أمانى
كما هو . . لقد أحببت فى أول الأمر ألحانك وعبقريتك ،
فلما لقيتك وجدتك خيراً من كل ألحانك . . بل من كل

موسيقى العالم . . أنت وحدك وسواك لاشئ . . لوسألتني
الآن ألا أسمع موسيقى أبدأ للبيت طلبك .

وتخلل بأصابعه شعري وضم رأسي إلى صدره وأجاب :
— لن أسألك هذا . . إن حب كل منا لصاحبه . . لن
يمنعنا من حب الموسيقى معاً . . نحن أولاً . . والموسيقى
ثانياً . . مارأيك ؟

ورفعت إليه وجهاً باسمأ وأجبتة قائلة :
— أنت أولاً . . ولا شيء بعد ذلك .

وسمعت سيدة تناديني . . فأفقت لنفسي . . وللشمس
الهاربة . . وللظلام المطبق . . وتذكرت جدتي ، وكرهت
أن أهبط سريعاً من هيامي الطليق إلى حياتي المقيدة .
وكانت سيدة قد اقتربت مني قائلة :
— أظن الوقت قد أزف للعودة . . أخشى أن يقلق
جدك عليك .

ونفضت واقفة إذ لم أكن في حاجة إلى تحذير سيدة . .
وغادرنا المتنزّه وسرنا متلاصقين وقد أطبقت يده على يدي
وقد شغل ذهنيها تفكير واحد . . هو اللقاء التالي . . ولم
يطل به التفكير حتى تساءل :

— متى سأراك؟

— هذا ما كنت أفكر فيه .

— وإلام اهتديت؟

— لم أهتد إلى شيء . . فلست واثقة من نية جدّي في

الغد . . كان يقول أننا مدعوون إلى الشاي عند أحد أصدقائه

وأظن من الخير ألا ترتبط بموعد من الآن حتى

لا أخلفه .

— إذأ نلتقي بعد غد؟

— سأرسل سيدة لكي تبلغ مدبولي الموعد الذي يمكن

أن نستقر عليه .

وكنا قد تركنا الخلاء وقاربنا إحدى الدور فقلت له :

— خير لنا أن نفرق الآن .

وضغط على يدي الضغطة الممتعة . . التي كنت أشعر منها

بما تشغره كل ولهي . . عندما تلتقط أذناها همسة « أحبك » .

وافترقنا . . وسرت أنا في طريق مستقيم مؤدى إلى

المنزل رأساً . . واتبع هو بعض الطرق الدائرة حتى يتباعد

ولا نقبل على دارينا معاً .

وعندما وصلت الدار حمدت الله لأن جدّي كان قد

غادرها . . فلم أعرض لمشقة التأنيب على هذا التأخير .

وأصبح الصباح على . . . بعد ليلة سعيدة ملؤها الأحلام
المتعة . . . ووقفت أستقبل الشروق وأنا أشعر أن الدنيا قد
وهبت لي كل ما لديها من سعادة . . . وأنها منحنتني نصيبي
ونصيب الآخرين .

ولكن يبدو أنها كانت تحتفظ لي بالمزيد . . . وأنها رغبت
أن تؤكد صحة قولي أنها عند ما تهب تهب بحمق السفينة الذي
يستحق الحجر . . . إذ لم أكد أجلس إلى الإفطار حتى أقبل
جدى مرتدياً ملابسه وأنبأني أنه سيأخذ قطار الصباح إلى
القاهرة . . . لأن عبد الرحمن دعاه إلى الحضور لتسجيل بعض
الأوراق في محكمة الشهر العقارى . . . وأنه سيمكث بضعة أيام
حتى يحضر القضية الخاصة بأرض الأوقاف . . . وأشياء أخرى
لم أحاول وعيها لأن ذهني قفز إلى ابراهيم . . . تاركاً جدى
يشرح أسباب سفره . . . ويفصل مشاكلة ويشرح ضيقه
بأسهم كذا وكذا وسندات كيت وكيت . . . ووجدتني ألقى إليه
بقيوده الثقيلة ليحملها معه إلى القاهرة في بضعة الأيام التي
سيتركني فيها . . . وأخذت أهييم مع ابراهيم . . . حرة طليقة . . .
نضرب بين الحقول . . . ونعدو على الشاطئ ، ونسبح في الماء ،
ونحلق في الهواء .

ونجأة جذبني جدى من سماء أوهاى وبحور أمانى بقوله :

— لقد فكرت في أن آخذك معي .

— معك ؟ !

قلتها بلا إرادة كالمسوعة . . ونظرت إليه مبهوتة فاعرة
الفاه . . ولكن بقية حديثه دفع إلى الطمأنينة مرة أخرى
فقد أردف قائلاً :

— . . ولكنني وجدتني في عجلة . . ولن تطول غيبتى . .
وأظنك تستطيعين البقاء وحدك بضعة أيام ، إنك لم تعودى
صغيرة . . لقد أصبحت « ست بيت » . . وسأمر السائق
أن يبيت في الدار خلال فترة غيابي . . والنقود موضوعة
في الدرج . . خذى كل مايكفيك .

ولم أحاول أن أنبس بينت شفة . . فقد خشيت إن أنا
نظقت أن أكشف فرحتي . . وأنا أقول له : « اذهب
اذهب . . ولا تخش شيئاً . . إن سفرك الطارىء هو أقصى
ما كنت أتوق إليه . . إنى لن أشعر بخوف ولا وحشة . .
لأن ابراهيم سيونس وحشتى » .

واستمر هو في نصائحه وتحذيراته . . حتى انتهت من
الإفطار وسألنى أن أجهز له الحقيبة الصغيرة .

وبعد نصف ساعة كان قد غادر البيت . . وكان لسان
حالى يهتف بقول الشاعر : خلا لك الجو فيبضى واصفرى «

وكان أول ما فعلت .. هو أن وقفت في الشرفة أماً
صدرى من النسيم العابر على الدار الأخرى .. كأن جدى
قد منعنى من استنشاقه .. وكان أول ما فعلته سيدة هو أن
لحقت بى .. وقالت محذرة :

— إسمعى .. إياك والجنون .. شيئاً فشيئاً .. تذكرى
أنه يوجد خدم ، وتوجد جيران .

ونظرت إليها متصنعة الدهشة وتساءلت :

— وماذا فعلت حتى تقولى هذا ؟

— لم تفعلى بعد .. ولكنى أعلم أنك ستفعلين .. لو سافر
جدك منذ شهر لما قلت لك هذا ، فقد كنت ما زلت فى عقلك
ورزاتك .. أما الآن .. فيجب علىّ أن أرقبك جيداً ..
بعد أن أطاش جارنا صوابك .. وأضاع عقلك .

— ما هذا الذى تقولينه ياسيدة ؟

— أقول الحق .. أقسم أنك لم تصبى راجية أبداً ..
أبداً ..

— أنا معك إنى لم أصبح كما كنت .. ولكنى أصبحت
خيراً مما كنت .. أصبحت أشعر بالحياة وبالسعادة ..
أصبحت أحس بقيمة كل ثانية تمر بى .. لأنها تحمل لى شيئاً .
أما قبل ، فقد كانت فارغة .. وسواء لى أمرت أم لم

تمر . فما كان لها في نفسى قيمة .

— لافائدة منك .. كلما حاولت نصحك .. حدثتني
بما لا أفهم .. وقلت لى كلاماً من كلام الكتب .. حيرتني ،
حيرك الله .. والله لولا إحساسى بأنك سعيدة ، لما تركتك
تندفعين فى هذا الطيش .. ولكنى أحبك .. وأكره أن
أحرمك شيئاً من السعادة .. إني كلما حاولت منعك خوفاً
عليك .. قلت لنفسى .. دعها تتمتع بيومها .. من يدرى
ما يأتى به الغد .. لعنة الله على .. لو حدث لك شئ .. أو أصابك
أى ألم مما تفعلين فلن أعفر لنفسى قط .

وكنت أحب سيدة ، وكنت أعلم أنها لا تحب فى حياتها
كلها شيئاً أكثر مما تحبني ، وكنت أعرف أن حبهالى هو
السبب فى هذا القلق الذى تحسه من أجلى ، وقد تكون على
حق فى قلقها .. ولكن أنى لى أن أرى هذا الحق وأنا أشعر
أنى انطلقت من بينى ، لأنعم ببضعة أيام من الحرية .

وسرت أتقل من حجرة إلى حجرة وبى نشوة .. ولم
أكن قط أكره جدى .. بل كنت أحبه جداً .. وكنت
واثقة من حقيقته شعوره نحوى .. ولكن كنت أكره
وسيلته فى الحياة وطريقته فى التفكير ولذلك وجدتني أشعر
بسعادة فياضة وأنا أجول فى البيت وحدى ... وأشعر

أنى مسيطرة على البيت أستطيع أن أحيأ طيلة يومى بالطريقة
التي تحلو لى .

وكان أول ما علىّ أن أفعل هو أن أجلس لأدبر
اللقاء .. وبدت لى الدنيا أضيق مما أبتغى ... إني أريد
فردوساً .. لأقضى به معه هذه الأيام .

وأخيراً وبعد طول تفكير ومشاورة مع سيدة استقر
الرأى على أن نلتقى على الشاطيء .. فقد كانت الوحدة
مضمونة ، والفراغ تاماً .. وكان الجو فى ذلك اليوم أميل
إلى الحرارة .

وتسللت سيدة لتبلغ النبأ إلى مدبولى .. وقبيل الساعة
الرابعة ركبنا العربة إلى سيدى بشر بعد أن زعمت سيدة
للسائق والبواب أننا قاصدين إلى « الكاينة » لكي نحضر
المظلة والمقاعد لإصلاحها استعداداً للصيف ، فقد أصرت
سيدة على أن تحكم تدير خطواتنا بحيث تستطيع أن تواجه
بها الجد عند عودته إذا ما سأل إلى أين ذهبنا .

وفتحنا « الكابين » وكانت الرمال قد غطت معظم
الشاطيء وتراكت فوق أرض « الكبان » وبدأ المكان
صفصفاً خالياً .. ويد الإهمال قد خطت آثارها فى كل
نواحيه ، والصدأ قد علا القفل الذى أغلق به الباب .

وجلست فوق المقعد الخشبي وأخذت سيده تزيح
الرمال من وراء الباب حتى تستطيع فتحه .. فقد صممت على
أن تقوم بالعمل الذي جننا من أجله .

وبدأت في جلستي أشعر بلفح الريح .. وكانت قد
أخذت تشتد وبدأ الجو يميل إلى البرودة ، وقذفت سيده
إلى بالصديري الصوف الذي حملته معها لأنى رفضت أن
ارتديه مكشوفة « بالبلوزة » البيضاء الصيفي و « البنطلون »
الكحلي ، وقالت لى فى لهجة الأمر :

— إلبسيه ولا تكونى عنيدة .. قلت لك عندما خرجنا
أن الجو سيبرد .

ولم أرد أن أسلم بسهولة فقلت لها وأنا أضع « البلوفر »
جانباً :

— لست أشعر بالبرد .

— يا حبيبتى ارتديه من أجلى ، إنك لا تختملين البرد ..
وشكلك فيه أجمل من ذلك التميمص الذى يبديك كالولد ..
إلبسيه وإلا رحلت بك حالا .

وكانت لسعة البرد قد اشتدت فتناولت البلوفر ودسست
فيه ذراعى وشددته على صدرى .
وقالت سيده :

— إغلقى الأزرار .. الزرار العلوى .

— لال ن أزرره .. لقد ضاق علىّ .

ولم أكد أنتهى حتى سمعت وقع أقدام تطرق الأرض
مقربة من « الكاين » .. وبعد لحظة وجدته يقف أمامى
وهو يحدق فى عينيّ فى شوق واضح ومددت يدي إليه
متلهلة وقلت له:

— تفضل .

— ألا نتمشى أفضل .

ونظر إلى سيدة التى انهمكت فى رص المقاعد وألقى
عليها التحية :

— نهارك سعيد ياسيدة .

— نهارك سعيد ياسيدى .

— كيف الحال ؟

— الحمد لله .

— مدبولى يهديك السلام .

وضحكت سيدة قائلة :

— الله لا يسلمه .. ولا يكسبه .. ولا يربحه .. لست

أدرى كيف تطيق عشرة هذا المخبول ؟

— إنه رجل طيب !

وجذبني من يدي وسرنا على الشاطئ و صوت سيدة
يقول منذراً :

— لاتغيبا .. نريد أن نعود إلى البيت قبل سقوط الظلام .
ونظرت إلى الشمس العنيدة .. العادية إذا ما مالت إلى
الآفاق .. فإذا بينها وبين الآفاق مسافة طيبة .. فقلت لها :
— إن شاء الله .

وكعادتنا في كل لقاء .. خيم علينا الصمت وتملكنا
الشرود .. حتى وصلنا إلى صخرة نائية في نهاية الشاطئ
فأشار إلى مكان منبسط في أقصاها أشبه بمقعد قائلاً :
— أجلس هناك ؟

— أجل .

وأمسك بيدي يعينني على السير فوق تتوءات الصخرة
حتى وصلنا إلى المنبسط .. فاتخذنا مجلسنا متجاورين .
ونظرت إلى الآفاق البعيد والسحب المتلاحمة والأمواج
المتتابعة .. والرشاش يتطاير من ارتطامها بالصخرة ..
وملأت صدري بريح البحر الباردة .. وأطلقته في زفرة حملتها
الكثير من حرارته .

وأحسست برجفة من برود الريح فازددت التصاقاً به ..
ومدت ذراعه فأحاطني به وضمني إليه حتى أسندت رأسي إلى

صدره .. وبت أحس بتردد أنفاسه ودقات قلبه .
ومد أصابعه يتخلل بها شعري ويعبث بخصلته وهمس
في أذني :

— لماذا ترتجفين؟

— من البرد .

— فقط ؟

— والخوف .

— ممّ ؟

— من كل شيء .. من المستقبل .. والأيام .. والدنيا .

ومنك .. ومن نفسي .

— كل هذا تخشينه ؟

— أجل .. أخاف من المستقبل لأنه يتراءى أمامي

غامضاً مجهولاً .. كهذا البحر البعيد المتراعى أمامنا في غير

حدود .. دون أن نبصر ما وراءه .. ولا نعرف ما في

أغواره .. انه قد يحمل الحياة .. كما يحمل الموت .. وأخشى

الأيام .. لأنها أسرع في السراء من القطة وأبطأ في الضراء

من السلحفاة .. إذا ما حملت بالسعادة تسربت من أيدينا

تسرب الماء مع الأصابع .. وإذا حملت بالشقاء أطبقت على

أنفاسنا كالحمل الثقيل .. وأخشى من الدنيا لأنها عند ما تهب

بحمق تأخذ بجنون .. وعند ما تمنح بسفاهة .. تمنح بلؤم
وخسة .

وصمت مطلقة تنهيدة أخرى .

وعاد يهمس :

— ومنى أنا؟ ماذا تخشين؟

— تبدلك .. وتحولك .

— ومن نفسك؟

— أخشى مطامعها فيك .. كنت في أول الأمر أفتح

بالحانك .. فبت الآن أطمع في كل شئ فيك .. كنت أفتح

بمشاركة الناس فيك .. والآن .. أفرع من أن يشاركني

فيك أحد .

وضمني إليه أكثر ، ورفع ذقني بيده ، وقال وهو ينظر

إلى عيني :

— لا تخشى شيئاً .. لا تخشى الأيام .. ولا المستقبل

ولا الدنيا .. ولا تخشيني ولا تخشى نفسك .. لأنني لك ..

وسأبقى لك في كل حين .. وما دمت معك .. فسنقهر الزمن

والدنيا .. وكل شئ .

— ولكنك لن تكون معي دائماً !

— بل سأكون .

— إن اللقاء بيننا كما ترى عسيراً .. وسيزداد بعد ذلك عسراً .

— بل سيزداد يسراً .
ونظرت إليه وتساءلت في دهشة :
— كيف ؟

— لأنه سيكون من حق أن أراك .. وسيكون من حقنا أن نتقابل أمام الناس .. بدل هذا اللقاء المختلس .
وأحسست بضربات قلبي تشتد .. وأدركت بوحى مشاعري — إذا لم يخذلني الإحساس — أنه يوشك أن يلقى إلى بشيء خطير .. عجيب .
وقلت أستحثة في صوت لا يكاد يخرج من شفتي :

— لست أفهم ما تعنى .

— أعنى أنى .. سأقدم لخطبتك .

— تخطبني ؟ !!

وأحسست أنى ألثت .. لقد كان هذا أكثر مما أحتمل .
أحقاً يمكن أن نصبح خطيبين ؟ وتملكتنى نشوة أفقت منها على صوته :

— مالك تدهشين هكذا ! أهى مسألة عجيبة ؟

— لا .. لا .. ولكنها مفاجأة .

— لم أكن أظنها أبداً مفاجأة . كنت أظنك تتوقعينها .
إني سأقدم لجدك .. ساعة عودته .

جدى؟! لقد نسيتته تماماً .. لقد خيل إلى وأنا في
تمام فرحتي أنه سيخطبني من نفسي ، وأنا سنتزوج ونرحل
معاً في لحظة دون أن يعرف أحد .

جدى؟! أهذا معقول؟ . أمعقول أن يقبل جدى
خطبته؟ أمعقول أن يزوجني إلى من يعتبر في عرفه — حتى
الآن — مجرد آلاقي؟!!

أيمكن أن يقبل جدى زواجي من آخر إنسان يفكر
في قبوله!!

ولم يكن إبراهيم يتوقع مني ذلك الوجود والإطراق .
فأخذ يتحسس شعري ويقول في رفق :

— راجية؟! ماذا بك؟ أساءك حديثي؟

— ساءني؟ ما أظنني كنت في حياتي أسعد مني الآن ..

إني سعيدة جداً بما قلت .. ولكن ..

وترددت برهة .. وعاد هو يستحني بقوله :

— ولكن ماذا؟

— هناك عقبات .

— أية عقبات ؟

— إنى أقصد .. أن المسألة ليست بالسهولة التي تظنها .

— ولماذا ؟ .. حدثني بصراحة ؟

— أظن جدّي لن يوافق .. إنه يريد أن يزوجني

من عبد الرحمن .

— أتعنى أنك مخطوبة ؟

— لا .. لست مخطوبة تماماً .

— إتهينا إذاً .. مادمت أنت راضية .

— أنا بالطبع راضية .. ولكن الرأى ليس لى وحدى .

إنى أستطيع أيضاً أن أقاوم وأن أصر .. ولكن لست

أدرى إلى أى وقت وإلى أى مدى .. وكيف يمكن أن

تقابل مقاومتي لهم ومعارضتي لإرادتهم .

— إسمعى ياراجية .. مادام كل منا مؤمناً بصاحبه

وواثقاً منه .. فكل شيء يمكن تذليله .. دعى الأمر لى ..

إنى أعتقد أنى أستطيع إقناع جدك .

وكنت واثقة أنه آخر من يستطيع إقناع جدّي ..

وأكاد أعرف سلفاً كيف يقابل طلبه إذا ما عرف حقيقة

مهنته .. وبرغم أنى كنت أكره أن أولمه ، وجدت من

واجبي أن أحذره حتى لا يصدمه رأى جدّي .

وقلت له وأنا كارهة حديثه :

— أنت لا تعرف جدّي كما أعرفه . . إنه مخلوق مادي
جاف . . لا يعرف غير الحسابات والأرقام والأراضي
والسندات . . ولا يعترف أبداً بأى نوع من أنواع الفنون ،
بل هو كثيراً ما يضيق بالموسيقى . . ويأمرني بالكف عن
هذه « الدوشة » ، ولست أظنه قد سمع موسيقى منذ أيام
الحمولى والمنيلاولى . . . وهو يعتبر الموسيقيين جميعاً « مجرد
آلاتيه » . . وهو يعتقد أن من واجبه أن يحافظ على ويضمن
لى مستقبلى .

وصمت . . وعجبت بعد أن قلت هذا . كيف جرّوت على
قوله . . أيمكن أن أقابل خطبة إبراهيم لى بهذا الرد ؟ ! أبعد
أن تزول كل العقبات التى توقعتها سيدة . . وأجده خالياً
بلا زوجة ولا خطيبة ولا حبيبة إلا أنا . . أن أصدّه بمثل
هذا القول ؟

ومع ذلك فقد كنت أشعر أنى أدبت واجبي . . . وأنى
مهدت الطريق فى نفسه لقبول الصدمة .

ولكن هبه تراجع !!

بك بعيداً .. كل ما أريده منك هو إيمانك بي وثقتك
في حبي .

ولم أدر ما أقول له .. لقد ملأني إيماناً عجيبياً وثقة
لا حد لها .

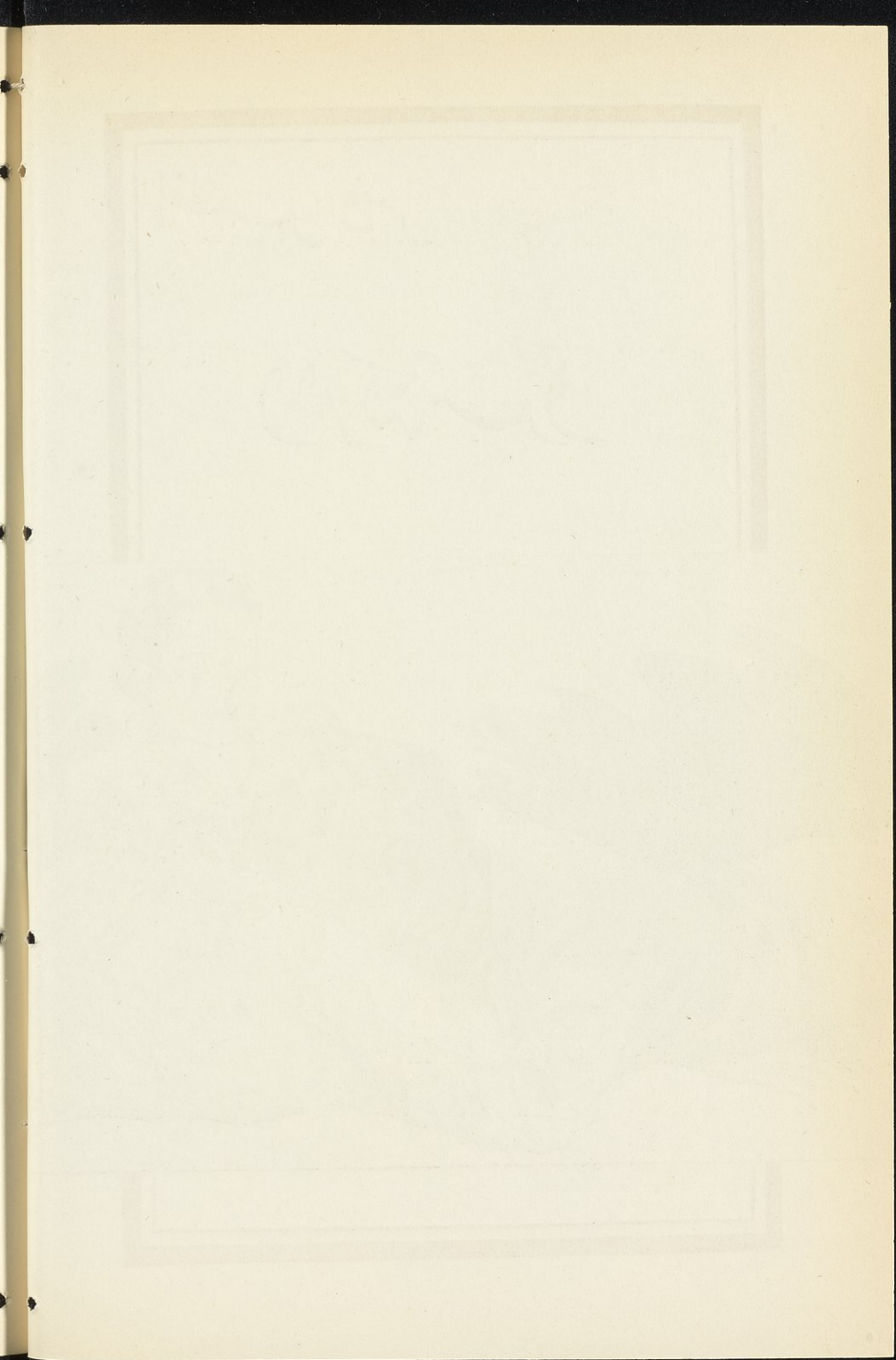
كنت في جلستي بجواره .. ورأسي على كتفه .. وأنفاسه
تلهب يدي .. أشعر أني أستطيع من أجله أن أقهر كل
قوى القدر .



الفصل الثامن

العركة تبدراً





لم تطل غيبة جدى إذ لم يمكث في القاهرة أكثر من
يومين .. عاد في ثالثها .. ولم أضق بعودته .. فقد أحدث
قول إبراهيم في نفسى تطوراً كبيراً ، وملأنى رغبة في
خوض المعركة والتحدى والانتصار .. وأزال من نفسى
ذلك الاستسلام لقضائى والخضوع لمصيرى الذى أساق إليه
سوق النعاج .

لقد بدد برغبته وإصراره .. حالة العجز التى كانت تقصر
مطالبى على الأوهام والأحلام ، التى كانت تتركنى أقنع
بجلسة في الشرفة وشروذ في السماء وتحليق بين النجوم وتعزية
لنفسى عن مرارة الحقائق بحلاوة الأمانى .

لقد أذاب بقوة إيمانه ثلوج اليأس والخوف والعجز ،
وجعلنى أجرؤ على التفكير في حقى في الحياة الواقعية ..
لا في حياة الأفكار .

لقد وهب لى الشجاعة مرتين : الأولى عندما سألت أن
أجبهه .. هو .. كما هو .. الكائن البسيط .. بلا عبقرية ،
ولا ألحان ولا نبوغ .. إذ جعلنى أحس قدرة على الاستحواذ
عليه وعلى الاستئثار به ، والمرة الثانية عندما أكد لى أنه لن
تحول بيننا قوة ، فقد ملأنى جرأة على العقبات وتحدياً للموانع .

وهكذا لم أضق بعودة جدى السريعة .. فقد كنت
أنتظره والقفاز فى يدى ، وكنت أتعجل المعركة .. حتى أصل
إلى نهايتها ، ويصبح ذلك الشئ الذى تخيلته فى أول الأمر
حلماً .. ثم أصبح مع الأيام متعة مختلصة .. يصبح حقاً
لى .. أستطيع امتلاكه أمام الملاء .. بلا خوف ولا
خشية .

ألا يستحق ذلك أن أخوض من أجله المعركة ..
وأتعجل النهاية ؟

وكان على إبراهيم أن يعلن القتال ، وأن يبدأ الجولة
الأولى .. أما الجولة الثانية ، والأخيرة .. فقد قررت أن
تكون من نصيبى ، وكان الاتفاق قد تم على أن أرسل
إليه سيدة بمجرد حضور جدى ، ولم يكفد يستريح جدى
من عناء السفر .. حتى أرسلتها إليه ، ولم تمض فترة قصيرة
حتى أرسل هو بطاقة مع مدبولى يستأذن فى الزيارة .

وكنت أجلس مع جدى عندما وصلت البطاقة ..
وكنت أرقب التعبيرات التى ترسم على وجهه جيداً .. فقد
كنت أعتبر فيها .. تقريراً لمصيرى ، ولم يكن وقع البطاقة
مباشراً بخير فقد وجدته يقلب شفقيه فى شبه ازدراء
ويتساءل قائلاً :

— إبراهيم حسن . . موسيقار . . يعني إيه موسيقار ؟ !
« مزيكاتي » والا . . آلا تي . . أفد باتت هذه وظيفة توضع
على البطاقات ؟ !

ثم التفت إلى « سيدة » التي أحضرت البطاقة من مدبولى
وتساءل :

— ماذا يريد مني ؟ !

— أظنه يريد زيارتك .

— زيارتي أنا ؟ لعله يريد حسنة . . أهذه آخر طرق

التسول ؟ ! تسول بالطاقات ؟

وأحسست بالدم يرتفع إلى وجهي وتملكني ضيق شديد
وهمت بأن أجيب عليه ، ولكن « سيدة » كانت ترقبني
جيداً وكانت نظرة منها كافية لأن تجعلني أتمالك أعصابي .
هذه فاتحة لا تبشر بخير .

وقذف جدى بالبطاقة وصاح في ضيق :

— لا أريد أن أقابل أحداً . . قولى له إني نائم . . أو

إني خرجت . قولى له أى شيء ، اصرفيه بالتى هى أحسن .

ونظرت إليه « سيدة » وقالت له فى هدوء :

— يا سيدى هذا جارك . . رجل محترم ، وهو يريد

زيارتك . . أتصر بعد هذا على أنه يطلب حسنة ؟

— جارى ؟

ثم صاح فجأة كأنه قد تذكر :

— آه .. هذا المخلوق المزعج .. الذى يسكن فى بيت
الدكتور زكى والذى لا يكف عن إزعاجنا لحظة .. ماذا
يريد من زيارتى . !؟

وأجابت سيدة فى هدوء الصبور الهادئة :

— وماذا يريد الناس من زيارة جيرانهم ؟ لعله يود
التشرف بمعرفتك ، وقد أرسل خادمه يستأذن فى الزيارة .
رجل كله ذوق .

وكأما تأثر جدى بهدوء سيدة وندم على اندفاعه
وتسرعه .. فقد قال فى لهجة أقل حنقاً وخشونة :
— قولى له يتفضل .

ونهضت أنا تاركة الحجرة .. ذاهبة إلى حجرتى ،
وكنت فى حالة اضطراب شديد .. كتمهم يوشك أن يتلقى
حكماً بالحياة أو الموت .

وجلست على حافة الفراش وقد ضاعت شجاعتي ،
وفقدت كل رغبة فى الكفاح والتحدى والنضال ،
ووجدتني برغمي أقرأ الفاتحة ، وكل ما وعيته من القرآن ،
وأدعو الله أن يحقق كل أملي ولا يخيب رجائي .

وناديت سيدة لتجلس بجوارى أستعين بها على الموقف
العصيب ، وقبل أن تأتي سمعت الجرس يدق والخادم يفتح
الباب ويقول تفضل . . ثم سمعت وقع أقدام ابراهيم تتقدم
إلى حجرة الاستقبال .

ودخلت سيدة فرأت اضطرابي ، ونظرت إلىّ وحاولت
أن تبعث في الطمأنينة بقولها :

— ما بالك تلهثين هكذا؟! استريحى ، وتوكلى على الله .
إن الخير فيما يختاره الله .

وقلت لها وأنفاسى تتلاحق كالمصدرور أو العادى
فى سباق :

— إني خائفة .

— مم تخافين؟ إن المقادير بيد الله . . إذا كان
إبراهيم من نصيبك فلن يستطيع جدك ولا غيره من مخلوقات
أن يفرق بينكما . . إن جدك لا يملك برفضه أن يحول إرادة الله ،
فإياك أن يصدملك برفضه .

وأدركت أن سيدة تحاول بقولها التمهيد للصدمة حتى
لا يكون وقعها المفاجيء أليماً .

وأخذت تردد حديثها عن القسمة والنصيب والمقادير
لا يملكها إلا الله ، وعن وجوب توقعى كل الاحتمالات ،

وعدم اكتر اثنى لرفض جدى .

وقلت فى حنق وقد ضنقت بأقوالها :

— أنا لا يهمنى الرفض .. إن كل ما أخشاه الآن هو أن
يسىء إليه جدى .. فلا يحسن استقباله .. أو يعامله بطريقتة
الجافة .. إن الذنب ذنبى .. كان يجب ألا أعرضه لمثل هذه
التجربة التى أعرف نتيجتها سلفاً .. أجل .. كان يجب ألا
أتركه يضع نفسه فى هذا المأزق ، إن جدى لا يعرف قدره .
ألم تسمعى قوله عنه أنه « مزيكاتى » !! إنه كان يرفض مجرد
استقباله ، فما بالك إذا علم أنه قد أتى لخطبتي !؟

وهكذا نسيت فى أزمتى وضعفى .. كل مادفعه فى نفسى
من قوة وإيمان ، ولم أعد أرى لى حتماً يستوجب الكفناح
بل أضحى كل ما أتمناه هو أن أجنب إبراهيم مرارة الخذلان
وأن أعدو إلى حجرة الاستقبال فأسأله أن يعود من حيث
أتى ، وألا نفكر فى الخطبة مرة أخرى .. وأن نقنع
بأحلام الدجى ، واللقاء المختلس .

وسمعت وقع أقدام جدى تهبط السلم بعد أن ارتدى
ملابسه ، وهممت بأن أعدو إليه لأعرفه بمن يكون زائرنا
وأبين له قدره .. وأوضح قيمته .. وأقول له إنه مخلوق
نسيج وحده .. وأن الأرض قد تنجب الكثيرين بمن

يحيدون الحساب ويحسبون استثمار المال ، ولكنها لا تهب
لنا العباقرة إلا بقدر محدود ، ولأقول له . . إذا كان ينوى
خذلانه فليترفق به وليحسن رده ويحمل لقاءه ويحترم قدره .
قلت هذا لنفسى لأفرج عنها . . وانتهى وقع الأقدام
ودخل جدى حجرة الاستقبال وأنا منكشثة على طرف
فراشى . . لا أملك من القدرة على الحركة إلا الارتجاف
كريشة في مهب الرياح .

ورفعت رأسى إلى سيدة وقلت متوسلة :

— إنزلى ياسيدة لعلك تسمعين شيئاً .

وربتت سيدة ظهري وقالت فى حنان :

— هدى روعك ، واستريحى قليلاً . . تمددى فوق
الفراش ، وسأنبئك بكل ما يحدث . . سأكن وراء باب
حجرة السفرة ، وسأسمع حديثهما .

وغادرتنى وهبطت إلى أسفل . . وجلست وحدى . .
وكأنى أجلس كما يقولون على جمر الغضا أو شوك القتاد ،
ونهضت من الفراش وقطعت الحجر عدة مرات جية
وذهاباً . . ثم جلست ثانية وتمددت ، وقضمت أظافرى
ومزقت مندبلى ، وهززت ركبتي ، وفعلت كل ما يمكن من
حركات القلق والحيرة والانتظار . . حتى خلت أن دهرأ

قد مضى ، وأخيراً نظرت في الساعة فإذا العقرب لم يتحرك
أكثر من عشر دقائق .

وغادرت الغرفة نافذة الصبر ، وخرجت إلى « الصلاة »
ووقفت على طرف السلم . . . عندما أبصرت سيدة تهرول
في « الصلاة » السفلى ثم تحتفي في « بئر السلم » وسمعت وقع
أقدام تطرق أرض « الصلاة » متجهة إلى الباب الخارجي
فأسرعت بالاختفاء . . . ووصل إلى صوت جدى يقول :

— مع السلامة .

وعدت مسرعة إلى غرقتى .

ومرة أخرى جلست ألثت على طرف الفراش . . .
وانتظرت أن تصعد سيدة ، ولكن غيابها طال ، أو هكذا
خيل إليّ من فرط قلق وضيق ، وأخيراً صحت أناديها ، وأتى
إلى صوتها من أسفل قائلة إنها قادمة .

وأقبلت ، ولم يصعب عليّ أن أعرف من وجهها ما حدث ،
ولكنني أردت أن أسمع منها التفاصيل .

قلت في غضب مكثوم :

— ماذا حدث ؟ !

— لا شيء . . . حدث ما كنا نتوقع . . . إنها إرادة الله .

يجب أن . . .

ولم يكن لدى صبر لسماع حكمها ونصائحها فصحت
بها في حدة :

— قولى لى ما حدث كلبه كلبه .

— صبرك ياسيدتى .. إهدنى .. أولاً .

— أنا هادئة .. قولى ما حدث ؟

— لقد سلمّ عليه جدك وقدم إليه القهوة .. وأؤكد
لك أنه لم يحاول قط أن يقلل من شأنه ، وتحدثنا برهة عن
هدوء السيوف .. وعن تحسن الجو .. واستطاع إبراهيم
أن يستميل إليه جدك بلباقته ، وجرى الحديث بينهما سهلاً
هادئاً بلا تكلف .. حتى بدأ إبراهيم يطرق الموضوع ..
ولم يستطع جدك أن يفهم تلميحه .. فقد كان ذهنه أبعد
ما يكون عن تصوّر مجيء إبراهيم لهذا الغرض ، وأخيراً
لم ير بدأ من الإفصاح ، وهنا .. فغر جدك فاه ، ورفع
حاجبيه وقال فى دهشة :

— تريد من . ؟

وأجاب إبراهيم فى هدوء وثقة :

— راجية .

— راجية ؟ .. أرايتها ؟

— أجل .. لمحتها بضعة مرات فى الشرفة .

— وتتقدم لخطبتها بمثل هذه السرعة .. من مجرد لمحها
في الشرفة؟! !

ولم يجبه إبراهيم في الحال .. بل تفرس في وجهه برهة
ليعرف ماذا يقصد بقوله .. وأخيراً أجابه في تودة :

— إنى لا أقدم على عمل إلا بوحى من إحساسى ..
ولم يخطئ به إحساسى مرة واحدة .

وأطرق الجذ رأسه مرة ثم تلفت حوله كأنما يخشى أن
يسمعه أحد وقال :

— إسمع يا بنى .. خذها نصيحة منى .. مرة أخرى
عندما تحاول الزواج .. لا تقدم عليه بمثل هذا التسرع ..
إن الزواج ليس لعباً .. يجب أن تتروى جيداً ، وتسال
جيداً .. أما أن تبت في المسألة بمجرد لمحة في الشرفة فهذا
فعل أفل ما يوصف به أنه تسرع وطيش ، وعلى أية حال
هذه مسألة خاصة بك أنت .. أما بالنسبة لى فإنى أخبرك
أن الفتاة التى تتقدم لخطبتها .. مخطوبة فعلاً ، ولكى
أكون معك أكثر صراحة .. وأرجو ألا تؤاخذنى ..
فإنى أحدثك حديث رجل لرجل .. إنى ما كنت لأعطيها
لك لو لم تكن مخطوبة .. أنت كما تقول موسيقار ، وأنا
لا أعتبر الموسيقى عمل .

وكنت أتوقع من إبراهيم أن يغضب ، أو على الأقل يتجهم . . . ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . . . بل أجاب بهدوء وقد ارتسمت ابتسامة رقيقة على شفتيه :

— يبدو لي أنه من الخير . . . أن أكون أنا أيضاً أكثر صراحة في الحديث . . . لكي أشرح لك المسألة .

ولكن جدك أسكته بإشارة من يده وقاطعه بقوله :
— أرجوك . . . لست أريد شرحاً . . . ولا مناقشة . . .
لقد أنهيت الموضوع بقولي ولست أريد أن أسمع فيه كلمة واحدة . . . بل أرجو — أكثر من هذا — أن تتناسى أنت الموضوع . . . وتعتبره كأن لم يكن . . . أرجوك . . . دع جيرتك لنا تمر على خير . . . وإذا كان لديك موضوع آخر للحديث فإني على استعداد لسماعه .

ولكن إبراهيم نهض واقفاً . . . فنهض جدك وصافح كل منهما الآخر ورافقه إلى الباب . . . هذا كل ما حدث كلمة . . . كلمة .

وانتهى حديث « سيدة » . . . ولست أظنني كنت أتوقع خيراً من هذا . . . بل لقد كنت أحاول أن أوطن نفسي على أسوأ منه .

ومع ذلك فقد تملكني غضب أخذ يغلي في صدري كما

يغلي الماء في مرجل مغلق .. وكانت « سيدة » دائماً تهمنى
بأني « صفاوية » كتوم الغضب .. ولكنني في ذلك الحين
كان ما بي أشد من أن أستطيع كتمانته .

لقد بدد اليأس خوري واستكاتي .. وأضاع الغضب
ذلك الاستسلام الذي ملأني .. المعركة دائرة .. والنتيجة
لم تستبين بعد .

كنت أفضل الانسحاب إلى عالم الأوهام .. رغبة في
أن أقي إبراهيم مرارة الهزيمة .. أما وقد وقعت الهزيمة ،
وفاضت المرارة .. فما عدت أهتم بشيء ، أو أخشى شيئاً ،
يجب أن أقي بوعدي ، وأن آخذ دوري في المعركة ...
أجل . يجب أن أبدأ الجولة الثانية .

ووجدتني أنفجر في وجه « سيدة » صائحة :

— من قال إني مخطوبة .. أنا لا أخطب برغم أنني .

وذهل « سيدة » من تهوري ومن صياحي وأسرعت

بإغلاق الباب وعادت إلى محاولة تهدتي :

— لا تصيحي هكذا وإلا سمعك جدك .

وصحت بصوت أعلى :

— أنا أريد أن يسمعي .. إني لست « جارية » عنده ..

إذا كان يحاول فرض سيطرته .. مقابل صرفه عليّ ، فلن

أبقى في البيت دقيقة واحدة .

— لا تكوني « مجنونة » .. إنك ابنته .

— لست ابنة أحد .. إني حرة أقرر مصيرى .. كفاه
استعباد ألى .. ألا يكفي خضوعي لحياته الجافة الخاملة في
كل ما مضى من حياتى .. حتى يحاول التحكم في مستقبلى؟!
ألا يكفي أن يفرض عليّ ما يريد من ملبس ومأكل ..
وأن يتدخل في كل حركاتى وسكناتى .. حتى يحاول أن
يفرض عليّ شريك الحياة .. هذا ظلم .. هذا استعباد ..
إنى أكرهه .. أكرهه .

وكنت في حالة من الهياج والثورة لم تعهد لها « سيدة » ..
حتى لقد اصفر وجهها وأخذت تلهث وهي تمسك بيدي تحاول
أن تجلسنى على المقعد وهي تقول مضطربة خائفة :

— بسم الله الرحمن الرحيم .. ماذا حدث لك ياراجية؟
لم يارب هذا؟! لقد كنت دائماً هادئة وعاقلة .. إجلى
ياسيدتى .. كل شيء يحل بإذن الله .. ولكنه ليس بمثل
هذا الغضب .. بل الصبر .

ووجدتني أصبح بها في غضب أشد :

— لا .. لن أصبر .. ليس لأحد أن يتحكم في
مصيرى .. إنه مصيرى وحدى .

— حاضر .. كما تشائين .. ولكن اخفضى صوتك ..
لئلا يسمعك جدك .

وجفأة فتح الباب وبدا جدى وقد علت وجهه علام
الدهشة وصاح متسائلا :

— ما هذا الصباح ؟! ماذا حدث ؟!

وفزعت « سيدة » من صيخته وحاولت أن تمنقذ الموقف
قدر استطاعتها فأجابت :

— لقد أصاب سيدتى راجية مغص .

ونظر إلى جدى وما زال الغضب والدهشة تعلوان
وجهه وكأنه يطلب منى تفسيراً .. أو تأكيداً .. وأحسست
بشيء من الخور يتملكنى ، وأنا أقف أمامه وجهاً لوجه ..
وكدت أراجع فأصدق على قول « سيدة » وأتهاوى على
الفراش مدعية المرض .. ولكنى تذكرت إبراهيم ..
وتذكرت ما أصابه من مهانة فى سبيلى .. أنا التى لا أستحق
قلامه ظفروه .. وغلى الدم فى عروقى .. وفار الغضب فى
صدرى ، فصحت متفجرة بلا وعى :

— لا .. ليس عندى مغص .

وزادت دهشة جدى .. وحر بصره بينى وبين « سيدة »
محاوفاً أن يفهم حقيقة الأمر .. ولكن « سيدة » لم تجد

ما تقول . . بعد أن أفلت الأمر من يدها ووجدت أنى قد
ركبت رأسى ، وعزمت على ألا أراجع .
ووقفت أنظر إلى جدى متمرة وأوجه إليه نظرات
ملتهبة كأنى أوشك أن أنقض عليه .

وعاد هو يسأل فى ذهول :

— ما بك ؟! تكلمى .

ولم أكن فى حالة تمكنى من التفكير وصياغة الحديث
أو ترتيب القول . . بل كانت الألفاظ تندفع من شفتى
كالطلقات .

قلت صائحة :

— أنا لست مخطوبة .

وزادت دهشة جدى . . . واندفع هو الآخر يصيح

فى غضب :

— أجنونة أنت ؟! ما هذا الذى تقولينه ؟!

واندفعت فى هجومى . . غير واعية ما أقول :

— أنا لست مخطوبة . . ولا يمكن أن أخطب برغم

أنفى . . أنا لست جارية فى سوق عبيدك تمنحنى لمن تشاء . .

وتمنعنى عن تشاء . . إن لى رأياً فى مصيرى . . بل إن رأى

هو الأول . . أنا لست مجنونة ولا صغيرة . . حتى تتصرف

فيّ بغير إرادتي .. وتختار لي ما تشتهي .. أنا التي ستزوج
ولست أنت .. إذا كنت تكره الموسيقى فيّني أحبها ..
وأفضلها عن كل أموالك .. وإذا كنت تعتبر الموسيقى
عاطلا فيّني أراه سيد الناس .

وكانت الدهشة تزداد بجدي وأنا مندفعة في صياحي إذ
لم يدرك سر الموقف حتى بدأت أتلفظ بالجملة الأخيرة ..
وبدأت الدهشة تزول لتحل محلها غضبة شديدة .

ولم يجنني بصياح كصياحي ، بل تمالك أعصابه وأجاب
في سخرية :

— هكذا !! إذا فالمسألة مبيتة .. والموضوع متفق
عليه .. والعلاقة ليست مجرد لمحة من الشرقة .. ولكن
الذنب ليس ذنبك .. إنه ذنبي أنا .. لأنني لم أعرف كيف
أرييك . كان يجب ألا أترك لك هذه الحرية التي أفسدتك ،
ولكن لا بأس .. كل شيء سيصلح .. وسأعرف كيف
أعيدك إلى وعيك .

ثم ألقى إلي « سيدة » نظرة تهديد وأردف قائلاً :

— وأنت سأعرف كيف أجعلك تحرصين عليها جيداً .

كان يجب أن تمنعها عن هذا العبث .. أو تبلغيني خبره .

ثم غادر الحجره .. وأغلق الباب خلفه بشدة .. وأخذ

وقع أقدامه يتباعد . . حتى اختفى . . وساد الغرفة سكون
أشبه بسكون أرض المعركة بعد نهاية القتال .

وكما لا يشعر المقاتل بجروحه ورضوضه إلا بعد انتهاء
المعركة . . بدأت أنا أشعر بمدى الجهد الذى بذلته من دمي
ومن أعصابي . . فانهرت على الفراش واندفعت فى نوبة
عنيفة من البكاء .

وبكت سيدة من أجلى . . ثم أقبلت علىّ تحاول أن
تكفكف من دمعي ، وتخفف من لوعتي ، وترفع كفها إلى
السماء بين آونة وأخرى داعية الله أن يهدى جدى . .
ويرقق قلبه .

ولكن جدى لم يهتد . . ولم يرق . . بل أمعن فى
صرامته ، وبدأ يوقع الجزاء الذى ظن أنه سيقلعنى عن غيى
ويكسر شوكتى ويهدىنى سواء السبيل . . فلم يقبل الليل حتى
كان قد ضرب الحصار حولى ، فأغلق النوافذ المطلة على
بيت إبراهيم ، وأصدر أوامره لى بتحريم الخروج إلى
الشرفات أو النزول إلى الحديقة . . وألا أغادر الدار إلا
فى صحبته . . معتقداً أن نوبة الطيش الطارئة لا تلبث أن تزول
بمثل هذا القمع والتضييق .

وهكذا أضحت الصلوة بإبراهيم متعذرة ، أو على الأصح

مستحيلة . . لأستطيع رؤيته أو الاتصال به ، ووجدتني
وحيدة منهارة يائسة . . حتى الأمل المستمد من أمله قد
انقطع ، والإيمان التابع من إيمانه قد نضب . . فقد خيل
إلى أن اليأس قد أصابه . . وأن ثقته قد تبددت وعزيمته
قد فلت .

وأويت الى مضجعي وقد تكاثرت الوسوس على ذهني
وكان أكثر مارو عنى خشيتي أن يكون قد خلفني ورحل ،
وأحسست كأنى أهوى فى بر عميقة مظلمة لاقرار لها ،
وأحفيت رأسى فى الوسادة أدفن فيها عبراتى ، وقد تملكنى
من خاطرى حزن شديد ، وأحسست أنى بت فى محنتى
وحيدة ، وأن الكل قد تخلى عنى . . حتى هو . . الذى أمدنى
بالثقة فيه والإيمان بحبه . . والذى كان يمكن أن يعينى فى
كفاحى من أجل حقنا فى الحياة قد خلفنى ورحل .
رحل ؟ . . لا . . لا . . انه لن يخلفنى وحيدة أبداً . .
لن يتركنى .

وحاولت جهدى أن أذفع عنى الهواجس . . وهى تهجم
علىّ بلا رحمة ولا هوادة .

مالذى يدعوه الى البقاء . . بعد هذه الصدمة ؟ ! واذا
لم يكن قد رحل فهو لاشك راحل . . بعد أن يرى النوافذ

المغلقة والقطيعة الجازمة المؤكدة .

لو أستطيع الاتصال به !! لو يعزف كما كان يعزف
كل ليلة !! أو حتى لو أسمع منه همسة واحدة .. لو
ونجاة ، وجدتني أرهف السمع ، وأخرج رأسي من
تحت الوسادة وأنصت جيداً .
عجباً !! إنه هو . . . أجل . . . هو بعينه . . . يعزف لي ،
إنه يناديني بمقطوعته « راجية » .

وأخذت أنصت ، وأرهفت مشاعري ، وشحذت قواي ،
وركزت أعصابي في أذني . . وخيل إليّ أن اللحن ينبعث
خافتاً من وراء النافذة المغلقة ، وأحسست أن اليأس قد
تبدد ، وأن الإيمان قد عاد ، وأن الروح قد رددت . .
وأنى بدأت أسترد أنفاسي ، لأعاود النضال .

وفيم أنا أرهف السمع لالتقاط الألحان الخافتة . . .
وجمع الأنغام الهامسة المتقطعة دخلت سيدة وهي تدفع
الباب وتضيء الحجره وتسألني أن أنهض للعشاء فصحت بها
وقد أعشى النور عيني ، وأطار صوتها اللحن من أذني :

— اطفئي النور . . واذهي . . إني لن أتناول العشاء .

ولم تذهب « سيدة » بل جلست على الأرض بجوار
الفراش تربت كتفي . . تحاول أن تقنعني بالصبر وترجوني

أن أتناول ولو بعض الفاكهة التي أحضرتها لى .
ولم أكن أحس بقابلية للأكل أو النوم .. كانت
أعصابى من فرط الجهد متوترة ، وكان كل ما أتلف عليه
هو مزيد من ذلك الصوت السارى من وراء النافذة .

وصحت بها أن تسكت وتكف عن التثرثرة .. أو تتركنى
وحدى .. حتى أنصت للحنى المحبوب .

وبدت على « سيدة » الدهشة وقالت متسائلة :

— تنصتين إلى ماذا ؟

— إلى « راجية » .. إنه يعزفها لى ، إنه ينادىنى بها ..

ألا تسمعين ؟ !

وعاد الصوت ينبعث خافتاً ، كأنه الهمس .
وانبسطت أسارىرى ، وعدت أسمع فى إرهاف شديد
وأنا أقول لسيدة :

— إسمعى .. إنه يعزف الآن .

وهزت « سيدة » رأسها فى دهشة وهى تتمم قائلة :

— أنا لا أسمع شيئاً .

— كيف لا تسمعين ؟ أنا أسمع جيداً .. أجل . أسمع .

انصتى .

ولكن « سيدة » لم تسمع شيئاً ! !

كنت أنا الذى أسمع وحدى .
أم ترى اللحن كله وهماً .. من صنع الأعصاب المتوترة
والنفس المنهارة المحطمة ، وهم .. أو غير وهم .. إنه غذائى
الوحيد .. إنه كل ما تبقى لى . لست أريد منهم شيئاً .. سوى
أن يدعونى وحيدة أستمع إليه .
وعدت أنصت إلى النغم .. أو أتصيده من عالم الوهم .
وعاد الصوت ينبعث خافتاً ، وعادت « سيدة » تربت ظهرى
قائلة فى حنان :

— ألا تستريحين قليلاً !! ألا تنامين !

وصحت بها فى ضيق :

— اصمتى .. لا تتحدثى .. إنك تضعين الصوت ..
اذهبي من هنا واتركيني وحدى .. لست أريد أحداً .
ونهضت « سيدة » ، وعدت أنصت .
وعاد اللحن ينبعث من وراء النافذة .
ولم أشعر بانقضاء الوقت .. بل لم أشعر بشيء أبداً .
وراقدة كما أنا .. مفتحة العينين مرهفة الحس .. ألتقط
همس الألحان التى أتصيدها من الهواء خافتة متقطعة ..
بدأت أستقبل أول خيوط الفجر .. دون أن يجسر النوم
على أن يراود جفنى .

وقبيل الفجر أحسست بالصوت يزداد خفوياً ، ولم تعد
أعصابي المحطمة ولا سمعي المرهق .. تميزه ، إلا بجهد شاق
وصعوبة شديدة ، وبدأ لي كأنه صادر من آخر الأرض
وخيل إليّ أن فتحة يسيرة في النافذة .. قد تمكنه من
الوصول إليّ واضح النغمت يميز النبرات ، ونهضت مترنحة
أستند على الفراش ، ودفعت النافذة دفعة هينة ، وجلست على
الفراش أنصت .

ولكن الصوت انقطع تماماً .

وأغلقت النافذة .. فعاد الصوت .. ينبعث خافتاً ..
متقطعاً .. ورقدت على الفراش أجمع النبرات المتقطعة
في أذني .. حتى فتح الباب ودلفت سيدة .

ونظرت إليّ « سيدة » وقد بدأ الارتياح على وجهها كأنها
تري شيئاً .

وأقبلت عليّ تضع كفها على جيني وقالت في حزن شديد:
— ما هذا الشحوب البادى عليك ؟ ألم تنادى ليلتك ؟
وهزرت رأسي بالنفي .. إذ لم تكن بي أقل رغبة
في الحديث ولا الإنصات .

كنت أشعر بقوای خائرة .. وبجسدي محطماً ، ورأسي
يكاد ينفجر ، وكنت أحس بحاجة شديدة إلى النوم حتى

أفر من تفكيري وأوهامي وآلامي .. ولكن لا أكاد
أغمض عيني حتى أحس بيقظة تامة ، وكانت حواسي ،
ولاسيما مسامعي ، ترهف في حدة ، كأنما تخشى أن يفر منها
الصوت إذا ما غفت عنه .

وكان بنفسى عزوف عن الطعام .. فلم أذق مما حملته إليّ
سيدة شيئاً ، ومرّ اليوم كالليل ، وأنا مرهفة السمع ، شاردة
الذهن . ، مفتحة العينين .. أتقل من الفراش إلى المقعد
ومن المقعد إلى الفراش .. وانتهى اليوم وسقطت الظلمة ،
وأقبل عليّ ليل ثقيل « كموج البحر أرخى سدوله » .. حتى
بت من ثقله أهتف :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل

بصبح وما الإصباح منك بأفضل

وأشرق فجر جديد .. دون أن يحمل إليّ جديداً ، كنت
كما أنا .. أتقلب على المرقد الجاف والمضجع النابي ، والسمع
منى مرهف والجسد منهك محطم .

وقبيل الضحى أحسست في البيت حركة غير طبيعية ،
وسمعت صوتاً غريباً ، وأقبلت عليّ سيدة تفتني أن الطيب
قد أتى .

وصحت بها في حدة :

— لست أريد طبيباً .. لا أريد أن يرانى أحد .
وأمسكت « سيدة » يدي وقالت وعبراتها تسيل في صمت
على خديها :

— يا سيدتى .. إرحمى نفسك من أجلى ، ومن أجل
شبابك .

— ارحمنى أتم ، واتركونى .. إني أبغضكم جميعاً .
واندفعت في نوبة بكاء .

وأخذت « سيدة » تكفكف دمعى وترت جسدى
قائلة :

— كفى يا سيدتى .. كفى .. ماذا يقول عنا الطيب ؟
وأخيراً تمالكت نفسى ، ومسحت وجهى بمنشفة مبللة ،
ورقدت أنتظر الطيب .

وأقبل على .. ووجدته كهلاً تبدو عليه الطيبة وكان في
صحبه جدى وعبد الرحمن ، وكانت المرة الأولى التى أرى
عبد الرحمن فيها منذ أن رقدت ، وبدأ لى أنه لم يكن لديه
أقل فكرة عما حدث إذ كان قد قدم توأ من القاهرة .

وتقدم لى عبد الرحمن وقد بدت على ملامحه دلائل
الانزعاج وأمسك يدي برفق وسألنى في لهجة شفقة حنون :
— مالك يا راجية ؟ ! ماذا بك ؟

ولم أجب بأكثر من « لاشيء » .
كنت أكرههم جميعاً .. بل كنت أكره الحياة كلها .
وتنحى عبد الرحمن ليفسح الطريق للطبيب الذى أمسك
بيدى وسألنى باسماء :

— كيف الحال ؟ ! كفى الله الشر ! بماذا تشعرين ؟ !

وهزرت رأسى للدلالة على أنى لأشعر بشيء .

وبدأ يحس النبض ويسأل :

— أظن ليس عندها حرارة ؟

وهزت « سيدة » رأسها قائلة :

— لم نقس الحرارة .. فحرارتها تبدو طبيعية .

— والهضم ؟

وعادت سيدة تجيب فى مرارة :

— أى هضم ؟ ماذا تهضم ؟ إذا كانت لاتأكل ؟ لقد

مضت عليها ثلاثة أيام لم يدخل جوفها سوى فنجان شاي .

وكان جدى يبدو متجهماً ، ولم يكن قد حاول الدخول

إلى خلال الأيام الماضية ، وإن كانت « سيدة » أبلغتنى أنه

يبدو حزيناً غاضباً يثور لأقل سبب وأنه قد أضخى لايحتمل .

وسمعتنه يتمتم قائلاً :

— « دلح .. ومسخرة » .. عندما يقرصها الجوع

ستتضر للأكل .

وأجابته « سيدة » بمثل تمتته وكأنها تحدث نفسها :
— ألم يقرصها الجوع خلال ثلاثة أيام ؟ . لعلها جمل !
والنوم الذى لا يقرب جنونها . . أهو « دلع » أيضاً ؟
ثم أشاحت بوجهها .
وأخرج الطيب السماعة . . وجذب مقعداً جلس عليه
بجوارى .

ورأيت عبدالرحمن يغادر الحجرة ويغلق الباب خلفه .
وأنهى الطيب فحصه الشكلى الذى لم يكن منه بد . . ثم
قال وهو يضع السماعة فى حقيبتها :

— كل شئ سليم والحمد لله . . وأعتقد أن أعصابك
مرهقة قليلاً . . سأكتب لك أقرصاً تساعدك على النوم ،
أكتب لك بعض الفيتامينات ، وسأمر عليك بعد أسبوع ،
وإن شاء الله أراك سليمة ويكون كل شئ قد زال .

ثم أخذ فى تحرير التذكرة . . وسيدة تنظر إليه وإلى الجد
فى غيظ مكبوت .

وأخيراً نهض الطيب . . وربت يدي فى رفق قائلاً :
— شدى حيلك . . لا داعى للوهم ، ليس بك شئ
على الإطلاق .

وغادر الرجل الطيب الحجرة .. يتبعه جدى ، وكان
عبد الرحمن يقف خارجها منتظراً .. فسلبه جدى تذكرة
الطيب قائلاً :

— خذ العربة .. وأحضر هذه الأدوية من أقرب
صيدلية .

ثم هبط جدى السلم مع الطيب .
ورأيت « سيدة » تندفع خارج الحجرة .. وسمعتها تقول
لعبد الرحمن بصبر نافذ .. بعد أن فاض بها الغيظ :

— أية أدوية هذه التي ستحضرها ؟ أنخدع أنفسنا ؟
أنترك الصبية تضيع « هدرأ » ؟ حرام .. والله حرام ..
إن ربنا لا يرضيه هذا .

وسمعت صوت عبد الرحمن يسألها فى دهشة :
— ما هذا الذى تقولينه ؟ ! كيف نخدع أنفسنا ؟
ولم تتمالك سيدة من الاندفاع فى البكاء وهى مستمرة
فى قولها :

— حرام . حرام والله .
وعاد عبد الرحمن يسألها ناهراً وقد زادت به الدهشة :
— ما هذا الحرام ؟ ! « حرمت عليك عيشتك » ..
تكلمى ؟ ! أفهمينى ؟

— ماذا أفهمك؟! أهو شيء يحتاج الى فهم؟ .. من
قال إن المسائل تؤخذ هكذا بالقوة . أهو حكم قراقوش؟!
أهي جارية لديه؟

— لست أفهم شيئاً أبداً مما تقولين . . فسرى الأمر
لى . . أرجوك .

— ألم يذكر لك سيدى الكبير شيئاً؟

— أبداً . . إني لم أصل إلا قبل الدكتور بدقائق . .
وكل ما أعلمه من جدى أن راجية مريضة ، وأنه قد أرسل
فى طلب الدكتور ، وأنبأنى أنه عند ما تشفى سنعلن الخطوبة
ونلبس « الدبل » .

— هكذا؟! حتى يأتى على بقيتها . . ويقضى عليها
قضاء مبرماً .

وتساءل عبد الرحمن فى دهش :

— يقضى على من؟!!

— على سيدتى راجية . . يا ناس اتقوا الله!! أكل هذا
يفعله فى البنت . . يغلق عليها النوافذ ويحرم عليها الدخول
والخروج . . كأنها سجينه . . حتى الحديقة يحرمها عليها . .
ولم كل هذا . . أمن أجل أن تقدم لها خطيب؟

— تقدم لها ماذا؟

- خطيب .
- متى تقدم ؟ . ومن يكون ؟
- جارنا الأستاذ ابراهيم . . تقدم أول أمس .
- عجيبة !! كيف تقدّم ؟
- تقدّم ككل الناس .
- أعنى ماذا دعاه إلى ذلك ؟
- رآها وأعجبته .
- وماذا قال جدى ؟
- ثار وفار . . وهاج وماج . . وقال إنها مخطوبة . .
- وإنها لو لم تكن مخطوبة ما قبل أن يعطيها له . . ثم صعد إليها . . وسوّ دعيشها .
- سوّ دعيشها هي ؟ وما ذنبها ؟
- لأنها قالت إنها ليست مخطوبة . . وأنه ليس هنا من يستطيع أن يخطبها برغم أنفها . . إنها حرّة تختار من تشاء .
- أهي قالت له هذا ؟
- أجل . . ومعها حق .
- ولكن أتعرف ابراهيم ؟ ! أرأته ؟ ! أيّينهما شيء ؟ !
- ربما . . من يدري ؟ . . أيّسلم الانسان . . وهبها
- قد أحبته . . أفد حرم الحب ؟ ! أليست بشرأ لها قلب ولها

شعور؟! أنقتلها من أجل ذلك!! أم نعتبره قضاء الله..
فيها.. وفينا.. وعلينا أن ندبر الأمر بالتى هى أحسن!
ومضت فقرة صمت سمعت صوت عبد الرحمن يقول
كأنما يحدث نفسه:

— إذ أهذه هى المسألة.. هذا هو سبب المرض..

عجيب!

ثم سمعت صوت أقدامه تقترب من الحجره ، ولكن
« سيدة » اعترضت طريقه قائلة :

— إلى أين؟!

— دعيني أحدثها .

— ماذا تريد أن تقول لها . اتركها وحدها أرجوك .

كفى ما فعله بها جدك .

— لا تخشى شيئاً.. إني أعرف كيف أحدثها .

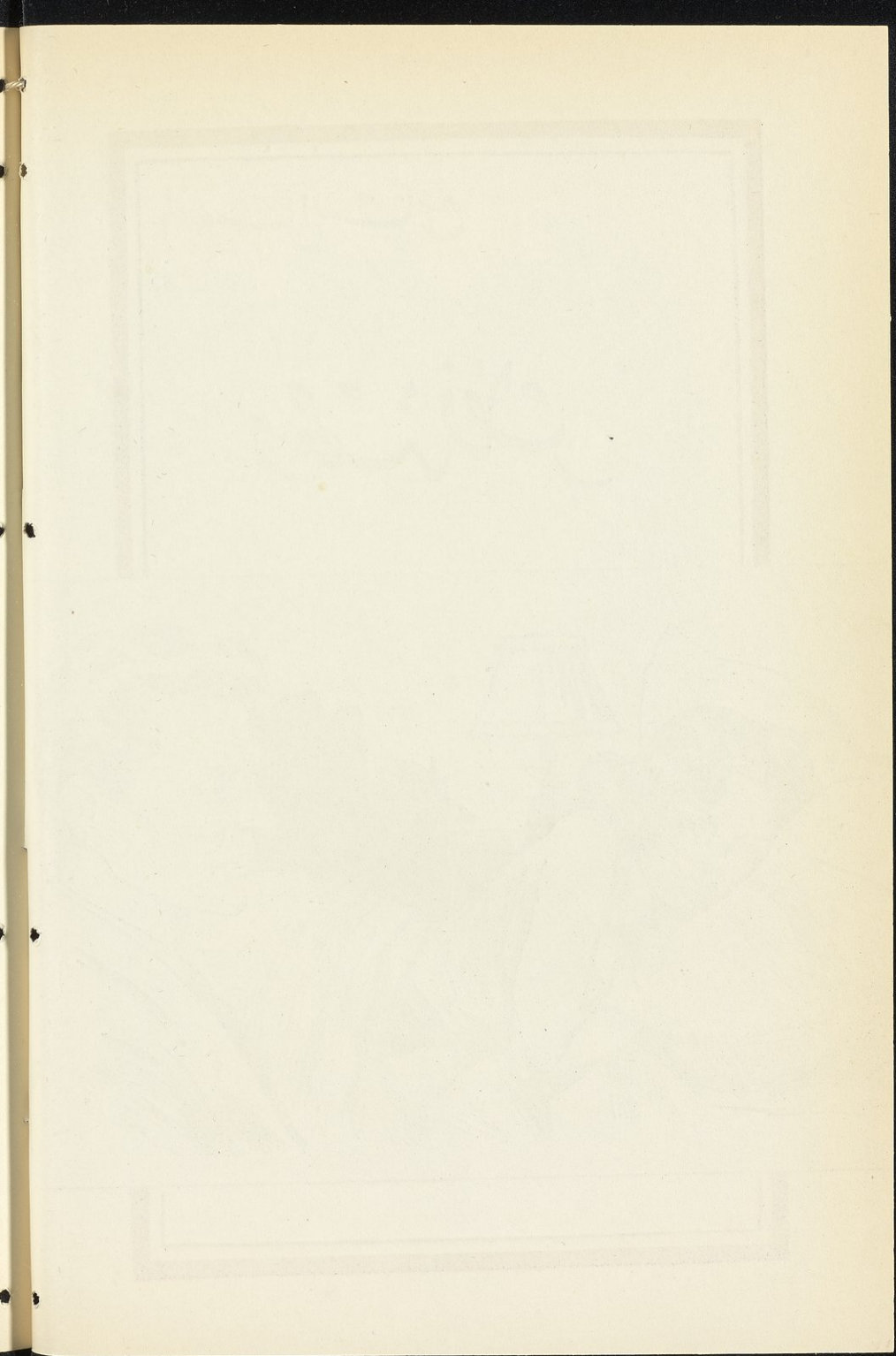
ثم سمعت صوت أقدامه تقترب من باب الحجره .



الفصل التاسع

ومحمد نظر





عبر عبد الرحمن الباب ووقف أمامي يتسم في رفق ..
ولم أزد على ابتسامته .. إذ لم أكن في حال يساعدني على
الابتسام .. وكنت أحس له شعوراً بالعداء .. رغم أنه
لم يشترك في المعركة .. إذ كنت أراه خصماً بحكم مركزه .
وجلس عبد الرحمن على حافة الفراش وأمسك يدي بين
يديه ولم يكن بي من القوة ما أحاول به نزعها .. فتركها في
موضعها وقال لي في صوت رقيق يناديني باسم التديل الذي
تعوّد أن يناديني به منذ الصغر :

— ماذا بك يا روجة؟ ! ماذا يضايقك؟

— لاشيء .

— بل بك شيء .. حدثني بصراحة ولا تخفي عني شيئاً
اعتبريني عبد الرحمن أخاك .. قولي ما بك؟

— قلت لك ليس بي شيء .. وأرجوك أن تدعني ..
فإني متعبة لا أستطيع الحديث .

— إذأ فلا تحدث ولاكن أنا أكثر صراحة .. أنت
تعلين ياراجية .. أننا نشأنا معاً كأخوين .. وأن لك في
نفسى موقع الأخت ، وأنى أكره كل ما يؤلمك أو يضايقك ،
وإذا كنت قد صمت عن حديث جدك في خطبتنا صمت

الموافقة . . فلم يكن صمتي هذا إلا لأن المسألة لاتعدو مجرد لغو لا يستحق الجدل . . لغو طبيعي يحدث في كل عائلة بها قريبان مثلك ومثلي ، ولست أعنى بذلك أنك لم تكوني في نظري أهلا لي ، بل إني أراك دائماً خير الفتيات وأصلح الزوجات . . ولكني لم أفكر قط في أن تكون المسألة قسراً ولا فرضاً . . كنت أعتقد دائماً أن الخطبة إذا تمت فلن تتم إلا برغبة مشتركة من كلينا ، وأن حرصك على إتمامها لن يقل عن حرصي . . ورضاءك عنها لن يقل عن رضائي . . أما أن تفرض عليك كما تقولين فرض الاستعباد وتقيدين بها قيد الأسر فهذا لم يخطر لي على بال قط ، فليس بي نحوك وله يعمى بصيرتي عن مصلحتك ولا حب يسمني بطابع الأنانية ، وكل ما أحسه لك إعجاب بخلقك وتقدير لك وأنت تعلمين أن طريقي في الحياة دائماً غير شاعرية أو هو جاء وأني لا أتصرف في أمر إلا بعد تفكير وروية . . وأنه إذا ما استعصى عليّ أمر . . ففي غيره بديل عنه . . وأن حكمتي في الحياة هي :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع
أقول لك هذا عن نفسي ، وأنا أكره الحديث عنها . .
حتى أطمئنك من ناحيتي . . وأعتذر عن كل ما حدث بما لم

يكن لي به دخل .. ولأؤكد لك أني سأفتح لك الباب على
مصراعيه وأفسح لك الطريق على سعته ، ولست أتخلى عنك
من باب التضحية وإنكار الذات .. بل لأنى أحبك حب
الأخت .. ولأنى لست أشعر بحاجة ملحة إلى الزواج ..
وعندما أشعر أعتقد أن الذى خلقك لم يعجز عن خلق
سواك ، أو كما قال المثل الإنجليزي « لم يزل فى البحر من
السماك أكثر مما خرج منه » .

اضحكى الآن .. وأربنى أسنانك الحلوة .. ودعى عنك
هذا التمارض أيتها الماكرة .

ووجدتني .. على غير ارادة منى .. قد ضحكت .
وعاد يقول مازحاً :

— أهكذا كنت عبئاً ثقيلاً عليك ؟ ! تخونك العشرة ..

واللعب الذى لعبناه معاً .

ولم أدر كيف أجيبه ، لقد فعل فى حديثه فعل السحر .
لم أكن أتوقع منه كل هذا .. لا لأنى أعرفه أنا نياً نهزأ
للفرص ، بل لأن الأحداث التى مرّت بي وحطمتنى لم تدع
لي بارقة أمل فى أحد وأضاعت ثقى بالجميع .

وبرغم أن حديثه أدهشنى ك مفاجأة لم أتوقعها .. أجده
— إذا حاولت استعادته لنفسى — لا يزيد على أنه خير معبر

عن نفسه تمام التعبير وأن ذلك هو خلقه وتلك هي طبيعته
وأن هذا هو التصرف الذى كان يتصرفه فى كل ما يصادفه
من شؤون الحياة .. وأنا ما تنازعنا فى صبابنا على شيء إلا تركه
لى بمنتهى السهولة والترحيب .

ونظرت إليه وقتذاك .. والدهشة ما زالت تعقد لسانى
وكأنى غير مصدقة ما قال .. وهتفت به :

— أتقول حقاً يا عبد الرحمن ؟

— ألا أقول حقاً !! هذه أعتبرها إهانة .. منذ متى

تعوّدت أن أكذب عليك ؟

— أنا متأسفة .. أنا أعرف أنك لا تكذب ، ولكن

مامرّ بى جعلنى محطمة الأعصاب .. لا أثق فى أحد ولا أصدق

أحداً .. اعذرنى يا عبد الرحمن .. لأنى كرهتك برغى ،

وبرغىك .. كرهتك لأن جدى حاول أن يصنع منك قيّداً

يأسرنى به .

واندفعت فى نوبة من البكاء .

وأخذ عبد الرحمن يربت ظهرى فى رفق محاولاً تهدئتى

وهو يقول :

— أو تعلين أنى أكون قيّداً .. ولك أنت ياراجية ؟

خفنى عنك .. ودعى البكاء جانباً .. انهضى من فراشك

واضحكى . ، وألق عنك الهم والتفكير .
وأخذت أضحك خلال العبرات التي لم تجف بعد . . . وقلت
لعبد الرحمن :

— كان يجب أن أثق بك أكثر من هذا . . . ولكني
كنت أخشى أن تكون مصراً على الخطبة وأن تكون في
صف جدك .

— من الآن . . . تأكدي أني في صفك .

— أجل ، ولكن . . . جدى ؟

وخيمت على وجهي سحابة حزن . . . وتساءل هو :

— ماله جدك ؟

— ماذا ستقول له ؟

— اتركه لي . ، أنا أعرف كيف أتفاهم معه .

— ولكن هبه لم يقتنع ؟

— يقتنع بماذا ؟ المسألة لا تحتاج إلى إقناع . . . سأقول

له في يسر إنى قد صرفت عن الخطبة نظراً . . . وأنى لا أريد
الزواج منك .

— أو تظن أنه سيقبل قولك بسهولة ؟

— بسهولة أو بصعوبة . . . ليس أمامه إلا قبوله .

— وهبه ثار . . . وغضب . . . وهددك بأقصى ما يمكن

أن يهدّد به ؟

— مثل ماذا ؟

— مثل .. مثل قطع علاقته بك والاستغناء عنك ،
وحرمانك إرثه ؟ !

وضحك عبد الرحمن .. ضحك بشدة لم أتوقعها ، كأنما
ألقيت إليه بنكتة مستملحة ثم قال بعد أن انتهى من ضحكته :
— الظاهر أنك حسنة النية .. ولكنك معذورة لأنك
خالية الذهن من كل شؤوننا .. ولست أظن أن هناك وقتاً
لكي أشرح لك كل شيء . ولكن لكي أثبت لك أنه لا يستطيع
قطع علاقته بي ولا الاستغناء عني .. أخبرك أني عندما
تسلت أعماله .. كانت ثروته كلها بما فيها الأراضى موشكة
أن تضيع ، وأنى فى بضعة الأعوام التى توليت إدارتها ..
زادت إلى ثلاثة أمثالها .. ولست أزعم أنى صاحب
معجزات .. ولكنى أوكد أنى فعلت له الكثير .. وأن
الحظ ساعدنى أكثر ، ومن هذا يتبين لك أنه لا يستطيع
بسهولة أن يستغنى عني .. أما مسألة حرمانى الإرث فأنا لم
أفكر فى إرثه قط .. ولا طمعت فى أمواله ولا أموال
غيره .. أنا أحب الكفاح والعمل ، وطلّبتى فى الحياة
هى أن أرقب ثمرة ما أكفح من أجله وأراه ينمو ، وأن

أمسكه بيدي وأبصره بعيني .. تلك هي أقصى بغيتي في الحياة ..
هي عندي كالموسيقى عندك .. أنا أكره اللقمة الجاهزة ..
التي لم أتعب في تحصيلها ، وإرث جـدك الذي سيورثني
ويورثك إياه من صنع يدي .. والذي قدّرني على عمله
يقدرني على عمل غيره ، وغيره .. لا تحبلى لى هما .. أنا
أعرف كيف أقنعه إذا احتاج الأمر إلى إقناع .

ونزل على حديثه برداً وسلاماً ، ولكن الذهن الذي
لا يهجع عاد يخلق المصاعب ويبرز العقبات ووجدتني أطرق
برأسي ثم أقول في صوت خافت ملؤه الحياء :

— ولكن .. هل تظنه يقبل الخطبة الثانية ؟

وأطرق عبد الرحمن برأسه وصمت ، وبدأت أحس
بالندم على قولي .. ماله هو ولهذا حتى أقحمه فيه؟! ألم يكفني
أن فكّ عنى القيد وأفسح الطريق؟ وهممت بالاعتذار ..
ولكنني وجدته يرفع رأسه ويقول متسائلاً :

— اسمعي ياراجية .. أتحيينه ؟

واندفع الدم إلى وجهي ، ولم أستطع أن أقول شيئاً .
ولكنني أوّمت برأسي إيّاءة خفيفة علامة الإيجاب .
وعاد يسأل :

— حب مستد رزين عميق .. غير طائش .. ولا مندفع ..

أعنى حباً يربط حياة اثنين وليس نزوة طارئة؟!
ومرة أخرى أشرت برأسى وعينى فى غطاء
الفراس .

واستمر هو فى أسئلته التى خلقتها لن تنتهى :

— وهو؟ أيجبك كما تحبينه؟

وهو؟ .. أستطيع أن أكرره مناجاته؟! أستطيع
أن أتلو عليه آياته التى أحفظها عن ظهر قلب؟! طبعاً لا .
إن كل ما استطعت أن أقوله هو :
— أظن ذلك .

— أعتقد أن سيكون لك زوجاً وفيماً .. وأنه
سيمنحك حياة طيبة؟

وكان يتحدث بلهجة متئدة .. كأنه أحد القسس الذين
يعقدون مواعيق الزواج كالذين رأيتهم فى « السينما » .

ومرة أخرى أوامأت له برأسى .. نعم .
واتتهى الاستجواب .. ونهض عبدالرحمن وهو يقول :
— سأبذل كل جهدى .. وربنا يسهل .

وربت يدي ثم أدار ظهره مغادراً الحجره .. وقبل أن
يبلغ الباب نظر إلى وقال مبتسماً :

— سأقوم بالمهمة بشرط .. .

— سل ماتريد؟

— أن تضحكى وتزيحى عنك ذلك العبء الذى
ترزحين تحته .

— لقد أزحته أنت .

— إذا فانهضى . ودعى عنك ذلك النوم الذى يمرض
السليم وسأذهب إلى جدك الساعة .

ونهضت من الفراش ، وقت لأغتسل وقد تبدد اليأس
من نفسى وحلّ مكانه أمل وليم .

ومرة أخرى جلست فى الحجرة على طرف الفراش
وحيدة أتمم بالفاتحة ، وبقية الآيات القرآنية التى أعرفها . .
وأدعو الله ألا يخذلنى هذه المرة .

ومضى الوقت وبدأت أرقب عقرب « المنبه » وأعد
دقاته وأخذ اليأس مرة ثانية يتسرّب إلى قلبى .

أجل . . لو أن عبد الرحمن قد أفلح فى سعيه . . لما غاب
عنى تلك المدة ولأقبل علىّ يبشرنى بالنتيجة .

أنا أعرف جدى وأعرف عناده . . لا بد أنه قد نهره
كما نهروا إبراهيم ورفض الاستماع إليه أو مناقشته .

ولكن لماذا لم يصعد عبد الرحمن ليبشئى بالنتيجة أياً كانت؟
لم يتركنى هكذا معلّمة بين اليأس والرجاء؟

أتراه قد خدعنى ؟ !

ولكن لا .. ليس هو الذى يفعل ذلك .. إنى أعتقد
أن جدى قد ثار عليه .

لعنة الله علىّ .. لقد ورطته كما ورطت إبراهيم .
أجل . أنا السبب فى كل هذا .. كان يجب ألا أستسلم
للأهل من أول الأمر .

وظفقت العبرات تسيل صامتة من مقلتى .
ودفنت رأسى فى الوسادة . . عندما أحسست فجأة
بالباب يدفع ، وبالوسادة ترفع من فوق رأسى . و « سيدة »
تنحنى علىّ وتضمنى إليها وتقبلنى وأنفاسها لاهثة متقطعة وهى
تقول كأن بها مسأ من جنون :

— مبروك ياست راجية .. انهضى .

ثم تركتنى فجأة .. ورفعت يدها الى السماء :

— إلهى يخليك ياسيدى عبد الرحمن .. إلهى يسعدك
ولا يريك سوءاً فى حياتك أبداً .

ولم أتركها تسترسل فى دعواتها .. فقد كنت أعتقد أن
باب السماء مفتوح فى أى وقت لتلقى الدعوات .. وأنه
لا ضير على « سيدة » ولا على « عبد الرحمن » .. إن هى أجلت

دعواتها فترة ، أما أنا فستصيني جنة لو لم تعجل لي بالشرح .
قلت لها في لهفة مجنونة :

— ماذا حدث يا سيدة ؟! أخبريني ! تكلمي !

— صبرك عليّ يا سيدتي حتى ألتقط أنفاسي .

ولكن قبل أن تلتقط أنفاسها كان عبد الرحمن قد أقبل في تودة ، وقد بدت علي وجهه علائم لست أدري كيف أصفها ولا إلى أي كفة أرجحها أهي فرح .. أم حزن ..
أم خليط من هذا وذاك غلب عليه شعوره بالانتصار وبأنه أسدى إلى إنسان جميلاً أزال به شقاه .

علي أي حال لقد أقبل عليّ فضمني إليه ولثم جيني وقال :

— الحمد لله أن وفقني إلى إسعادك .. كنت أودّك لي ،

ولكن لا بأس .. لقد حق عليّ المثل « تكون في بقك وتقسم لغيرك » .. ويدي ياراجية .. لا بيد عمرو .

ورفعت عينيّ إليه ، وخيل إليّ أني قد طعنته من حيث

لا أدري ، قد عميت إلا عن نفسي ، وقلت له :

— أضايقتك يا عبد الرحمن ؟

— لا تكوني مجنونة ، يكفيني هذه السعادة التي أنت

فيها ، ويكفيني أني خلصت عن نفسي قيدياً كنت أوشك أن

أضع يدي فيه .. أنا أحب الحرية وأحب العمل والكفاح .

ووقع بصره على النافذة المغلقة . . فمدّ يده وفتح
مزلاجها ودفعها دفعة فتحتها على مصراعيها وقال :
— اتهينا . . لا قيود بعد اليوم . . لقد فك الحصار .
وكنت في لهفة شديدة لأن أسمع من فمه التفاصيل
فقلت له :

— اجلس . . وقل لي كل ما حدث .

— كل ما حدث . . تستطيع قصه عليك هذه «الحيوانة»
التي كانت تسترق السمع من وراء الباب ، والتي لولا انهما كي
في الحديث . . وخشيتي من أن أضيع المسألة . . لقمتم
وحطمت رأسها . . قولي لها يا سيدة ما حدث . . أظنك
تعرفينه أكثر مني ؟ !

ورفعت سيدة يديها إلى أعلى وعادت تواصل دعواتها :
— إلهي يسعدك ياسيدي عبد الرحمن ، إلهي يخليك ،
وعاد عبد الرحمن يقول :

— أما أنا . . فأستأذن للذهاب إلى ابراهيم . . لكي
أعتذر له . وأدعوه لزيارة جدي ، يجب أن نظرق الحديد
وهو سخن ، قبل أن يعدل .

وغادر عبد الرحمن الحجرة ، وتركني وسيدة ، وأقبلت
على سيدة أجذبها من عنقها وأنا أضحك في شبه جنون :

- اجلسى هنا . . . قولى ما حدث . . . كلة . . . كلة .
- اصبرى علىّ يا سيدتى قليلا مالك تجذبنى هكذا؟!
لقد مزقت ثوبى . . . دعينى أصلحه أولا .
- تصلحينه؟ اجلسى أيتها البلهاء ، قولى ماذا حدث ؟
- حدث ياسيدتى . . . خير والصلاة على النبي ، دخل
سيدى عبد الرحمن على جدك وقد أمسك « بالروشته » فلم
يكسد جدك يراه حتى صاح به :

- ألم تذهب بعد لشراء الدواء؟!
— هناك بضع كلمات أود أن أسرك بها .
— بعد . . . بعد . . . الدواء أهم .
— بل ما سأقوله أهم كثيراً من الدواء .
— ليس هناك شئ أهم من الدواء . . . إني قلق جداً
على راجية .

- ولهذا أفضل أن أحدثك قبل أن أذهب لشراء
الدواء . . . إني أود أن أحدثك أيضاً بخصوص راجية .
— بخصوص راجية؟! ماذا تريد أن تقول؟!
— أريد أن أقول إني عدلت عن خطبتها .
وفغر جدك فاه ، وقفز من مقعده ، كمن لسعه عقرب ،

وصاح بعبد الرحمن :

— ماذا تقول؟ عدلت عن خطيبتها؟! أجننت؟

— جننت لماذا؟! أتعبر عدول الإنسان عن خطبة

لم تتم .. جنوناً؟

— لعلك أنت الآخر .. تحب؟!!

— لا .. أنا لا أحب .. ولا أريد أن أخطب .

ونظر إليه جدك في دهشة ، وبدا له أن عبد الرحمن

يهذى فقال له محاولاً إنهاء الحديث :

— اسمع يا عبد الرحمن .. ليس هذا وقته .. إن بي

ما يكفيني .. دع هذا الحديث الآن .. واذهب أولاً لشراء

الدواء .. وعند ما تشفى راجية .. يحلها ربنا .

— الدواء لن يشفى راجية .. نحن نعرف جيداً دواها ..

فلا داعي لأن تتغابي ، ونخفي رهوسنا في الرمال ، يجب أن

نواجه الحقائق .

— أية حقائق هذه التي تريد مواجهتها؟ لقد واجهتها

وحدى بطريقة حاسمة .

— وكانت النتيجة كما ترى .

— المسألة تحتاج إلى قوة وعزيمة .. اذهب أنت

لشراء الدواء .. ودع لي الأمور أدبرها كما أرى .. غداً

ستسقى وتعقل . . . ويتم كل شيء على مايرام .

— أنا واثق أن الدواء لن يفعل بها شيئاً . . . ثم أى شيء هذا الذى تظنه سيتم على مايرام؟! هل تتخيل أنى أقبل أن أفرض نفسى عليها فرضاً؟

— من قال أنك ستفرض عليها نفسك!! إن ما بها نزوة طارئة سرعان ما تزول؟

— طارئة أو غير طارئة . . . إنى لا أريد الخطبة ولا هى تريدها .

— أتما ما زلتما أولاداً صغاراً . . . لا تعرفان مصلحتكما إنى أعرف مصلحتكما خيراً منكما . . . وإن لى وجهة نظر فى المسألة . . . سأعرف كيف أسويها .

— هذا هو الخطأ . . . يجب أن تسوى الأمور من وجهة نظرنا نحن لا أنت . . . إن كل إنسان له وجهة نظره فى الحياة . . . بل إن الإنسان الواحد تختلف وجهة نظره فى مختلف أطوار حياته ، ولكن شر ما فى الأمر أنه يأبى على غيره أن ينظر إلى الحياة إلا من وجهة نظره الخاصة . . . حقيقة أنت الآن محنك مجرب . . . وحقيقة أنك تنظر إلى الحياة نظرة اتزان وجد وحكمة وروية وتزن كل أمورهما بميزان العقل والمصلحة . . .

فأنت تذكره لعب الصغار وتسخر من نزق الشباب وحرارة
مشاعره ، وتنسى أنك في وقت ما كنت طفلاً وأن دنياك
كانت دنيا لهُ ولعب وأنت كنت شاباً .. وكان النزق هو
الأصل في الحياة وكانت الحكمة سخافة وغباوة .. والروية
جموداً والعقل غباوة ، وأنت كنت ترى الحياة الحب والحب
الحياة .. إنك تنسى كل هذا وتأبى إلا أن ينظر الناس على
مختلف أعمارهم إلى الأمور نفس نظرتك . فإن لم يتصرفوا
التصرف الذى يتفق مع وجهة نظرك .. كانوا حقيقى مجانين ..
وكانت كل أفعالهم خرق وطيش وجنون .. لا .. لا ..
دع كل امرىء يدبر أمره من وجهة نظره هو .. إنه أدرى
بمطالبه ومشاعره .. وهو مسئول عن حياته .. وعن نتائج
أعماله ؛ وإذا كان لا بد لك من أن تدبر أمره فافهم نفسيته
وقدر مشاعره وليكن تديرك ما أمكن من جهة نظره
وبطريقة تفكيره .

— ما شاء الله .. أنت تحاول أن تعطينى درساً؟!

— ليس هذا درساً .. ولكنه رجاء .. رجاء بأن تغير

طريقتك التى توشك بها أن تدمر حياة أعز الناس لديك ..
ألست تحب راجية؟

— أحبها أكثر من أى شئ فى هذه الحياة .. أكثر

منك ومن نفسي ، ولهذا أضن بعمرها أن يذهب هباء
وأكره أن تتنكب الطريق سوى .

— ليس هناك طريق سوى وغير سوى .. إن
استواءها نسبي .. يختلف باختلاف النظر والتفكير .. فما
تراه أنت سوياً يراه المائل عنك غير سوى .. وما يراه
هو سوياً تراه أنت غير سوى .. وليس هناك مقياس
للاستواء ثابت في حياتنا يمكن أن يقاس إليه فأى طريق مستقيم
يميل إذا ما ملت عنه ويستقيم إذا سرت فيه .. ماذا تنكره على
راجية ؟ ! أتتكر عليها أنها أحبت ؟ !

— أتجروء أنت على أن تقولها بمثل هذه السهولة ؟

— ولم لا ؟ ! إذا كنت تنكر عليها مجرد الحب في حد
ذاته ، فهذا محض خطأ .. وهذا ما لا يقرك عليه إنسان ..
فالطبيعي أن يحب المرء وغير الطبيعي ألا يحب .. وإذا كنت
أنت أو أنا لم نحب .. فقد تكون طبيعة مشاعرنا جامدة ..
أو قد يكون العمل استنفد كل إحساسنا .. فلم يبق منه شيء
لنوجهه إلى الحب أو قد تكون الظروف أبت علينا الحب ..
ولكن ليس هذا معناه .. أن نحرم على غيرنا الحب .. أما إذا
كنت تنكر عليها أنها أحبت هذا الشخص بالذات .. فهذا
هو العجب العجيب .. لأنه ليس مفروضاً عليها أن تحب

من تريد أنت أن تحب . . بل ليس المفروض أن تحب من
تريدهي أن تحب . . لأن الحب . . كما لا شك تسمع . .
إذا كنت لم تجرب . . شئ يفعله الإنسان بلا إرادة منه . .
بل أغلب ظني أنه يصاب به كما أصاب أنا وأنت بالأنفلونزا
أو الصداع .

— ما شاء الله . . لم أكن أعرف أنك أصبحت فيلسوفاً
أو محامياً .

— ليست هذه فلسفة أو دفاعاً . . إنها مجرد توضيح
لحقائق أود ألا تخفي عنك . . وأنت تقرر مصير أعز الناس
لديك حتى لا تظلمها وتفسد مستقبلها .

— إني أظلمها وأفسد مستقبلها إذا زوّجتها من هذا

« المزيكاتي » . . ماذا تظنه يكون أكثر من هذا ؟!

— أنا لا أناقش في أنه « مزيكاتي » ، أو « قرداتي » .
المهم كيف تراه هي . . هي التي ستشاركه حياته . . بعد بضعة
أعوام - أمد الله لنا في عمرك وأطال في حياتك - ستذهب
أنت وتتركها تتحمل وحدها نتيجة اختيارها . . إنها هي
التي ستجني الثمرة . . وهي وحدها التي عليها أن تنتخب
البذرة .

— وهذا ما يجعلني أصر على رأيي . . إني أحب أن

أضن لها حياة سعيدة بعد أن أتركها وحدها، وأنا أبعد
منها نظراً .. وأسلم تفكيراً .

— إذا فلتسد إليها النصح ، وتوضح لها الرأى .. وتنبئها
أية كفة ترجح ثم تترك لها حرية الاختيار .. فإذا أخذت
بنصيحتك كان بها ، وإن لم تأخذ فقد أدبت واجبك وأرحت
ضميرك .. أما أن تفرض عليها رأيك بمثل هذه القسوة
وتكرهها عليه إكراهاً .. فهذا ما يسمونه الاستعباد ..
ونتيجته كما ترى .. إذا كنت تنوى أن تقتلها .. فاستمر في
طريقتك .. وتفضل .. إليك « الروشته » .. هات لها الدواء
عسى أن ينفعها .. أما أنا فقد أدبت واجبي ونفصت يدي
من الأمر كله .

وترك عبد الرحمن « الروشته » على المنضدة واتجه إلى
الباب يهيم بالخروج .. ولكن جدك قفز من مقعده وصاح به:
— تعال .. اجلس .

وتراجع عبد الرحمن وعاد إلى مقعده .
وأطرق جدك برأسه برهة ثم زفر زفرة حارة ورفع
وجهاً بدا عليه الانهيار والاستسلام ، وقال في صوت خافت:
— أتظن يا عبد الرحمن أنى راضى عن حال راجية !!
إنها تمزق قلبي .. ألا تعرف قيمتها في نفسى .. كنت أود أن

يحقق الله أمني . . وأراها عروساً لك . . ولكن ما حيلتي
إذا كنا نقدر ، فتضحك منا الأقدار . لقد ظننت أني أستطيع
نزع ما برأسها بالقسوة . . فقسوت عليها وقلبي موجه . .
وظننت الغمة ستنقشع بعد بضعة أيام . . وقلت لنفسى
إن مستقبلها يستحق أن تتحمل هي وأتحمل أنا معها بعض
الألم . . وكنت أتوقع منك العون والمساعدة . . ولكنى
وجدتك عوناً لها على ، وأنا أعرفها عنيدة مكابرة ، ولكنى
لم أنصوّر أن العناد يبلغ بها الحد الذى يجعلها لا تأكل أو تنام .
— ليست المسألة عناداً . . إن أعصابها منهارة .

— لتكن ما تكون . . ماذا تريد منى الآن ؟ لقد
أصبحت أنا المخطيء وأتما صائبان . . إنى تارك لك الأمر
لتتصرف كما تشاء . . كل ما أرجوه منك أن تسرع بإحضار
الدواء . . لأنى لا أطيق أن أراها كما رأيتها اليوم .

وأسرع عبد الرحمن فمزق « الروشته » شرمزق وقال له :
— هذه هى « الروشته » . . قد انتهى أمرها حتى
تريح نفسك منها . . إنى كفيل بشفاؤها . . دع الأمر لى . .
سأذهب الآن إلى إبراهيم لأعتذر إليه وأدعوه إلى مقابلتك
الليلة .

وهزّ جديك رأسه وأجاب :

— افعل ماتراه .

واندفعت إليك .. وأنا أكاد أجن .

وصمتت سيدة .. وصمت أنا .. وأحسست بكثير من
الندم على ذلك الشعور البغيض الذي كنت أحسه لجدى ..
ما كان يجب عليّ أن أبغضه ذلك البغض .. وأن أندفع أمامه
ذلك الاندفاع الأحمق الذي اندفعته بعد أن أضاع رفضه
صوابي .

كان يجب أن أعرف أن كل ما بيننا هو اختلاف في
وجهات النظر .. إن غرضنا واحد .. ولكن الوسائل
اختلفت .. كلانا يبغي سعادتي .. ولكن رأيتها في ابراهيم
ورآها في عبد الرحمن .

كان يجب ألا أعتبره خصما لي يبغي القضاء على مستقبل
وأى مصلحة له في هذا ؟

ولكن أنى لي أن أفكر هذا التفكير وقتذاك !!

لو استطعنا أن نسيطر على مشاعرنا وكبحنا جماح غضبنا
لأمكننا أن نحصل على أفضل مما نحصل عليه إذا أطاش
الغضب صوابنا .

أم ترى أن المسألة ما كانت تتم .. لو لم أندفع لخوض
المعركة .. بمثل هذه النورة .. وأنى ما كنت أحصل على

ما حصلت عليه إلا بالكفاح والنضال والآلام؟!

الله وحده أعلم؟

كل ما يهمني الآن .. هو أن أملى قد تحقق .. وأوهامى
قد باتت ملء يدي .. وأنى وإبراهيم .. قد انتصرنا في
معركة حياتنا المشتركة .. ومصيرنا المرتقب .

ووجدتني أذكر الله ، وأقول من كل قلبي « الحمد لله » .

وكما صاحبتني الدموع في أحزاني .. وجدتها تهبط مناسبة

من عيني .. لتصاحبني في فرحتي .

ووددت لو أقفز من النافذة وأعدو إلى إبراهيم فأضمه

بين ذراعي وأضع رأسي في صدره .. وأنبئه أن كرامته قد

ردت ، وأن جدتي سيعتذر له .. ويقول له إنه يشرفه أن

يزوجني إياه ...

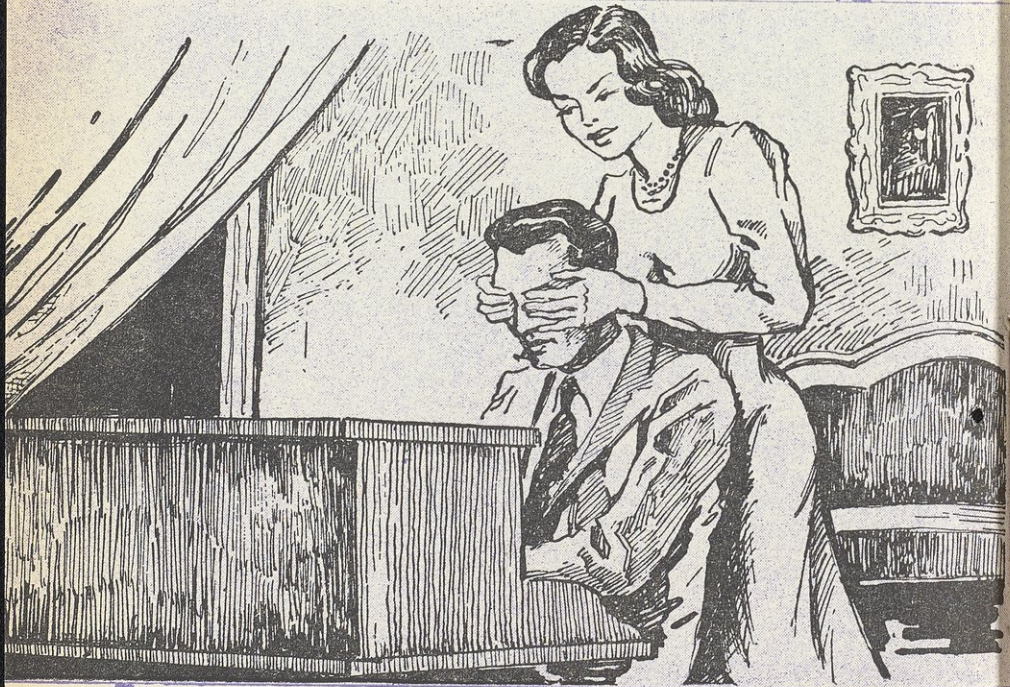
أجل .. لقد كان أكثر ما يسبب سعادتي .. هو

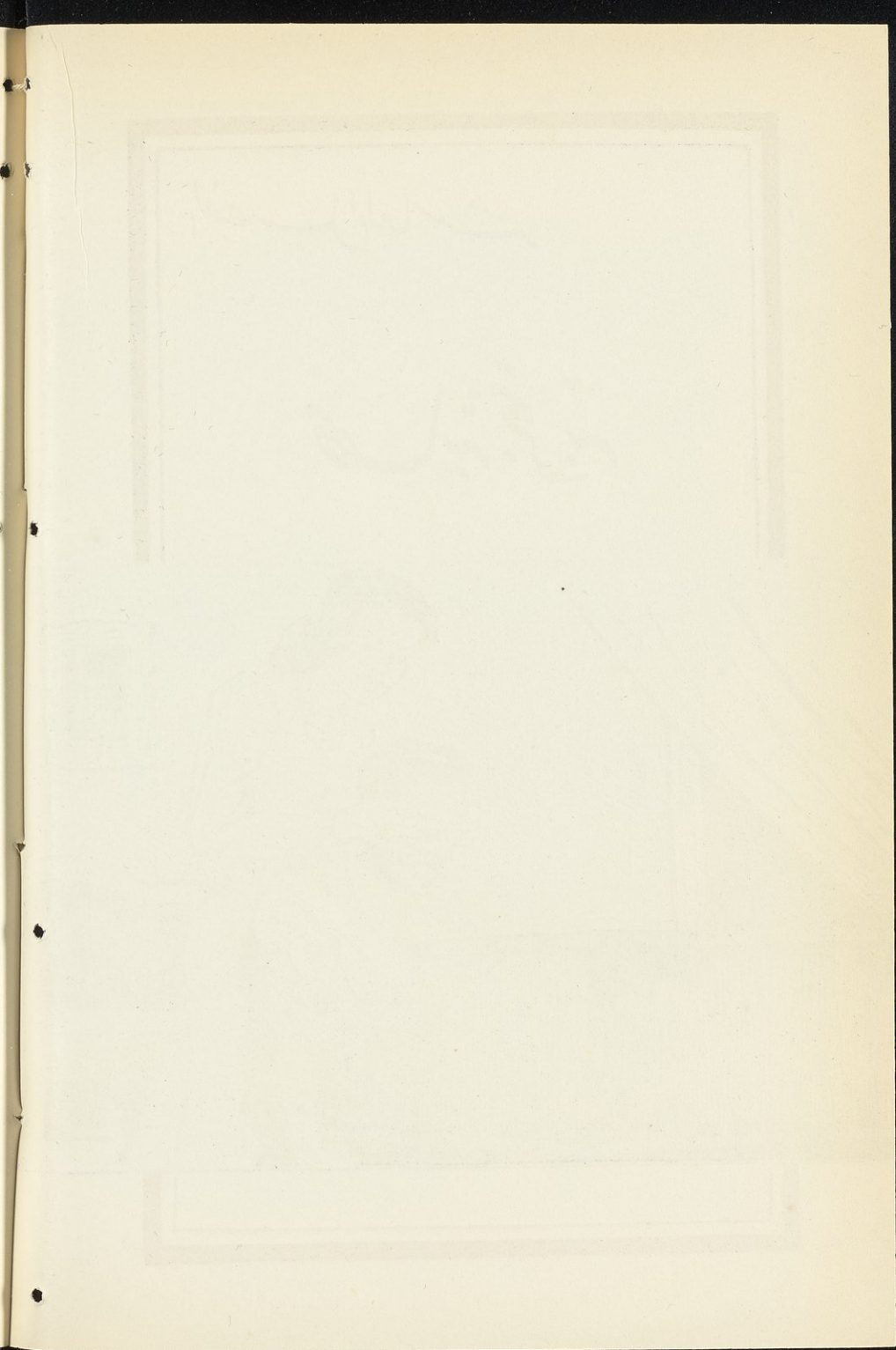
إحساسى بأنى لم أخذل إبراهيم .



الفصل العاشر

خاتمة تجرّيه





وهكذا تبددت بخاة غيوم اليأس المعتمة التي كانت تملأ
سماء حياتي .. وإذا جلا ميد الصخر التي كانت تحول بيني
وبين إبراهيم .. أو على الأصح .. بيني وبين الحياة .. والتي
كنت أراها توشك أن تنقض عليّ فتتركني حطاماً .. قد
تفتتت وذابت .. وأضحى الطريق إلى أمنيّة النفس سهلاً
معبداً .

ورحت من فرحتي أشبه بالسكرى أو المأخوذة لا أكاد
أعي ما حدث في بضع الساعات التالية .. كل ما أحسسته
وأنا قابعة في غرفتي أن في الدار حركة غير طبيعية ، وأن
أقداماً تروح ، وأقداماً تغدو .. وعلمت من سيدة أن
عبد الرحمن زار إبراهيم .. وأن إبراهيم أتى لزيارة جدي ..
وأنهما تفاهما بسرعة عجيبة .. وأن جدي كان رقيقاً معه ..
واتفقا على إعداد « دبل » الخطبة لكي نلبسها في أقرب وقت .
وانتهت المسألة في يسر وسهولة .. وكان الإعياء قد بلغ
منى أفصاه ، فلقد أنهكتني الانفعالات الشديدة التي مرّت بي
ولم أعد أملك إلا الرقاد والاستغراق في سبات عميق .

وفي اليوم التالي تمت الخطبة .. ولست أظن شرح
سعادتي بالأمر السهل .. لقد كنت في كثير من الأحيان

عند ما أخلو لنفسي ، وأذكر كيف كنت أعتبر سعادتي في
سماع إبراهيم مع ألوف الناس . . ثم كيف أصبحت أشعر
بعد ذلك أن السعادة قد فاضت بي وأغرقتني عند ما كان
يعزف لي .

كنت عندما أذكر هذا لا أكاد أصدق أنه قد بات
ملكاً لي . . وأن من حق أن أجلس معه . . وأحدثه . .
وأناجيه ويناجيني . . وصار هذا حقاً مقررأ من الناس
والتقاليد . . لا حقاً مختلساً أو مسلوباً .

كانت سعادتي تفوق الوصف . . ولم يكن يخيفني إلا
تخيلى في بعض الأحيان أنى أمر بحلم . . نهايته اليقظة .
واستيقظت أول فجر بعد الخطبة على صوت أنغام يحملها
النسيم من دار إبراهيم ، وتذكرت أول مرة ذهبت إليه عبر
السور . . وأحسست برغبة جارفة تدفعني إلى أن أكرر
ما فعلت .

وغادرت الحجرة هابطة إلى الحديقة . . وصعدت إلى
السور وقفزت منه إلى الأرض . . وبنفسي إحساس بمتعة
عجيبة . . متعة السارق . . الذى يعرف أنه لا سلطان لأحد
عليه . . أو متعة الذى يأتي ما كان محرماً عليه . . لى يشبع
فى نفسه رغبة الاستهتار .

وأخذت أتسلل إلى الشرفة على أطراف أصابعي ..
ولم يكن في هذه المرة صوت المسجل هو الذي يعلو .. بل
كان هو نفسه جالساً أمام « البيانو » واستمرت في
الاقتراب حتى وقفت ورائه .. ثم مددت يدي ووضعتها
على عينيه .

وسمعته يهتف في صيحة جذل ودهشة :

— راجية؟! !!

— كيف عرفتني؟

— من مسة يدك .. وهبته عطرك .. إني أعرفك
لو مررت بي من بعد ميل .. أعرفك من نسמתك كما قال
الشريف الرضي :

هبّت لنا من رياح الغور رائحة

بعد الرقاد عرفناها برياك

— أنا لا أفهم الشعر .

— وأنا أحب ترديده والترنم به .. إنه أقرب الكلام

إلى الموسيقى .. تعالى .

ثم جرّني من يدي إلى حجرة مجاورة فرأيت رفأ صفت
عليه الكتب . وأردف قائلاً وهو يشير إلى بعض الكتب :
— هذه كلها دواوين شعر .. أُلجأ إليها وقت الراحة .

— والباقي؟

— في الأدب والموسيقى .. وهناك كتاب في علم

الأرواح، وآخر في علم النفس.

— لم أكن أظن أن لديك وقتاً للقراءة.

— إني أحب القراءة .. وأخلق لها الوقت.

— وأنا أيضاً أحبها .. ولديّ مكتبة سأريكمها عندما

تأتي إليّ .. ولكن معظمها روايات وأقاصيص .. إني
لا أطيق الشعر.

— أنا أيضاً لديّ بعض القصص سأعيرها لك .. إن

كنت لم تقرئها.

— ولكن كيف تجد وقتاً للقراءة وللتلحين؟

— كل شيء مستطاع مادمت في حالة نفسية طيبة.

— وإذا لم تكن؟

— أبارك الله .. لقد مضى عليّ بضعة أيام عقب أن

خذلني جدك، كنت لا أكاد أفعل شيئاً .. سوى الحلقمة

والشروود .. ويخيل إليّ أنه لو طال بي الوقت أكثر من

هذا .. لفقدت عقلي.

— وبعد ذلك؟

— في أول ليلة .. لم أفعل شيئاً من فرط الفرحة

والطرب . . . وبعد ذلك فعلت في يومين . . . ما لم أستطع عمله
في شهر بأكمله .

— أحقاً وضعت ألحاناً جديدة؟

وكنا قد عدنا إلى حجرة « البيانو » وقد تشابكت أصابعنا
وجلسنا على الأريكة متجاورين . . . وأجابني قائلاً :

— وضعت ما أعتقد أنه أجمل ألحان . أتريدن سماعه ؟
وكنت أحس بمتعة من الجلوس بجواره تكاد تغلب
متعتي من سماع ألحانه ، وقلت محاولة أن أستبقيه إلى جوارى :
— أنا لا أريد أن أتعبك .

— لن أتعب في شيء . . . سأسمعه لك بواسطة المسجل .
وبدأنا نستمع إلى المسجل وقد أسندت رأسي إلى كتفه
وتركته يعبث — كعادته — بخصلة شعري .

ولم يكلم ينهي اللحن حتى سمعت في المسجل صوتاً يقول :
— راجية ؟

وآخر يسأل :

— وكيف عرفتني ؟

واستغرقتنا في الضحك فقد ميزنا في الحديث صوتي
وصوته وأدركت أن الجهاز لم يكن قد أوقف عند ما
دخلت عليه .

وقلت في جذل :

— هذا الجهاز لطيف جداً .. إن الإنسان يستطيع أن
يسجل عليه أجمال ما قيل له .. كي يستعيده إذا ما أحس
بالحاجة إليه .

— إذا سأعطيك إياه .. برغم ثقتي بأنك لن تحتاجي
إليه .. لأن أجمال ما قيل لك .. سيقال لك دائماً .. بل
سيقال لك خيراً منه .

وأحني رأسه علىّ ، ثم وضع أنفه في خصلة شعري
وهمس قائلاً :

— أحب رائحة شعرك .

وانزلت شفتيه ببطء على أنفي واستقرت برهة على
طاقتيه ثم هبطت إلى شفتي .

ووجدتني أستنشق أنفاسه في شهيق طويل وأهمس به :
— وأنا أحب رائحة أنفاسك .

* * *

وعدت إلى البيت من السور .. وتسللت إلى حجرتي
وسرعان ما رقدت في الفراش وبعد لحظات كان « مدبولي »
يدق الجرس حاملاً جهاز التسجيل ومعه بعض التسجيلات .
وأقبلت « سيدة » تحمل الجهاز وتضعه على المنضدة

في غرفتي .. قائلة :

— سيدي ابراهيم أرسل هذا مع الخبول الذي يدعى مدبولي
ولما لم تجد مني بواذر دهش ولا سؤال عما يكون هذا
الصندوق الذي حملته إليّ في الصباح المبكر تساءلت قائلة :

— أتعرفين ما هذا ؟ .

— أجل .. أعرف .

— كيف ؟

وضحكت قائلة وأنا أنهض وقد رفعت عنى الغطاء ووقفت

أمامها « بالجيب والبلوزة » .

— انظري !!

وضربت سيده على صدرها وقالت :

— بسم الله الرحمن الرحيم .. أكنت نائمة بملابسك ؟

— لقد كنت أحلم أني أتززه في الخارج .. وعندما

فتحت عيني وجدت نفسي بملابسي هذه .

— يا نصابة .. يا كذابة .. أين كنت ؟

— كنت عند ابراهيم .. قفزت السور كالمرة السابقة .

— يافتاح يا عليم .. هكذا على الصبح .. إنك جنسك

إيه .. شيطانة ؟ .. وما هذا الصندوق ؟ ! . ماذا به ؟

— أتريدين أن تعرفي ماذا به ؟

— أجل .

— أديرى وجهك إلى الناحية الأخرى .

وأدارت « سيدة » وجهها وهي تمصص بشفتيها وتقول :
« حكم » .

وبدأت أدير الجهاز للتسجيل كما علمني إبراهيم .. ثم
صحت بسيدة :

— هل تستطيعين الغناء ؟

— طبعاً أستطيع .. إن صوتي يفوق منيرة المهديّة
في زمانها .

— إذأ غنى .

— ليس هذا وقته .

— قلت لك غنى .

— لا أستطيع الغناء هكذا « حاف » بلا تحت .

— غنى ولا تضيعي الوقت .

وبدأت سيدة تغنى أحد المواويل .. وأخيراً صحت بها :

— كفى .. أديرى ظهرك واسمعي .

ثم بدأت أدير الجهاز للإذاعة .. ووقفت سيدة
جاحظة العينين ، فاجرة الفم .. وهي تسمع الحوار الذي
دار بيننا ، ثم تسمع صوتها يغنى .. وأخيراً قالت متسائلة :

— ما هذا؟ .. كأن بجوفه عفريتاً .
 وبعد الظهر دعونا إبراهيم لتناول الشاي .. وعقب
 الشاي سحبتة من يده وقلت له ضاحكة :
 — تعال .. سأريك مفاجأة .
 واتجهت به إلى حجرتي .. وقبل أن يمتاز الباب قلت له :
 — أغمض عينيك .
 ووقف إبراهيم بباب الحجره مغمض العينين وهو يقول :
 — أتتوین أن تسحبيني إلى السور كما فعلت بمدبولي ؟
 — لا .. انتظر لحظة واحدة .. والآن افتح عينيك .
 وكنت قد أخرجت الصورة التي رسمتها له والتي أخفيها
 خلال « الأزمة » في أسفل الدولاب .
 وبدت عليه الدهشة والإعجاب وهتف :
 — مدهشة .. أحقاً رسمتها من الذاكرة ؟
 — طبعاً .. ألا تشبهك تماماً ؟
 — إنها تشبهني حقاً .. ولكن لا أظن الأصل وجيهاً ..
 كالصورة .. أتظنني وجيهاً بهذا الشكل ؟
 — على أية حال .. لقد رسمتها من الأصل المقيم في
 ذهني .. وسواء أكنت هكذا أم لم تكن .. يكفي إني
 أراك هكذا .

— وإلى متى سأستمر في ذهنك هكذا؟ متى «أبهت»؟

— لا أظنك «تبهت» أبداً. إنك منقوش في الذهن ..

محفور في القلب .. ليس لك زوال ولا نهاية .. رسمك في
نفسى أشبه بنقوش الفراغنة .

وقبل أن يجيب أشرت إليه بأصبعي :

— انتظر هناك مفاجأة ثانية .. اغمض عينيك .

وأغمض عينيه فقلبت الصورة وقلت له :

— افتح .

ولم يكذب يفتح عينيه حتى صاح مقهقهاً وهتف :

— يا مدبولى الكلب .. والله هو بعينه وغباوته وبلبه ..

خسارة فيه الرسم .. والألوان .. والجهد .

— لقد رسمته للتمويه أولاً .. حتى إذا دخل على

أحد قلبت الصورة .. ولتسلية سيدة ثانياً .. فهى تمرن

لسانها في الصورة على السباب .. على أية حال لقد حكم على

الصورة بالسجن في الدولاب في فترة مرضى ولم يفرج عنها

إلا بعد انفراج الأزمة .

— لقد كنت أنا أيضاً أشعر أنى في سجن ، بل أكثر

من هذا .. كنت كالمحكوم عليه بالإعدام .

— أرجوك لا تذكرنى بتلك الأيام .. إنى لم أر

ألعن منها .. لقد كنت في حالة .. أشبه بالموتى .. هيا بنا
أريك الحجرة .

ثم أمسكته من يده وأخذت أعرض عليه محتوياتها قائلة :
— هذه هي المكتبة التي حدثتك عنها .. كلها قصص .
وهذا هو « ألبوم » الصور .. تفرّج عليه على مهل .. وهذا
هو « الأوتوجراف » الذي لم تتكرّم بإمضائه حتى الآن .
— سأمضى في قلبك .. وليس في الأوتوجراف .
— لقد أمضيت من زمن طويل .

ثم استمررت أعرض عليه بقية المحتويات قائلة :
— وهذا هو دولاب الرسم والأشغال .
ثم مددت يدي إلى الرف العلوى وجذبت « كان » مخبأة
فوقه وقلت :

— وهذه أعزّ ما أمالك .. إنها « كان » كان يعزف عليها
أبي .. وقد احتفظت بها لنفسى بعد وفاته .
— أكان أبوك يجيد العزف ؟
— يقولون هذا .. أنا شخصياً لم أسمعه .
— إذأ فقد ورثت عنه الميل إلى الموسيقى .. إنها ليست
بدخيلة عليك ؟

— إن سيدة تقول إنه كان يهوى الموسيقى والغناء . إنها

لم تر أرق ولا أطيّب ولا أطف منه .

ثم مددت يدي إليه « بالكان » وأردفت قائلة :
— إنها خير مالمديّ لأهديه لك ، فخذها إذا كنت تجدها
تستحق .

وتناول « الكان » وهو يقول :
— متشكر جداً ياراجية . . لا أدري كيف أشكرك .
— أنا أعرف أنها ليست قدر المقام ولكنك لا تتصور
قيمتها عندي . . إني أقدم أعزّ ما أملك ، لأعز الناس علىّ .
وبدأ إبراهيم يجرى القوس على أوتارها ويربط مفاتيحها
وهو يقول :

— إنها « كان أصيلة » . . إنها في حالة جيدة جداً . .
إني لن أعزف بعد الآن إلا عليها .
وسرّني حسن قبوله لهديتي . . ورضاؤه عنها ، وعدت
أعرض عليه بقية ممتلكاتي . . قائلة :
— وهذه أول هدية منك لي .

ومدّت يدي في أحد الأدرج وأخرجت منديلاً .
وهتف هو في دهشة :

— هدية مني أنا ؟

— ألا تذكر . . المنديل الذي ربطت به قدمي !!

— أزالتي تحتفظين به حتى الآن؟! لو علمت هذا..
لربطتها بشئٍ أئمن.. أو لوضعت في قدمك خلخالاً
من الذهب.

— إنه عندي أئمن من ذهب العالم كله.. إنه تذكار
لأول رؤيتي لك وحدثني معك. إنه يحمل إليّ أعز الذكريات.
وخرجت به إلى الشرفة وبدأ أماننا منظر السور،
والأشجار المتكاثفة ومن خلال فروعها بدت شرفته.

وعندما وجدت نفسي أفق في شرفتي بجواره أحسست
أن الله قد منحني شيئاً كثيراً، ووجدتني أتهد تنهد الاستقرار
والحمد والشكر.. ودعاء الله أن يديم عليّ فضله ونعمته.
وقلت لإبراهيم في صوت خفيض وقد رق مني الحس
وأرهب الشعور:

— هذه هي الشرفة التي سمعتك فيها أول مرة.. كنت
أجلس هنا على هذا المقعد.. وقد شرد مني الذهن..
وسبحت ببصرى بين النجوم.. ورحت أمسح وجهي في
السحب الهشة المتناثرة.. عند ما حمل إليّ النسيم لحناً عجيباً،
سرى هادئاً كأنه حفيف الشجر.. كانت لحظة خالدة لن
أنساها مدى الدهر.. لأنها بداية حياتي.. كنت من قبل
أحس أني ضالة تائهة.. لأعرف لم وجدت في هذه الدنيا

ولا ماذا أريد منها .. ولكنى شعرت بعد ذلك .. أنى لم
أعد ضالة ولا تائهة وأن الدنيا بها ما يستحق الحياة ، وأن هناك
أملاً أعيش لأبلغه .. وأمنية أحيا لأدركها .. واخترت
الشرفة بعد ذلك معبداً .. ألجأ إليه لأملاً بالإيمان نفسى ..
وأصبحت إذا ما جلست على هذا المقعد أحس براحة عجيبة ،
حتى تعودت ألا أسمعك إلا وأنا مضطجعة عليه ، شاردة
ببصرى فى السماء .

وكنت أفق إلى جانبه وقد وضع يده على رأسى وأخذ
يتحسس شعرى ونظر إلى عيني مبتسماً وقال :

— إذا فأنت لا تستطيعين سماعى إلا فى شرفتك وعلى
مقعدك ؟

— أجل .. هكذا تعودت .

— إذا فليس لى أى فضل فى إطرابك .. الفضل كله
للشرفة وللمقعد .. على أى حال .. أنا على استعداد لأن
أعزف لك لحناً جديداً .. مادامت الشرفة قائمة والمقعد
موجوداً .

— والى مكان جاهزة ؟ !

— أجل .. لا ينقصنا شئ .. سوى أن تضطجعى على
المقعد وتنظرى إلى السماء .

وأمسك « بالمكان » يصلح أوتارها .. ثم قال لي :

— ها .. إني جاهز .. أجاهزة أنت ؟

وكنت قد جلست على المقعد ولكنني قفرت فجأة قائلة :

— انتظر .. كدت أنسى شيئاً هاماً .

وعدوت إلى جهاز التسجيل فأعددتته ثم عدت إليه قائلة :

— تصور .. كدت أنسى أن أسجله .. وكاد تعبك

يذهب هباء .. سأحتفظ بهذا التسجيل .. حتى أسمعه إذا

ما غبت عني .

وبدأ إبراهيم العزف ، وجلست في مقعدي .. وأغضت

عينيّ ورحت في نشوة .

وحملتني الألمان بعيداً إلى السماء وكأني أطوف بالفردوس

وصمت الصوت .. وأنا ما زلت محلقة في عليائي ، مغمضة

العينين شاردة الذهن .

وأحسست بأنفاس حارة تلمح وجهي وشعرت بشفتين

تسان شعري ثم تطوفان بخفة في وجهي ماسة جيبني وعيني

وأنتي وخدي وعنقي وذقني ، وأحسست بالرحلة قد طالت

وشفتي قد زاد بهما الظماً .. ولم يستطيعا الانتظار حتى تصل

إليهما الشفتان الأخرى .. فتعجلت اللقاء .. واختصرت

الطريق ووثبت إليهما .. واستقرت شفتاي عليهما في ظمأ

ونهم . ومددت ذراعى فضممته إلى .
وبدألى كأتى ما زلت أهيى فى شرودى . . وأن ما أفعله
ليس سوى حلم . . وهمست به :

— أين أنا؟

— بين ذراعى .

— خيل إلى أنى أحلم ، وخشيت أن أفتح عيني حتى
لا يتسرب الحلم ويختفى .

— افتحى عينيك ولا تخشى شيئاً . . إن حلك . . باق
إلى الأبد . . لن أوقظك منه مهما فتحت عينيك .

ومضت لحظة صمت ثم همست فى أذنى :

— راجية . . أتحيينى؟! قولها لى . . فإنى أحب أن
أسمعها من شفقتك .

وفتحت عيني ونظرت إليه وأطلقت تنهيدة حارة . .
وهززت رأسى ببطء وأجبتة هامسة :

— لن أقولها لك . . إن ما عندى ليس حباً . . إنه أكثر
من هذا . . عندما يجب المرء . . يجب مخلوقاً آخر . . ولكنى
لا أحس أنك آخر . . إنك أنا . . أنت فى دى وفى كيانى .
كل ذرة فى معها ذرة منك . أعرفت من تكون بالنسبة إلى؟
— أنا أيضاً أحس كما تحسین . . لم يعد لى غنى عنك لحظة

واحدة.. أشعر كأنى لا أستطيع تنفس الهواء إلا إذا كان
مزوجاً بأنفاسك.. وأشعر أن حياتى مستمدة منك.. أنت
أحد عناصر الحياة لدى.. بل عنصرها الأول.. بغيرك
لا أستطيع الحياة.. لا أستطيعها أبداً.. أبداً.

وضمنى فى لهفة .

وفى تلك اللحظة.. وصل إلى مسمعى صوت أدركت منه
أن المسجل ما زال دائراً وأنا قد نسينا وقفه .

وقلت لإبراهيم فى دهشة :

— إبراهيم.. إننا لم نعطل المسجل؟

وهتف إبراهيم وهو يتلفت نحوه :

— أجل.. لقد نسيناه تماماً.

واتجه إليه فعهطه ثم عاد إلىّ وهو يقول ضاحكاً :

— تصوّرّى يا راجية.. لقد سجل كل ما قلناه؟

وصحت فى شبه ارتياح :

— يا خبر!! لم أكن أدرى أن هناك من ينصت إلينا

ويسجل علينا أقوالنا.. لو سمعه أحد.. ستكون فضيحة .

كم أنا خجلة؟

— لا تقلقى إنى أستطيع مسحه .

وعاد إلى المسجل مرة أخرى ليمسح الشريط.. وقبل

أن يهم بمسحه قلت له عابثة :
— دعنا نسمعه أولاً .

وأدار الشريط . . وسمعنا أولاً اللحن الذي سجله . . ثم
مرّت فترة لم أسمع فيها شيئاً . . فقلت له وكأن بي خيبة أمل :
— إنه لم يسجل شيئاً . . الظاهر أنه خجل من نفسه ؟
وضحك إبراهيم وأجاب :

— انتظري قليلاً . . إننا لم نكن قد بدأنا الحديث بعد .
كانت شفاهنا مشغولة بشيء أهم . . شئ لا يستطيع المسجل
تسجيله . . والله الحمد .

وقبل أن أجيبه بدأ الصوت يقول في همس :
— أين أنا ؟

— بين ذراعي .

— خيل إليّ أني في حلم .

واستمرت المناجاة حاملة هائمة . . حارة ذائبة . . حتى

انتهت بقوله :

— بغيرك لا أستطيع الحياة . . لا أستطيعها أبداً أبداً .

ونظر إليّ إبراهيم وقال متما لصوت المسجل :

— أبداً . . أبداً . . أبداً .

وعاد يضمني إليه ، ثانية ، وثالثة ، ورابعة .

ومرّت بي بعد ذلك أسعد أيام حياتي .. أيام منحتني
الدنيا من السعادة ما يعتبر كرمها الأول بجواره بخلا
وتقتيراً . . كنت أنطلق في مرعى من النعيم لا حدود له
ولا قيود فيه .

وبدا لي أن القدر قد نسيتني . . وغفل عني بمصائبه
وأحداثه وأحزانه . . أو أن القضاء قد انتقاني من سجل
البشر ليفرد لي صفحة خالصة من السعادة لا تشوبها شائبة
كدر ولا ضيق .

كنا لا نكاد نفترق إلا ساعات النوم . . وفي خلال
النهار كنا نرتع بين الحدائق أو على شاطئ البحر ، وكان
الوقت ربيعاً ، والأوراق الجديدة اللامعة على فروع الشجر
وأكداس الأزهار المتفتحة المتزاحمة في الأحواض ، وبيض
السحب العابثة في مراح الزرقة الصافية ، كل ذلك قد جعلت
منه الطبيعة إطاراً رائعاً تحيط به ينبوع السعادة المتدفقة
من قلبينا .

ولني لأسائل نفسي الآن ، وأنا أستعيد لذهني ما كنت
فيه . . هل يتهبأ مخلوق . . أن يظل حياته كلها في مثل هذا
الفيض من النعيم ؟! وهل يتفق للدنيا . . أن تفجر لمخلوق
ينبوعاً من السعادة لا ينضب له معين ولا يحف له نبع ؟!

وهل يغمض القدر عن مخلوق فيغفل عنه بأحداثه
إلى الأبد .

عندما أسائل نفسي الآن .. أجزم أن هذا غير معقول ..
ولكنى .. هائمة في مرتعى كما كنت .. شاردة ساجحة ..
أعب وأنهل .. لم يخطر ببالي قط أن مابى من الهناء يمكن
أن يصل إلى نهاية ، وأن حياتى تستطيع أن تسير على غير هذا
النمط من المتعة والنشوة .

لم أكن أفكر أن سفاهة الدنيا فى المنح لا بد أن يعقبها
إفلاس .. وأن هذه الفترات ذات النعيم المركز .. لا يمكن
أن تستمر مدى الحياة لأنها أشبه بروح العطر ، يمكن أن تفرق
على قنينات العمر .. لى تجعل العمر كله عطرأ ، وأنها زاد
من الذكريات يحتر ليمح الإنسان قوة يستعين بها على مشقة
الطريق حتى يصل إلى نهاية عمره ، أو بارقة تضىء لنا لحظة
لكى ترينا فى ظلمات الطريق مفاتن الحياة حتى نعيها فى أذهاننا
إذا ما ادلهمت الظلمة مرة أخرى .

لم أذكر كل ذلك وأنا منطلقة فى مراح النعيم .. حتى
أحسست فجأة أنى أنزلق من قمة المنحدر .. أو أهوى من
حالقه ، وأن الشئ الصلب الذى كنت أطبق عليه يدى فى
ثقة وطمأنينة قد بدأ يذوب ، وأخذ يتسرب من أصابعى

دون أن أستطيع الاحتفاظ به .
لست أدري كيف بدأت الكارثة . . فقد كانت المسألة
كلها خاطفة كلبح البرق . . ولكنني أذكر أن الأمر بدأ
بشروء منه وذهول لم أعهده . . وتجههم يعلو وجهه عندما
يغيب عني بذهنه . . فإذا ما استدعيته إلى . . فك عقدة
وجهه وحاول جهده أن يفرج أساريه .

ثم أحسست بعد ذلك أن شروءه قد زاد ، وأن السد
الذي بدأ يقوم بيني وبينه قد علا واشتد . . وأن الصلة التي
أحالتنا إلى شخص واحد قد أخذت تنفصم عراها ، وتمزق
روابطها ، وأنه قد أخذ يتعد عني رويداً رويداً . . حدث
كل ذلك بلا مبررات ولا مقدمات ولا دواعي معقولة .

وخلت أن هناك ما يضايقه مما قد يكون حدث علي غير
قصد مني ، وأنا قد أستطيع إزالته ، وحاولت أن أستفسر
منه وقد جلسنا متجاورين في حديقة دارنا فسألته :

— ماذا بك يا إبراهيم ؟

ورفع رأسه عائداً من شروءه قائلاً :

— لا شيء .

— إنك لست كعادتك . . إن بك ضيقاً من شيء . .

قل ماهو ؟

— ليس هناك شيء .. قلت لك .

— أضايقك من جدتي شيء ؟

— لا .

— ولا عبد الرحمن ؟

— ولا عبد الرحمن .

— إذا .. ماذا بك ؟

وأخيراً فتح الله عليه بعذر شكلي لم أستطع إلا قبوله

فقد قال :

— إن بي صداعاً خفيفاً .

— أأحضر لك اسبريناً ؟

— أخذت .

ولم أحاول أن أضيع عليه بالسؤال مرة أخرى ،

وحاولت أن أعزّي نفسي بأن ما به قد يكون حقاً صداعاً

أو إجهاداً ، أو على أسوأ الفروض ، نوعاً من ملل

الإنسان الذي يصبه نتيجة الإفراط في شيء ..

ولو كان إفراطاً في السعادة .

وصممت على أن أتصرف بحكمة ، ولا أفزع ولا يطير

عقلي شعاعاً ... وأن أنعل كل ما أستطيع حتى لا أزيده

ضيقاً ، ولم أحاول قط أن أسبب له ما يزعجه .. أو أثقل

عليه بما لا يريد .

ولكن يبدو لي أن القضاء كان قد وقع ، ولم يكن لي في
ردّه حيلة ولا على دفعه قدرة .

ففي يوم .. أغبر مشؤوم .. وجدته قد أقبل على
وفي وجهه شحوب وفي سيماء تهمهم .. وبدا كأنه واقع تحت
عبء ثقيل وكنت أقف في الحديقة لأجمع بعض الورد
هششت له وصحت محيية :

— أهلاً إبراهيم .

ولكن لم يكن لديه القدرة ، أو الرغبة ، في أن يهش لي
بل أجاب في ضيق وهو يزدرد ريقه كأنه يعاني أزمة :

— راجية .. إنى أريد أن أسر إليك بوضع كلبات ..
تعالى .. أرجوك .

وسرت معه حتى وصلنا إلى خيملة في ركن الحديقة تعوّذنا
أن نجلس بها معاً .

وجلس أمامي وقد أخذ يعتصر جبينه كأنما يلح عليه
صداع شديد ، وأخيراً أطلق زفرة حارة وقال في صوت
خفيض :

— لست أعرف كيف أبدأ .. أنا أعلم أن ما سأقوله
سيكون شديد الوقع عليك .. وأؤكد لك أنه لم يكن هناك
أبغض على نفسي من أن أسبب لك الألم .. ولكنني مع ذلك

أجدني مجبراً على أن أقول ما سأقول .. لأن مصايرنا ليست
بأيدينا .. بل هي في يد قوة أكبر ترسمها كما تشاء وتوجهها
حيثما تشاء .. كنت أود ألا أتخلى عنك أو أخذلك ، وأن
نكمل السير في الطريق معاً .. ولكن القدر يأبى علينا ذلك ،
ولا بد لنا من الافتراق .

وأقول الحق إن الصدمة كانت مروعة . كانت مذهلة .
ولم تستطع كل المقدمات السابقة أن تمهد لها وتخفف من وقعها .
وهتفت به وأنا مأخوذة مشدوهة :

— لا يا إبراهيم .. لا تقل هذا أرجوك .. نحن لا يمكن
أن نفترق .. ليس هناك قوة على الأرض تستطيع أن تفرق
بيننا .. ألا تذكر قولك أنك بغيرى لا يمكنك العيش
أبدأ .. أبداً ؟

وأطرق إبراهيم برأسه وعض على نواجذه :
— أرجوك يا راجية .. كفى عن هذا .. لقد انتهت
الامر .. لا فائدة من الحديث فيه .

— ولكن .. ما السبب ؟ ! قل لي أرجوك !! أرخني !!
هل أساء إليك أحد في المنزل ؟ ! أرجوك .. اشرح لي الامر
فقد يكون هناك حل .

ولكنه لم ينبس ببنت شفة .. كأنما قد أصم أذنيه عن

سماع حديثي ونهض واقفاً وقد بدا على وجهه التجهم والشروء
ودون أن ينظر إليّ . . . أو يلقى إليّ تحية وداع . . . وجدته
قد أدار وجهه وسار متجهاً إلى باب الحديقة . . . وخلفني من
فرط الذهول لا أكاد أملك حراكاً ولا نطقاً ، كأنني
في كابوس مزعج وحلم مخيف .

وعندما اختفى عن ناظري هممت بالعدو وراه والتعلق
به والتوسل إليه ألا يتركني . . . ولكنني لم أفعل . . . إذ كنت
كالمشلولة .

ولم أبك . . . فقد جفت مآقي . . . وجفّ كل شيء بي . . .
حتى كنت أحس أني شبح يتحرك . . . وتسلفت إلى حجرتي
وكأنما أخشى أن يراني أحد . . . حتى أويت إلى حجرتي
وأخفيت رأسي في الوسادة . . . مغمضة عيني . . . محاولة الفرار
من الواقع المروع . . . جاهدة في وقف تفكيري ووقف
حياتي . . . لو كنت أستطيع .

وهكذا انتهى الأمر وذهب كل شيء بلا أدنى سبب . . .
وبلا أمل في عودة . . . وسحب القدر الأحمق بيساره كل
ما أعطاه يمينه . . . وخلفني بالضبط كالهواية من قمة جبل إلى
قاع بئر .

وأغلقت عليّ باب الحجرة ولم أحاول أن أحدث

أحداً .. حتى أنبأتني «سيدة» بعد ذلك بما حدث له من ذهول ،
وبسفره مع الدكتور زكي إلى مصر .

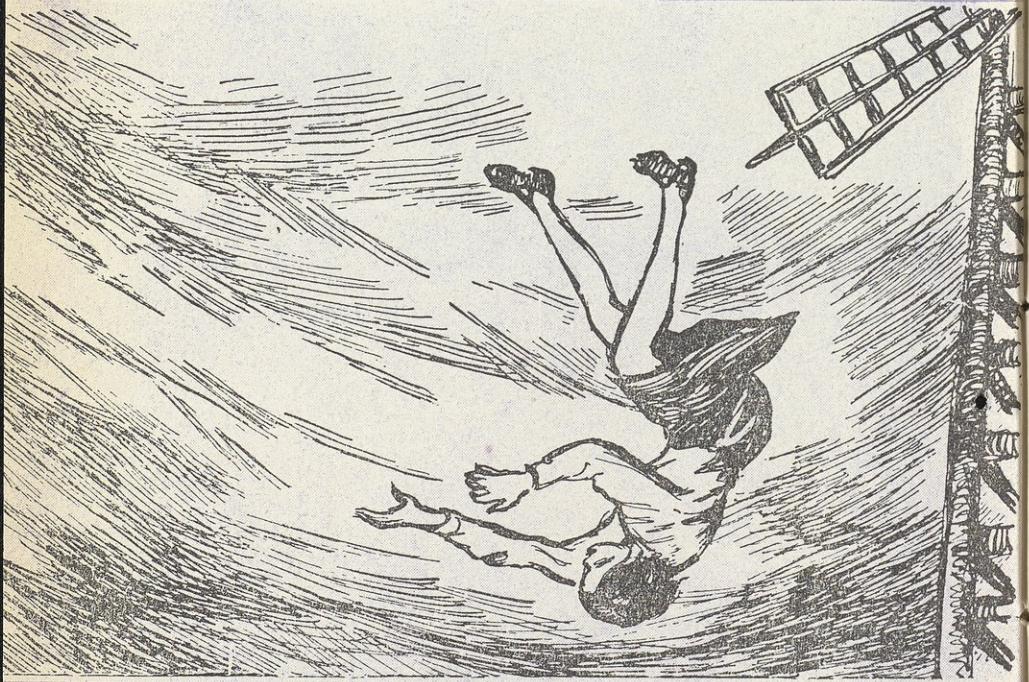
وزادت دهشتي .. وأحسست أن أعصابي لم تعد تتحمل
أكثر مما تحمّل .. وحاولت أن أعزّي نفسي بأن هجره لي
لا يعدو أن يكون من الأزيمة التي أصابته .. وتمنيت
لو أستطيع أن أكون بجواره وأن أفعل له شيئاً .

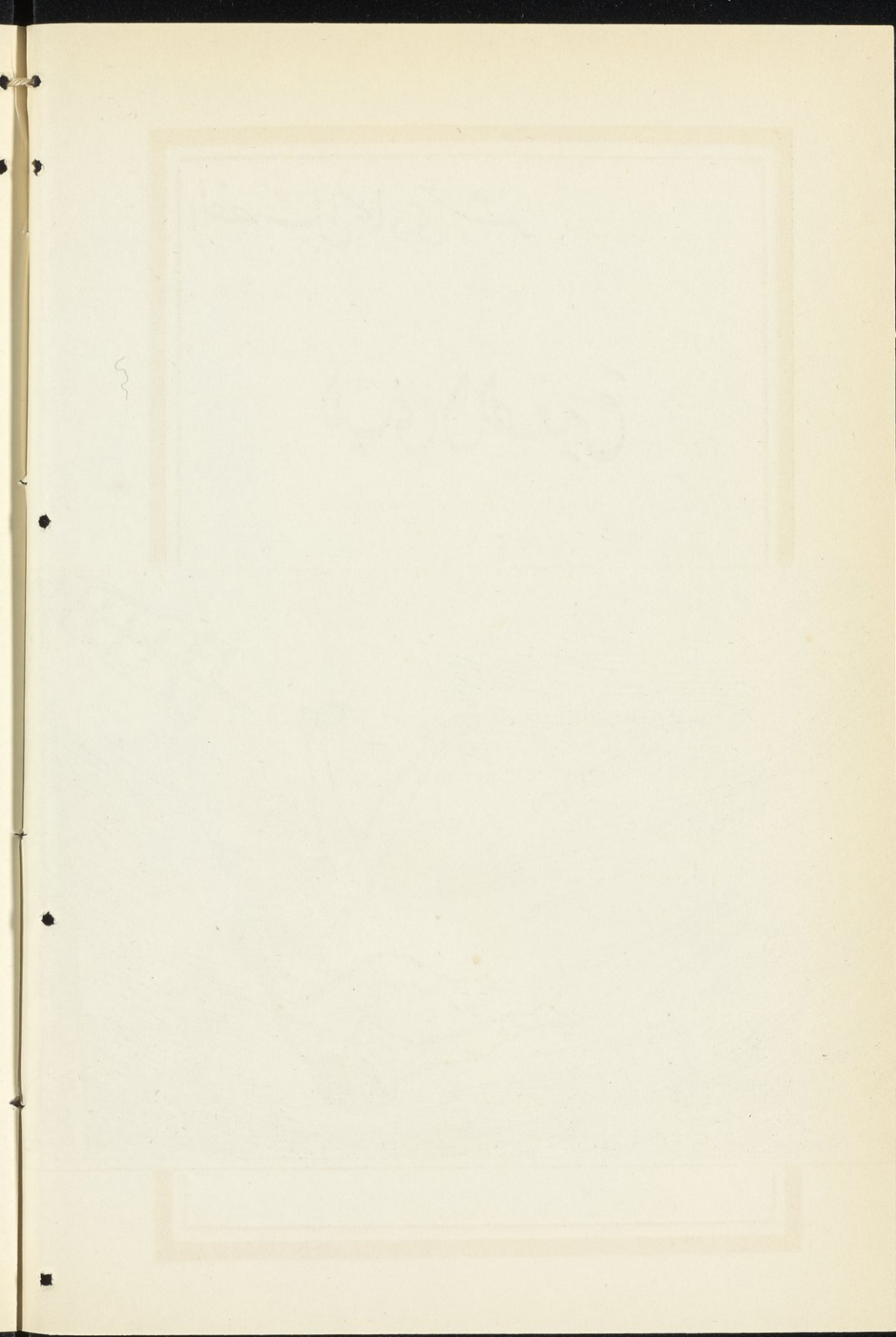
ولكنني كنت أحس أن صلتى به — بعد أن عرف جدى
بالفرقة — قد باتت متعذرة إن لم تكن مستحيلة .

وكنت أخشى أن أواجه جدى طوال الأزيمة .. كنت
أخشى ثورته .. ولم أقل له أكثر من أننا اختلفنا وافترقنا ،
ولكنه كان أكرم مما توقعت .. ورحم ضعفي وانهياري ..
فلم يحاول أن يزيد متاعبي أو يلبح في الأسئلة وقال لي في رفق :
— كنت أعلم أن هذا الحب المندفع لا يمكن أن يكون
أساساً متيناً لحياة طويلة مشتركة . هذه أعراض طارئة تصيبنا
في فترة من فترات العمر فلا يجب أن نبني عليها مستقبلنا بل يجب
أن نحكم عقولنا في كل ما يمس مصائرنا . إنه مصيرك وأنت حرة
في تقريره . إني لن أتدخل ثانية . إني أحبك ولا أرجو سوى
سعادتك ، ولقد أوضحت لك الطريق وأنت أدري بنفسك وبما
يسعدك .. إنها تجربة .. والتجارب خير ما يعلم الإنسان .

الفصل الحادي عشر

ليلى الصغيرة





وأخيراً صممت راجية . . وأفاق توفيق إلى نفسه . .
بعد أن استغرق في الاستماع بكل مشاعره ، ونظرت راجية
إلى ساعتها فإذا بها الثانية عشرة والنصف ، وتمتعت معتذرة
وهي تلفظ زفرة حارة :

— لقد أضعت وقتك يادكتور ، ولكسك أنت الذى
طلبت ذلك . . هذا هو كل ما حدث . . إني أحس بشئ
من الراحة كأنى لفظت من صدرى جمرات كانت تتأجج به .
وأطرق توفيق برأسه وهو ينقر بقلمه على مكتبه وقال
كأنما يحدث نفسه :

— عجيبه ! . كنت أظن أول الأمر أن الصدمة حدثت
نتيجة شئ وقع بينكما . أفصد - بصراحة - شيئاً صدر منك .
— أنا ؟ ! إني منذ رأيتك لم بصدري منى ما يحدثه أو
يضايقه أقل ضيق ، ولا سيما فى الأيام الأخيرة التى بدأت
أحس تغيره فيها .

— ألا يمكن أن يكون قد حدث منك شئ عن
غير قصد ؟

— لا أظن ، وإلا أخبرنى به . . أو على الأقل لمسح لى .
— ألا تظنى هناك شأنناً لجذك أو لعبد الرحمن بالمسألة ؟

— لاشئ مطلقاً .. لقد سألته أنا نفسي .. إذ خطر
بيالى أن يكون جدى قد عاد إلى رأيه الأول وأنه ندم على
موافقته وأراد أن يفسد ما بيننا .. ولكنه أكد أن جدى
لادخل له فى الأمر .

— ألا يحتمل أن يكون هناك عنصر دخيل .. أعنى
امرأة أخرى ؟ !

وبهتت راجية وبدت عليها علامم ألم وضيق ولكنها
هزّت رأسها بشدة كماأما تطرد الخاطر من نفسها وقالت
فى لهجة جازمة :

— لا .. من أين تأتى المرأة الأخرى وأنا لا أكاد
أفارقة لحظة ؟ !

— على أية حال .. لا بد أن هناك شيئاً .. وهذا
الشئ إما أن تكونى أنت محوره .. أو يكون غيرك ..
فإذا كنت أنت محوره .. وإذا كان شعوره نحوك مازال
كأهو ، وأنه لم يتركك إلا وهو تحت تأثير طارىء لإرادة
له فيه .. فأنا أعتقد أنك وحدك التى تستطيعين شفاؤه ..
فإذا فرضت أيسر الفروض .. وهو أن ما به صدمة
عاطفية .. نتيجة خذلان أو خيبة أو فشل أو غيره وهو
ما تستبعدين أنت حدوثه .. كنت مضطراً أن أدخله فى دائرة

الاحتمال .. ولا سيما أنه مخلوق حساس جداً وليس أسهل
من خدش شعوره .. وقد يكون فضل الانسحاب أثر
الصدمة في صمت وسكون .

— ولكن هذا مستحيل .. أنا واثقة .

— أنا أقول إن هذا فرض .. إننا جميعاً نجهل الحقائق
المطموسة في ذهنه .. وليس أماننا إلا أن نفرض كل
الفروض ، ونحاول أن نتمشى مع جميع الاحتمالات ..
حتى نتيقن الحقيقة ونكشف عنه تلك الظلمات التي تغرقه .
— هب هذا الفرض صحيحاً .. ماذا يمكن فعله ؟

ونزع توفيق منظاره وتشاغل بمسحه برهة .. ثم قال :
— من رأيي أن أعرضه لصدمة عاطفية أخرى .
— كيف ؟

— أفاجئه بك في منظر يشيره .

وتصاعد الدم إلى وجهه راجية .. وأطرقت برأسها ..
وتمتت قائلة :

— ولكن .. .

— هذا مجرد عرض .. أنت حرّة في قبوله أو رفضه ،
فأنت قد تقدّمت للمساعدة بمحض رغبتك .. وأنت كما
أعتقد أكثر الناس حرصاً على شفائه .. والمسألة لن يكون

بها ما يضايقك .. إنها مجرد تمثيل .. ستقفين هنا مثلاً في
هذه الحجرة ومعك أى إنسان وقد تقاربتما فى وضع غرامى
يوهم الداخلى أن بينكما صلة حب .. فإذا أقبل هو عليكما
وأبصركما فى هذا الوضع .. فقد تثار غيرته وتلهب مشاعره
وتوقظ عاطفته .. وقد تنفض تلك الانفعالات الحادة
الأتربة المنهالة على ذاكرته وتبدد الغيوم الملبدة فى ذهنه .
وصمتت راجية وهى ما زالت مطرقة برأسها .

وعاد توفيق يسأل :

— ما رأيك ؟

وبدا عليها التردد والحيرة ثم أجابت :

— كما تريد .. إنى أثق بك وإنى على استعداد لأن

أفعل كل شئ من أجله .

— هذا حسن ، وأنا أعرف أنه طلب ثقيل ومهمة شاقة .

وما كنت لأجرؤ على عرضها عليك لولا يقينى من سعة إدراكك

أنها مجرد محاولة للعلاج والمسألة لن تستغرق أكثر من دقائق .

ودق توفيق الجرس ودخل الخادم فطلب منه أن

يدعو الدكتور زكى وأقبل زكى وهو يقول :

— لقد طالت القصة . أرجو أن تكون قد استطعت

الوصول إلى شئ .

— سنجرّب أحد الحلول الذي عرضته على الانستراجية.

— ما هو؟

وشرح له توفيق ما اتفقا عليه ثم أردف قائلاً:

— لتتفق على موعد .. تحضر فيه راجية . ثم تأتي به أنت في أعقابها وتدخله في حجرتي هذه .. عندما أطلب منك . أظن المسألة ستم بسهولة ، وسأقوم أنا بعمل الرجل الآخر — برغم أني لا أجيده — حتى تكون التجربة في أضيق نطاق .. أليس هذا أفضل؟

وأشارت راجية برأسها علامة الموافقة .

وعاد توفيق يسألها:

— أي موعد يوافقك؟

— أعتقد أني أستطيع الحضور غداً في نفس موعد

اليوم .. ألا يناسبكما هذا؟

— بالتأكيد . سأكون في الانتظار .

ونهضت راجية وهي تمد يدها مصافحة:

— إذاً أستأذن . وإن شاء الله نلتقي في الغد .

وقال زكي وهو يسير بجوارها إلى الخارج:

— أتريدين أن أوصلك؟

— متشكرة جداً .. سأعود بعربة أجرة كما أتيت ..

وأرجوك أن تطلب من الخادم أن يستدعي واحدة .
وهبط كلاهما في المصعد بعد أن ودعا توفيق ، وعادت هي
إلى بيت عمتهما . . وعاد هو إلى عيادته .

وفي اليوم التالي قبل العاشرة كانت راجية تدق جرس
العيادة وقادها الخادم إلى حجرة توفيق . . وبعد أن تصافحا
قالت راجية :

— أظنهما لم يأتيا بعد ؟ ! .

ونظر توفيق إلى الساعة وقال :

— الساعة العاشرة تماماً . . أعتقد أنهما سيصلان خلال

ربع الساعة .

وكان اليوم حاراً ذا ريح راكمدة ، وأوراق الأشجار
ثابتة على الأغصان لا تهتز ولا تتحرك ، والجو في داخل
الحجرة لا يكاد يمتثل .

وأخرجت راجية مندليها ، وأخذت تجفف قطرات
عرق تصببت حول عنقها . وقال توفيق وهو يدير مروحة
كهربية على مكتبته :

— أظن المروحة قد تلتطف الحرارة بعض الشيء . .

تفضل على المقعد الآخر كي لا تتعرض لتيارها .

وأبدلت راجية مقعدها . . وفي نفس اللحظة طرق

الباب ودخل الدكتور زكى .

ولم تكلمه تراه حتى همت من مقعدها وقد أصابها اضطراب شديد وسألته في لهفة :

— هل أحضرته؟! .

— أجل . . إنه يجلس في الشرفة .

— كيف حاله؟ .

— كما هو .

وسأله توفيق :

— والحقيقة؟ .

— مازال يحملها .

ونفض توفيق واتجه إلى أريكة في مواجهة الباب وأشار

لراجية قائلاً :

— تفضلي هنا .

ثم أردف موجهاً الحديث إلى زكى :

— سنجلس هنا في مواجهة الباب وسأمسك بيدها وأجعلها

تستند برأسها إلى صدرى وسأبعث بأصابعى فى خصلة شعرها .

ثم سأل راجية :

— أهكذا كان يفعل؟

وأطرت راجية رأسها وقد بدا عليها شروء ووجوم .

وعاد يقول لزكى :

— اذهب أنت الآن وأحضره .

وخرج زكى إلى الشرفة حيث جلس إبراهيم وقد أخذ
يتنقل بعينه بين النيل والنخيل ومنبسط الخضرة الممتد أمامه
على مدى البصر ، وربت زكى كتفه قائلاً فى رفق :
— هيا بنا .

ولم يجب إبراهيم ..

إلى أين هذه المرة؟ ! لم لا يسأل؟ ! ماذا يضيره من
السؤال؟ ولكن ما فائدة السؤال .. وهو لا يعنى شيئاً مما يقال
له؟ ! ما فائدة السؤال عن شئ بذاته .. وهو لا يدري شيئاً عن
أى شئ .

لا .. لا .. لا فائدة . المهم هو أن يطبق جيداً على هذه
الحقبة .. التى لا يدري لم يحرص عليها .

أجل .. ماذا بها؟ ! ولماذا يتعلق بها كل هذا التعلق؟ !
لا بد أن بها أشياء هامة .. وإلا لما أطبق عليها هكذا ..
إن بها شيئاً خطيراً .. أجل .. أجل .

وكان زكى قد وصل إلى باب الحجرة المغلق .. وطرقه
طرقات خفيفة ثم دفعه بيده ، وأشار لإبراهيم أن يتفضل .
وتردد إبراهيم برهة .. لم لا يدخل صاحبه أولاً ..

لقد تعود دائماً أن يتبعه . . ولكن زكى لم يترك له فرصة
للتردد وعاد يقول :

— تفضل . . تفضل .

ليتفضل إذا . . إنه لم يتعود المقاومة .

وعبر الباب ومضت لحظة صمت . . وهو يحدق أمامه ،
وساد في الحجرة سكون مطبق . . كاد كل من فيها أن يكتم
أنفاسه . . ووسط هذا السكون كان يعلو صوت واحد
هو أزيز المروحة الكهربائية تلف في مكانها حتى تبلغ أقصى
اليمن ثم تعود إلى أقصى اليسار .

واسترعى الرجل والمرأة الجالسان على الأريكة نظره
لحظات قصار ومالبث أن تحوّل انتباهه فجأة إلى صوت الأزيز
ولم يعد يحس في الحجرة سواه .

ويبطه وحذر أخذ بصره يتحوّل عن الكائنين المجهولين
الجالسين أمامه . . إلى الصوت المريب الذي يترنّ في الناحية
الأخرى .

وجفأة صرخ صرخة رعب .

لقد وقع بصره على المروحة وأحس بأذرعها تتضخم
وتتضخم . . وتقترب منه حتى تطبق عليه وتطويه في لفاتها
الفضيعة ، وأحس بالحجرة تدور حوله بسرعة . . ويصبح

عاليها أسفلها وأسفلها عاليها . . وكان جسده يوشك أن يتحطم
ورأسه أن ينفجر .

ومدّ ذراعيه محاولاً إلقاء شبح المروحة المطبق عليه . .
وسقطت الحقيبة إلى الأرض وفتحت وبدت محتوياتها واضحة
للعيان . .

ووجه زكي بصره بسرعة إلى ما ظهر من محتوياتها . .
ثم تقدم ليسند إبراهيم الذي أوشك أن يتهوى إلى الأرض
وأجلسه على أحد المقاعد .

وانهارت راجية على الأريكة وقد أصابها يأس قاتل . .
ورعب شديد .

كانت مفاجأة عجيبة لم يتوقعها أحد .
لقد كانت صرخته وانفعاله وانهاره أمراً متوقفاً . .
ولكن توقعه كان يجب أن يكون نتيجة المنظر المثير الذي أعد
لمواجهته .

أما أن يكون ناتجاً من رؤيته المروحة . . فهذا آخر
ما كان يخطر على بال أحد .

وكان توفيق أول من تملك نفسه فنهض بسرعة . . ليلقي
نظرة فاحصة على محتويات الحقيبة . . عله يجد بها شيئاً يلقي
الضوء على كل هذه المعميات .

وبسرعة فخص ما بها . . فزادت به الدهشة .
ما هذه الأشياء الخطيرة التي يحرص عليها هذا المخلوق
العجيب ؟ .

« إشارب » ، ونظارة شمس ، وكتاب يبدو أنه قصة كتب
عليه بالإنجليزية « حذار من الشفقة » .

أهذا كل ما بالحقيقة ؟! أهذا هو ما يحرص عليه ذلك
الحرص العجيب ؟ . وما يخشى أن يراه أحد ؟ !

وهمس توفيق لراجية وهو يتساءل في دهشة :

— أهذه الأشياء لك ؟ !

وهزت راجية رأسها والبكاء يكاد يخنقها وأجابت :

— لا .

وأحس توفيق أن راجية قد تحملت أكثر ما تستطيع
وأن تجاهل إبراهيم إياها قد سبب لها يأساً فظيماً .

وربت كتفها وقال هامساً برفق :

— أظنك تستطيعين أن تتفضلتي بالعودة . . آسف جداً

على ما سببته لك ، ولكني أعتقد أن تعبنا لم يذهب سدى ،
دعي الأمر لي . . وسأبذل من أجله كل ما أستطيع من جهد .

وتمت راجية وهي تتجه في انهيار نحو الباب :

— لست أظن أن هناك أملاً . . لقد نظر إليّ كأنه لم

يرنى من قبل .

— لا تخشى شيئاً ، إن الحالة ليست عسيرة كما تتصورين .
ياذن الله سنتمكن من شفائه . . . اذهبي أنت إلى البيت ،
واستريحي ، وعندما نحتاج إلى معونتك سأبلغ الدكتور زكي .
وخرجت راجية . . ووقف زكي ينظر إلى توفيق في دهشة
ويأس وقال :

— ما كل هذا ؟! ماعلة ما حدث ؟

— انتظر لحظة .

ثم دق الجرس وعندما أقبل الخادم قال له :

— قل « لامتثال » أن تجهز الحقنة .

وانصرف الخادم .

وكان إبراهيم قد استقر في مقعده وتصيب العرق من جبينه
وقد بدت عليه علامات الألم ، وراح في نوبته .

وأمسك زكي بالحقينة فوضعها بجواره .

ولم يكمد يحس بها حتى أطبق عليها . . وأخذت أنفاسه

تتلاحق كأنه يعدو في سباق .

واتجه توفيق إلى دولا ب زجاجي في ركن الغرفة قد صفت

به بعض العقاقير وأخرج منه زجاجة فوضعها على المكتب .

وسأله زكي :

— ما هذه ؟

— حقنة مخدرة .. تعطى في الوريد .. وتجعل المريض في شبه غيبوبة ، أعنى أنه يكون مانسميه نصف نائم أو «دائماً» وتجعله ينصح بأشياء كثيرة كامنة في نفسه لا يستطيع الإفصاح عنها وهو في تمام وعيه .

وأقبلت الممرضة بالحقنة .. وطلب توفيق من زكى أن يساعده على نقل إبراهيم إلى الفراش الصغير حتى يستريح عليه تماماً .

وانتقل إبراهيم إلى الفراش في استسلام المنهك الخائف القوى .. واستقر عليه في استكانة واسترخاء .

ودفع توفيق بالإبرة في ذراعه .. وبعد لحظات كان إبراهيم يقبل رأسه يمنة ويسرة ثم راح في شبه إغفاءة .
وجذب توفيق مقعداً وجلس بجواره وقال لزكى :
— قل للممرض .. لا يدع أحداً يدخل .

وعاد زكى بعد لحظة وجلس على مقعد بجوارهما .
وبدأ توفيق حديثه في صوت خافت موجه القول لإبراهيم :

— كيف حالك الآن ؟ ! أهناك ما يضايقك ؟
وبعد فترة صمت أجاب إبراهيم بصوت خافت :

— لا .

— أبدأ؟!

— أبدأ!

— ولا المروحة؟!

واضطرب إبراهيم في مضجعه وبدا كأنه يعاني ألماً
شديداً ، وأمسك توفيق يده فربت فوقها برفق وقال :
— لا تخشى شيئاً . . ليس هناك أبدأ ما يستدعي كل هذا
الذعر . . أنت هنا في أمان تام .

ومد إبراهيم يديه وكأنه يدفع شبحاً خيفاً :
— ابعدوها .

— ما هي ؟

— هذه المروحة الخيفة . . ابعدوها . . ابعدوها .

— لقد أبعدها تماماً . . لم يعد لها أثر . . وإن كنت

لا أجد بها ما يستدعي كل هذا الذعر . . ماذا تخشى منها ؟

— إنها هي السبب .

— السبب في ماذا ؟

— في كل ما حدث .

— حدث لك ؟

— بل لها .

— من هي ؟

- ليلي .
- ليلي ! ! من تكون ليلي ؟
- ليلي أختي .. ليلي الصغيرة الجميلة .. لقد كان هذا الشبح القائم كالمارد ذو الأذرع الممتدة إلى عنان السماء هو السبب .
- أى شبح هذا الذى تعنيه ؟ وما صلته بالمروحة ؟
- إنها مروحة هواء . . مروحة ذات أذرع تديرها الريح لرفع المياه من باطن الأرض .
- وأين كانت هذه المروحة ؟
- فى الصحراء .
- وماذا فعلت بأختك ؟
- قتلتها .
- قتلتها ؟
- أجل قتلتها تماماً .
- هذه حكاية عجيبة لا يعرفها أحد ؟
- لقد مضى عليها زمن طويل .
- أتذكرها جيداً ؟
- أجل كأنى أراها رأى العين .
- قصها علىّ .. قصها بحذافيرها وحاول ألا تنسى شيئاً .
- وأخذ إبراهيم شقيقاً طويلاً وأخرجه زفيراً أطول ،

وبدأ بصوته الخافت وعينه نصف المغمضتين يقص القصة العجيبة قائلاً :

— كان ذلك منذ عشرات السنين وكنت لم أزل بعد طفلاً في التاسعة . وكانت أختي « ليل » في الخامسة من عمرها . وكان بيننا ما بين كل طفلين من عراك دائم وتنازع مستمر على الدمى والألعاب ، وعلى الطعام والشراب وعلى كل تافهة مشتركة بيننا ، وكنت أشعر في كل معركة بيننا أن أبي وأمي يخذلاني وينصرانها . ويؤنبانى ويدلانها ، ولا أكاد أتشابك وإياها من أجل لعبة من اللعب حتى أجد أحدهما انتزعها مني وأعطها لها صائحاً في وجهي :

— عيب . . إنها أختك الصغيرة .

ويصبح الآخر مؤيداً :

— قلت لك مائة مرة لا تضايقها . . أنت كبير ويجب عليك أن تكون أعقل من هذا .

ثم يرتبان كتفيتها ويقبلانها .

وفي خلال هذه المعارك الصيبانية كنت أحس لها بالبغض وكانت كراهيتي لها تتزايد . . عندما أشعر أنها قد انتزعت مني حب والدي . . واستأثرت بتدليلهما وعطفهما . وعندما يشدد بي الغيظ أحياناً كنت أتمنى لو لم تولد . . فقد خيل إليّ

أنى كنت أسعد حالاً قبل ولادتها . . وأن كل ما كنت أتمتع
به من تدليل ودمى وألعاب قد تحوّل إليها .

وكنا نقضى الصيف فى الإسكندرية عندما ذهب بنا أبى
للزهوة ذات يوم فى مكان قرب العامرية يسمى كنجى مربوط .
وإنى أذكره جيداً كما أذكر الطريق إليه . . وقد تفرّع
من الطريق الصحراوى وانحدر بين الرمال التى تنبت بها
الأزهار البرية . . وعلى جوانبه وقف الصبية يحملون طاقتها
الزاهية يعرضونها على المارة .

وأذكر أن أول ما بدا لى فى المكان مراوح الهواء
المتعالية فى الأفق القائمة على الآبار وسط المزارع المتناثرة
وبجوار البيوت المتفرقة هنا وهناك .

وسارت بنا العربة وأنا أشير لليلى إلى المراوح كلما مرّت
بنا مروحة . . حتى وصلنا أخيراً . . إلى الاستراحة القائمة
فى نهاية الطريق .

وكانت الاستراحة أشبه بفندق صغير فى أسفله مقهى
تحيط به الأشجار المتكاثفة . . تجرى خلالها قنوات المياه
النابعة من الآبار ، وتترامى على مدى البصر حقول الشعير
الخضراء تتناثر بها أشجار الزيتون .

وجلس والدينا على منضدة فى الحديقة بين الأشجار

وأخذت أعدو ولبلى تلهو مع بقية الصبية المنطلقين في
الحديقة يلعبون بالكرة أو يركبون الحمير .

ونادى أبى الساقى فعدونا لننال نصيبنا من المرطبات
وسألنا أبى عما نرغب فطلبت « جلاس » ، وطلبت ليلى
« كازوزة » وطلب أبوانا « قهوة » .

وعدت ولبلى نواصل اللعب ، ووالدتى تصيح بى :

— خذ بالك من أختك يا إبراهيم .

وعندما عاد الساقى بالطلبات عدنا مرة أخرى ، ومددت
يدى آخذ « الجلاس » فصاحت ليلى ، إنها تريده ، ونظرت
إليها فى ضيق وقلت لها محذراً :

— لقد طلبت أنت « كازوزة » يا ليلى . . خذى
زجاجتك يا حبيبتى .

— ولكن أريد « جلاس » .

وأحسست بحنق يزداد وخشيت أن تصر على عنادها
فاختطفتم « الجلاس » وأنا أقول لها :

— أنا الذى طلبت « الجلاس » .

وكان الساقى قد فتح الزجاجاة ، ولم يكن هناك سبيل
إلى إعادتها . وأخذت ليلى تصيح كعادتها فى عناد وإصرار :

— أريد الجلاس .

ووجدت أبي ينظر إلى ناهراً ويقول منذراً :
 — اعطها الجلاس .. ولا تعاندها .
 — ولكنى أنا الذى طلبته .
 — لا بأس .. خذ أنت الكازوزة .. هذه المرة .
 ونظرت إلى ليلي فى ضيق .. وصحت بها :
 — لماذا لم تطلبى « الجلاس » .. مادمت تريدينه ..
 لن أعطيك شيئاً .
 واشتركت أمى فى المعركة مؤيدة ليلي وقالت :
 — اسمع كلام أبيك واعطها « الجلاس » .
 وكان الجلاس قد بدأ يسيح .. وأخذ ليلي تبكى .
 فصاح أبى :
 — اعطها إياه وإلا كسرت رأسك .
 ودفعت بالكوب إليها .. وقد بلغ منى الغيظ مبلغه .
 وصحت بها :
 — خذى « إن شا الله تموتى » .
 وهكذا كان الحال فى كل شئ .. كنت أستسلم فى النهاية ،
 مفرجاً عن غيظى بدعوتى عليها أن تموت .
 لم أكن أكره ليلي ، ولكن أبواى بتدليلهما إياها أثارا
 فى نفسى البغضاء والكرهية .

ولم نكد ننتهى بما فى أيدىنا حتى كنت قد تناسيت الأمر
برمته . . وأقبلت على ليلى أعدو وإياها لاهين .
ومرّ بنا أحد « الحمير » التى يؤجرها أصحابها للسنزهين
فصحت بوالدتى أسألهما أن تركبني « حماراً » .
وكانت تتشاغل ببعض أعمال الإبرة فى يديها فأجابتنى
ناهرة دون أن ترفع رأسها :
— ألا تكف لحظة عن الطلبات !! إذهب وخذ بالك
من أختك .

— كل الأولاد يركبون الحمير . . لم لا أركب أنا؟
وكان الرجل قد اقترب منا . . فأخذت ألح عليها ولم تجد
بدأ من الموافقة تخلصاً من الإلحاح فقالت للرجل :
— دعه يركب .
وهنا صاحت ليلى :
— وأنا يا ماما؟
وأجابت أمى :
— وأنت أيضاً اركبى .
وعدونا كلانا إلى « الحمار » . وصاحت ليلى :
— أنا أركب الأول .
وعادت المجادلة مرة أخرى فصحت بها :

— أنا الذى قلت الأول .. وسأركب الأول .
وفى هذا قضى الرجل صاحب « الحمار » الخلاف قبل
أن يستفحل فقد قال مهدئاً :

— لا تتعاركا .. اركبا أتما معاً .

ورفعها أولاً ثم رفعتى وراءها وسار بنا ووالدتى تصيح
محدرة التحذير الدائم :

— لا تبعدا كثيراً .. وحافظ على ليل .

وعندما ابتعدنا عن أبويننا واختفينا عن نظريهما فى أول
منعطف بين الشجر قلت للرجل وأنا أضرب الحمار بساقى :

— دعه يجرى .

وبدأ « الحمار » فى العدو عندما صاحت ليلى مذعورة :

— يا ماما ..

وقلت لها مهدئاً :

— لا تخافى ياليلى إنى ممسك بك .

ولكنها استمرت فى الاستغاثة والصياح ، فاضطر الرجل
إلى تهدئة سير الحمار .

ووجدتنى أضغط على نواجذى فى غيظ وقلت لها :

— إذا انزلى برهة .. ودعيني أجرى .. ما دمت

تخشين الجرى .

وأجابت في عناد كعادتها :

— لا .. لن أنزل .

وكان شوقى إلى العدو « بالחסار » قد بلغ حداً لا يعادله إلا غيظى من ليلى وحاولت أن أرجوها في هدوء فقلت لها
متوسلاً :

— يا ليلى يا حبيبتي .. كوني لطيفة .. انزلى برهة ..
وسأجعلك تركبين ثانية .

ولكنها تبادت في عنادها .

ولم أجد بداً من خداعها والضحك عليها .. فقلت لها
وأنا أشير إلى مروحة هواء مركبة على برّ فى مزرعة ملاصقة
للبحهى :

— أنظرى يا ليلى .. ألم تشاهدى هذه العروس التى
تغمض وتفتح عينيها ؟

ولم يكن هناك أحب إليها من حديث العرائس فالتفتت إلى
وسألت فى لطفة :

— أين هى ؟

— هناك بجوار المروحة .

— إني لا أراها .

— إنها فوق .

— وكيف أتوصل إليها؟

— إذا ماصعدت على السلم .. أمكنك رؤيتها .

— إذا دعني أنزل .. إنى أريد مشاهدتها .

وأحسست بفرحة الانتصار .. وفي غمضة عين كانت ليلى
على الأرض تعدو إلى الطاحونة ، وكنت أنا أعدو « بالجار » .
ولففت به لفة ثم عدت إلى حيث كنت ونظرت إلى أعلى ..
ولشدة ما كانت دهشتي إذ وجدت ليلي مستمرة في الصعود
فوق الهيكل الحديدي المرتفع وقد أوشكت أن تبلغ القمة .
وتمسكني عليها ذعر شديد وصحت أناديها .

وعندما بلغت صيحتي وجدتها تنلفت إلى .. ولم يكذب
بصرها يقع على الأرض في أسفلها .. وتدرك العلو الشاهق
الذي بلغته وتحس بتعلقها في الهواء حتى أصابها اضطراب
شديد ، وخارت قواها ، ودارت رأسها .. فصرخت صرخة
فزع مدوية وأفلتت قدمها من حديد السلم فهوت من أعلى .
وأغمضت عيني وسقطت من فوق الجار واندفعت
أعدو إليها .

وإنى لأذكر منظرها وقتذاك وهي ملقاة على الأرض
وقد تهشم رأسها وسال الدم من فمها فأحس أن شيئاً
في جوفى يكاد يهبط إلى أسفل .. وأن يداً تطبق على عنقي ،
وكأنها تزهب أنفاسي .

ومن العبث أن أذكر مبلغ ارتياحي وجميعتي .. وإحساسي
بالجرم .. كنت أشعر في قرارة نفسي أني قتلتها .. ألم أدفعها
إلى الطاحونة؟! ألم أزين لها الصعود؟ .. ألم أصح بها بعد ذلك
وهي معلقة في قتها .. فجعلتها تنظر إلىّ وتهوى إلى الأرض ..
وفوق ذلك كله .. ألم أكن أحس ببعث لها عندما تتعارك ،
وأتمنى في كثير من الأحيان لو لم تولد !! ألم أدع عليها منذ
بضع دقائق قائلاً :

« إن شا الله تموتى » .

كل هذا كان يملأ قلبي شعوراً بالذنب .

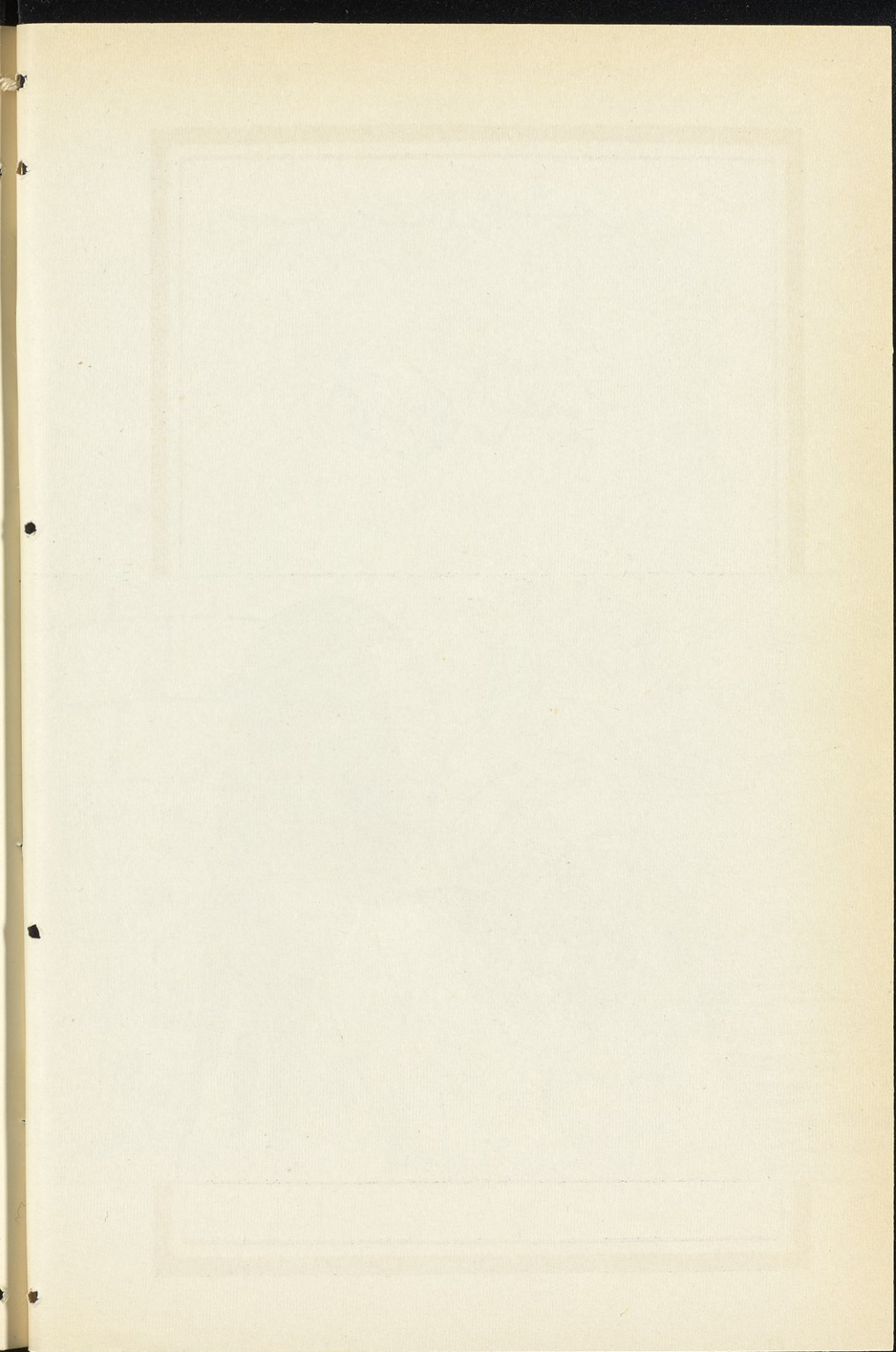
وأحسست في تلك اللحظة بمبلغ حبي لها .. وتمنيت
لو أمكنتني استردادها ثانية .. وإعادتها لتلمو معي ، ومنعها من
أن تذهب وتتركني وحدي .. وتمنيت لو استطعت أن أفنديها
بعمرى .. وأن أموت أنا وتبقى هي .

ولكن كل هذا لم يجد شيئاً .. وماتت ليلى .. وحملها
أبوأي اللذان روّعتهما الصدمة وتركتهما مشدوهين مذهولين
وذهبت أسير وراءها خافض الرأس ذليلاً حزيناً محسوراً .
ذهبنا كلنا وبقيت المروحة ، كما هي ، باسطة ذراعيها إلى
عنان السماء كأنها ماردمخيف .

الفصل الثاني عشر

نأجرب بين القبر





وصمت إبراهيم وبدت على وجهه علامات الألم والإرهاق
الشديد .

وهزّ توفيق رأسه في دهشة ، وانتظر برهة ثم قال في
صوت خافت :

— وماذا حدث بعد ذلك ؟

ولم يجب إبراهيم وأطلق من صدره زفرة ضيق .
وانتظر توفيق فترة أخرى ثم عاد يسأل :

— تذكر .. أهذا كل ما يخيفك من المروحة ؟ ! إنها
حكاية قديمة جداً .. ماذا أثارها في ذاكرتك ؟ ! ما الذى
أيقظها ثانية ؟ تذكر ...

وتملل إبراهيم وقال فى شبه همس :

— أنا متعب جداً .

— كفى هذا .. إذاً .. لا داعى لأن ترهق نفسك ..

استرح ...

ثم تلفت إلى زكى وقلب شفته السفلى ورفع كتفيه فى
شئ من الخذلان ثم أشار إليه برأسه .

ونفض الاثنان إلى ناحية المكتب بعيداً عن إبراهيم .
وقال توفيق :

— عجيبه !! يبدو لي أن المسألة تتعقد أكثر .
— ولكن كل ما قال لاصلة له بالموضوع .
— كيف ؟ .. إنه هو نفسه الموضوع .. إني أعتقد
جازماً . . أن هذه الحالة التي أصابته في طفولته هي التي
سببت له العقدة الأولى . . إنها هي الداء الكامن في نفسه
من قديم العمر . . ولكني أعتقد أيضاً أنه لا بد أن هناك
ما أيقظها . . فقد كان ممكناً أن تبقى كامنة إلى ما شاء الله . .
ولكن شيئاً جديداً أثارها .

— وما هو ؟ !

— من يدرى .

— ولمَ لانسأله ؟

— لا . . لن يقول شيئاً . . لقد استنفدت كل قواه .

— أتظن أنه يمكن أن يفصح عنها في مرة ثانية ؟

— الله وحده أعلم . . المسألة كما قلت لك معقدة جداً .

— أتتصد أنه ليس هناك أمل ؟

— لم أقل هذا . . ولكنها تحتاج إلى جهد كبير . . هناك

أشياء كثيرة مجهولة . . لا أظنه سينصح عنها . . لا بد أن
يكون قد وقع له من الأحداث في الفترة الأخيرة ما أهيج
كامن مشاعره . إن الفترة التي قضاها في الإسكندرية يجب

أن تبحث جيداً .

— وكيف يمكن بحثها؟

وبدا التردد على توفيق وصمت برهة ثم أجاب :

— كنت أود أن نسافر به إلى الاسكندرية . . حيث مسرح الأحداث نفسه . . إذ يخيل لي أن الوسائل هناك قد تكون أفضل ، ولكنني في هذه الفترة مشغول جداً . . لدى بعض المرضى الذين أتولى علاجهم . . ومن العسير عليّ تركهم في هذه المرحلة من العلاج . . ولذا فإنني أرى أن نقتصر على علاجه هنا . . وأن نحدد له ثلاث جلسات في الأسبوع . . والمسألة تحتاج إلى بعض الصبر والتؤدة . . وكل شيء يحل مع الزمن .

ولم يبد على زكي الاقتناع وقال في رجاء واستعطاف :

— أنا أعلم أنني قد أثقلت عليك . . ولكنني لا أحدثك كطبيب أو كزميل . . بل أحدثك كأخ . . إن إبراهيم عزيز عليّ كمنفسي . . وأرجو ألا تعتبره مجرد مريض ، بل اعتبره أخاً لك كما هو أخ لي . . إن مسألته لا تحتل الصبر والتؤدة ما دامت أماننا وسيلة . . فلم لا نطرقها . . إن مرضاك يمكن الصبر عليهم بعض الوقت .

وبدا الحرج على وجه توفيق وأخذ ينقر بإصبعه على

المكتب ثم قال أخيراً :

— أعدك بأن أحاول جهدى .. اترك لى فرصة حتى أرى إذا كنت أستطيع أن أدبر أمرى .

— إنى واثق أنك ستستطيع ، سأتصل بك فى الغد فى مثل هذا الوقت لأسمع موافقتك على السفر ولكى نحدد موعداً له .
— إن شاء الله سأبذل جهدى .

وكان إبراهيم قد بدأ يفتح عينيه ونهض من الفراش فى تناقل .. وكان أول ما فعل أن مدّ يده فاخطف الحقيية التى كانت مستقرة بجواره وأطبق عليها بذراعه ثم تلفت حوله فى دهشة .

وأخذ ينفذ عن رأسه ما يثقلها واستطاع أن يميز صاحبه فشعر بشئ من الطمأنينة .. كما يحس الأعمى عندما يتحسس عصاه .. ولم لا ؟! أليس هو العصا التى تقوده ؟! ألم يتعود أن يتبعه إلى حيث يذهب دون أن يسأله أو يعلم منه ما الغرض من كل هذا التنقل ؟!

واقترب منه صاحبه وجواره الرجل الآخر الضئيل الحجم ذو العوينات السميقة .

وتأبط صاحبه ذراعه ومد الآخر يده لمصاحفته .
إذاً فهو سيترك المكان .. أجل .. لا شك فى هذا ..

ومد يداً للصافحة وأخرى للتأبط واتجه خارج الحجره وهو
يرد على مودعه بتمتمته غير المفهومة .

وبعد الظهر عاد توفيق إلى عيادته ليستقبل مرضاه . .
وذهنه لم يستقر بعد على رأى .

إن به حتماً رغبة أكيدة فى علاج إبراهيم . . فهو يقدره
ويحبه . . ويكره أن يضيع عبقرى مثله . . ولكنه أيضاً
لا يستطيع ترك مرضاه والتنقل فى الاسكندرية ليستقصى
أسباب العلة . . كأنه مخبر سرى . . إن واجبه كطبيب نفسانى
لا يحتم عليه ذلك . . إن ذلك أكثر مما يطلب منه كطبيب .

وجلس على مكتبه . . وطلب المريض الأول .
وفتح الباب . . ولم يدخل أحد المرضى بل دخلت راجية .
وبدت عليه الدهشة وسألها وهو يسمح منظاره محاولاً
إخفاء دهشه :

— خيراً . . .

— إنى آسفة جداً لإزعاجك وإضاعة وقتك . .
ولكنى أرجوك أن تعتبرنى أنا الأخرى إحدى مرضاك .
لقد سألتنى فى أول الأمر معاوتتك . . ولقد بذلت كل
ما أستطيع . . وأنا الآن أسألك معاوتى .

— ليس هناك قط ما يدعو لهذا الاعتذار . . إنى أحب

معاوتتك من كل قلبي .. ماذا تريدان ؟

— لقد عرفت من الدكتور زكي كل ما حدث ..
وسمعت منه قصة ليلي والمروحة .. وعلمت أن هناك عقدة
كامنة في إبراهيم أثارتها حوادث جديدة ، وأن العلاج قد
يكون أتم لو سافرنا إلى الإسكندرية وأنت معنا .. ثم
علمت أنك متردد في السفر .

— ليست المسألة مسألة تردد .. ولكنها ارتباط
بواجبي نحو مرضاى الآخرين .

— إني أتوسل إليك يا دكتور .. لقد سمعت مني كل
قصتي معه .. سمعت مني ما لم أجسر على قوله لأحد ..
لأنك بعثت في نفسي الثقة .. فأرجو ألا تتخلى عني . انقذه
من أجل .. إن حياتي معلقة به . لاتدع القدر يحطمني ..
ويبدد أمانى ..

ولم تستطع أن تكبت دموعها .. فانسابت من عينيها
وأخذت ترتجف أمام الطبيب .

ونفض الرجل الطيب الرقيق فربت كتفها في حنو قائلاً :
— كفى .. كفى هذا .. لاتخشى شيئاً .. سأذهب معك
ولن أتركه حتى أسلمه لك معافياً بإذن الله .. إنك فتاة
تستحق أن يكافح الإنسان من أجلها .. كفى عن البكاء ..

إنك - بإيمانك ووفائك - أقوى من أن تسيل لك عبرة .
وفي خلال يومين كان الجميع قد عادوا إلى السيوف أو
إلى مسرح الأحداث .

وبدأت أولى محاولات توفيق مع إبراهيم .
طلب توفيق من راجية أن تحضر له المسجل . . وقبيل
المغرب حملت « سيدة » الجهاز وهبطت راجية من حجرتها
تتبعها إلى الخارج ولحها الجد وقد جلس في حجرة المكتب
مع عبد الرحمن الذى انهمك في بحث بعض الأوراق وصاح
بها الجد متسائلا :

- إلى أين ياراجية ؟

- سنحمل المسجل إلى بيت إبراهيم .

- ولمه ؟

- لقد طلبه الطبيب المعالج حتى يجرى به على إبراهيم

بعض المحاولات .

- ولماذا لا ترسلينه مع سيدة ؟

- لقد طلب منى الدكتور الحضور .

- ولكن . . أتظنين من اللائق بعد ما حدث أن

يراك الناس تترددين على بيته ؟

- لن يرانى أحد يا جدى . . وإني غير ذاهبة للتسلية ،

أو اللهب .. إني أحاول أن أساعده في محنته ، وأعتقد أن هذا واجب عليّ .

— تقصدين أنه كان واجباً عليك ؟

— وما زال . . .

— ليس هناك ما يحتم عليك الذهاب إليه .. وليس هناك أبداً ما يبرر صلتك به بعد أن فككت خطبتكما .. وعقول الناس لا تفهم غير ذلك وألسنتهم لا ترحم أحداً .

— لا يهمني الناس يا جدي .. إني أفعل ما أراه صواباً ، وليقولوا ما يشاءون . إن إبراهيم مصاب وأنا أملك له بعض المعونة .. فليس من المعقول أن أمنعها عنه لأنني أخشى كلام الناس .. إنها مسألة إنسانية بحسب .. إن الإنسان يجب أن يقدم للرضى كل ما يملك من معونة .. ولو لم يكن له بهم أدنى صلة .

وبدأ الجد يفقد هدوءه وقال في حدة :

— لا تكوني عنيدة ياراجية .. ألم يكفك ما حدث ؟

لو سمعت نصيحتي من أول الأمر لما . . .

ولم يكن عبد الرحمن قد نبس ببنت شفة ولكنه عندما وجد أن جده بدأ يشور وأنه يوشك أن يخوض في حديث مشير لن ينتهي .. بدأ تدخله مقاطعاً جده :

— دعها وشأنها يا جدى .. إن إبراهيم محطم منهار ..
ويجب أن نقدم كلنا ما استطعنا من مساعدة .. إنه إنسان
لم يسيء إلينا ولم يخطيء فى حقنا .. ولا يستطيع أحد أن
يعرف الظروف المحيطة به .

— ولكن يا عبد الرحمن .. يجب أن تفهم راجية ..
أن الوضع ...

— إنها تفهم كل شئ .. راجية ليست صغيرة .. إنها
إنسانة عاقلة ولقد قلت لها إن التجارب خير معلم لها ، فدعها
وشأنها .. خذ هذا حساب السندات الأخيرة التى اشتريناها
من شركة الحرير .

وأنهى عبد الرحمن بهذا الحديث مع راجية وأفلتت
راجية وراء سيدة إلى بيت إبراهيم .

وكان توفيق قد جلس فى الشرفة وفى الداخل جلس
إبراهيم بحقيبته على إحدى الأرائك بجوار الدكتور زكى
وقد بدت عليه السكينة والهدوء .

وأشار توفيق لسيدة بأن تضع المسجل فوق منضدة
فى الشرفة . وقال لراجية :

— أأحضرت الشريط الذى سجل عليه حديثكما ؟

— أجل .. هذا هو .

ثم أخرجته من صندوق صغير للأشرطة .
— أرجوك إذاً أن تبدئي بإذاعته . . . دعى الصوت
خفيضاً حتى لا يصدمه .

— إن الشريط يبدأ باللحن الذي سجله أولاً فهل
أذيعه كله ؟

— أجل . . . لا بد من إذاعته . . . حتى يهيب لنا الجو
المطلوب ويمهد للحديث .

ووضعت راجية الشريط . . . وبعد لحظة علا اللحن .
رقيقاً خفيضاً .

ووصل اللحن إلى مسامع ابراهيم . . . وأخذ في الانتباه
واليقظة . . . وأرهف أذنيه . . . وأحس براحة لذيدة واللحن
ينساب في نفسه .

هذا لحن جميل . . . إنه ليس غريب على مسامعه . . . إنه
حبيب إليه . . . وأراح رأسه على ظهر الأريكة وأغض
عينيه في متعة .

وانتهى اللحن . . . ومضت فترة وهو في استرخاء لذيد ،
حتى سمع فجأة صوتاً يهتف :

— أين أنا ؟

وصوتاً آخر يجيب :

— بين ذراعي .

وتملكته رجفة من قمة رأسه إلى أخمص قدميه .

واستمر الحديث ، وازدرد ريقه وكأن في حلقه غصة .
وتوترت أعصابه . . وتلاحقت أنفاسه . . وحاول أن يصم
مسامعه عن الصوت المندفع إليه . . ولكنها زادت إرهافاً
وأخذت تلتقط الألفاظ المناسبة في وضوح :

— راجية . . أتخبيني ؟ ! قولها لي فإنني أحب أن أسمعها

من شفيتك .

وازداد توتر أعصابه وأحس بشئ يعتصر في باطنه
فيسبب له ألماً شديداً . . وحاول مرة أخرى أن يبعد مسامعه
عن الصوت . . ولكنه ازداد وضوحاً :

— لم يعد لي غنى عنك لحظة واحدة .

ووجد نفسه يعدو لاهثاً والصوت يلاحقه كأنه المطارق
تتهاوى على رأسه :

— بغيرك . . لا أستطيع أن أعيش . . أبداً . . أبداً .

واستمرت المطارق تهوى عليه :

— أبداً . . أبداً .

ونذت عنه صرخة مروعة وهو يصيح :

— كني . . كني .

وأسرت راجية فأوقفت الجهاز .

واستغرق إبراهيم في نوبته . . وتصيب العرق من جبينه
وهو يعدو بين الرمال . . هارباً من شئ . . أو عادياً وراء
مجهول . . وخيم عليه الضباب وتلاطمت حوله الأمواج .
وهز توفيق رأسه وقال :

— لا فائدة . . أعيدى الجهاز ياسيدة .

وأخفت راجية وجهها بين كفيها واهتز جسدها بالبكاء
وأقبل عليها توفيق مهدئاً :

— لا داعى لهذا . . إنها مجرد محاولة . . أماننا غيرها ،
محاولات أخرى كثيرة .

وتوالت المحاولات بعد ذلك . . وتوالى الإخفاق . .
وازداد اليأس ، وحاولت راجية جهدها . . أن تستعيد إلى
نفسه ذكرياتهما معاً . . فصحبته إلى كل مكان كان لهما به
ذكرى محببة . . قال عنها إنها ستخلد في نفسه . . صحبته إلى
الشاطئ . . وإلى المتنزه النسائي بجوار الحقول . . وإلى
الحدائق ، وإلى معرض الرسم .

ولكن كل ذلك ذهب سدى . . كان يتحرك كأنه آلة
صماء . . لا وعى ولا فهم ولا إدراك . . لاشئ سوى

الاستسلام المطلق والشروء والذهول . . والإطباق على
الحقبة ذات المحتويات التافهة .

و ذات صباح جلس توفيق في الحديقة وأقبل مدبولي يحمل
الشاي .

وجرى حديث بينهما أشبه بالثرثرة . . « والدردشة » .

قال توفيق متلطفاً مع الرجل وهو يصب له الشاي :

— كيف الحال يا عم مدبولي ؟

— والله رديء يا سيدي الدكتور . . كلما رأيت سيدي

إبراهيم وهو على حاله هذه أحسست أن سكيناً يمزق

أحشائي . . سيدي إبراهيم الرجل الطيب الأمير يحدث له

هذا ؟ ! أمعقول أنه لا يعرفني ؟ عشرة هذه السنين الطوال ؟

ثم ينظر إليّ وكأنه ينظر إلى خادم غريب . . ومن غير

سبب ! !

— ليس هناك شيء من غير سبب يا مدبولي . . لا بد

أن يكون هناك سبب .

— والله يا سيدي من غير سبب . . لم يحدث له شيء

أبدأ . . ولا حاول أحد أن يزججه أو يضايقه . . لقد كان

« مبسوطاً » أربعة وعشرين قيراطاً ، وما أظنني رأيت في حياتي

أسعد بما رأيت هنا .

— أكان سعيداً طول المدة؟

— أجل . . عدا الفترة التي رده فيها سيدى عبد الوهاب
ولكن الأزيمة ما لبثت أن انفجرت وأضحى كل شئ على
ما يرام . . وظل يرتع هو وسيدتى راجية . . كأنهما طفلان
صغيران يلهوان . . حتى بدأت تظهر عليه علامات ذهول
وشرود .

— منذ متى لاحظت هذا؟

— قبل إصابته بيوم أو يومين . . ولكنى لم ألق إليه
بالا . . فإني أعرف أنها فترات يغرق فيها في ذهوله . .
ويقول لى إن الوحي يهبط عليه . . . وقد ظننت أنها نوبات
وحي كما كان يقول لى . . ولم أدرك أنها بوادر كارثة ستحل
بنا، حتى وقعت الواقعة . . إنها ياسيدى « عين أصابته » .

— ومتى رأيته أول مرة على حاله هذه؟

— فى الصباح . . وقد أقبل على شاحب الوجه زائع
البصر يضم الحقيبة تحت إبطه .

— وأين كانت الحقيبة؟

— لا أعرف .

— ألم ترها من قبل؟

— أبداً . . ولا أدري عنها شيئاً . . إنها لم تصل إلى يده

إلا هذا الصباح لأنى عندما أعددت له الفراش فى الليلة السابقة لم يكن لها أثر .

— إذن من أين أتى بها ؟

— من يدرى .

— ألم يترك أحد ؟

— مطلقاً .

— أو ائق أنت ؟

— لقد كنت آخر من نام فى الدار . . وأغلقت الباب

يذى هذه .

— إذا فكيف وصلت إليه ؟

— ربما قد أتى بها من الخارج .

— متى ؟ . إذا كان قد نام وليس لها أثر ، فكيف يأتى

بها من الخارج ؟

— فى الصباح وهو يستريح كعادته . . ربما وجدها

فى الطريق أو على الشاطيء .

— أكان عائداً من الخارج عندما رأيته ؟

— أجل .

— أمن عادته الخروج كل صباح ؟

— تقريباً . . إنه دائماً يستيقظ مبكراً . . ومنذ أن

حضرنا إلى هنا .. تعود أن يرتدى القميص والبنطلون
وحذاء خفيفاً .. ويخرج للسير أو للسباحة ثم يعود بعد ذلك
للإفطار .

— وماذا فعل في هذا اليوم ؟

— خرج كعادته .

— أرايته عند الخروج ؟

— لا .. لقد خرج قبل أن أستيقظ .

— وهل كان يبكر دائماً في الخروج كما بكر في هذا الصباح ؟

— غالباً .. فأنا لا أراه إلا حين عودته ، وقد أعددت

له الشاي والإفطار .

— أديك فكرة عما كان يفعله في خروجه ؟

— لاشئ أكثر من المشي أو السباحة .

— في أي جهة ؟

— ليست لديه جهة معلومة .. أحياناً يسير بين الحقول ،

وأحياناً يتجه إلى الشاطئ وهو يحب السير الطويل .. لقد

خرجت معه ذات مساء وسار بي حتى غارت قواي ولم تكند

تحتملني قدمي .

— وفي اليوم الذي حدثت فيه الإصابة .. هل تدرى إلى

أين ذهب ؟

- والله لا أعرف بالضبط .. ولكنني أظن أنه منذ
بضعة أيام قال لي من باب التفاخر : أتدرى إلى أين ذهبت
اليوم يامدبولي؟ فلما أجبته بأني لا أعرف . قال : حذر ..
وظل يسألني حتى قال لي أخيراً أنه ذهب إلى .. إلى
- إلى أين ..؟! .
- إلى .. إلى .. لقد كنت أذكره .
- حاول أن تتذكر .
- ولكنني لست واثقاً أنه كان هناك في هذا اليوم .
- لا بأس .. ليس هذا مهم .. تذكر .
- إلى .. إلى .. اسم غريب .. كان اسم طير ..
أجل .. أجل .. تذكرت .. إلى العصافير .
- تقصد .. العصافرة؟
- أجل بالضبط العصافرة .. لقد سار إلى هناك .
وفي تلك اللحظة أقبل الدكتور زكي وتناول مقعداً ،
وجلس بجوار توفيق وتساءل مدبولي :
- أأحضر لك شيئاً يا سيدي؟
- لا .. متشكر .
- وحمل مدبولي أدوات الشاي وعاد إلى الدار .
وقال توفيق :

— كنت أتحدث مع مدبولي وعلمت منه أن إبراهيم
كان يستريح على الشاطئ صبيحة ذلك اليوم الذي أصيب فيه .
— وماذا في ذلك ؟

— لقد عاد ومعه الحقبة وهو في حالة الذهول التي
أصابتة .

— أظن قد حدث له في أثناء سيره ما يمكن أن يكون له
علاقة بالحادثة ؟

— ولم لا !

— ولكن كيف يمكن أن تعرف ما حدث له ، والشاطئ
طويل لا حدود له ؟

— لقد قال مدبولي أنه منذ بضعة أيام سار إلى العصابة .
— وماذا يفيدنا من ذلك ؟

— من يدري . . على أية حال . . لست أرى ضرراً
من الوصول إلى هناك والسير على الشاطئ . . ألدك مانع ؟
— أبداً .

* * *

وفي صباح اليوم التالي استيقظ الاثنان مبكرين وقادزكي
عربته وبجواره توفيق . وتحركت العربة من السيوف فعبرت
تقاطع شارع أبي قير عند « الكوبري » الواقف عنده

عسكري المرور ثم اتجها إلى فيكتوريا عابرين مزلقان السكة
الحديدية ثم دارا يمينا حول كلية فيكتوريا حتى وصلا الشاطئ
واتجها إلى سيدى بشر وتجاوزاه حتى بلغا أحد أكشاك
السواحل وبدأ زكى يتمهل بالعربة حتى وقف وهو يقول :

— أظن هذه هي العصافرة ؟

وقرأ توفيق اللافتة :

— أجل هنا .

ثم تلفت كل منهما حوله وقال زكى :

— لست أجد ما يسترعى الالتفات .

— دعنا نترك العربة ونجول قليلا .

وهبطا من العربة وكانت الريح شديدة تقذف بالموج
متعالياً نحو الشاطئ فلا يلبث أن تتكسر حدته وينبسط
فوق الرمال .

وكاد المكان يكون خالياً إلا من جنسدى الشاطئ بمنظره
العتيق وحزامه ذى الطاسة النحاسية العريضة .

ولم يطل بهما السير حتى عادا إلى العربة وقال زكى
في يأس :

— لا فائدة .. ماذا يمكن أن نجد على الأمواج أو بين

الرمال ، وركب توفيق بجواره في صمت ، وهمّ زكى بأن يدير
اتجاه العربة للعودة ولكن توفيق قال له :

— دعنا نسير قليلا . .

وسارت العربة في اتجاه المنتهزه . . وقال زكى وهو يهز
رأسه في حيرة :

— حكاية عجيبة !! لست أدري لها علة . . حتى الحقيقة
التي كنا نظن من فرط حرصه عليها أن بها سرّاً . . اتضح
أن لاها . . ولا عليها . . نظارة شمس و « أشارب » . .

— ولكن ترى لمن تكون ؟

— ظننتها في أول الأمر لراجية كما ظننت أنت ، ولكنها
قالت إنها لم يسبق لها أن رأتها .

— يسدولى أن في المسألة . . امرأة أخرى . . وإلا فمن
أين له بالحقيقة ؟

— ربما وجدها على الشاطئ . .

— ربما ؟

واستغرق الاثنان في صمت لم يلبث أن قطعه زكى بقوله :
— من ناحيتي أنا . . يخيّل إليّ في كثير من الأحيان أن
جد راجية . . قد يكون له دخل في المسألة . . أنا أعرف
إبراهيم جيداً . . أعرفه إنساناً في منتهى الحساسية . . أتذكر

ما قلته لك عن ضميره الحى المرهف . . الذى يأبى دائماً إلا أن يثقل عليه ويظهره بمظهر المقصر الذى كان يمكنه أن يفعل خيراً مما فعل . . ويحمّله وزر كل سيئة تصيب من حوله ويجعله دائماً القلق خشية أن يكون قد تسبب فى شقاء أحد أو خذلان أحد . . أتذكر هذا ؟

— أجل أذكره .

— يخيل لى أنه يحتمل جداً أن يكون فى أحد أحاديثه مع جد راجية . . قد فهم منه أنه قد أضع مستقبلها . . وأنه حرّمها حياة أفضل . . ولذلك صمّم أن يتركها . . ولم يحتمل التضحية فأصابته الصدمة التى أصابته .

— تعليل معقول . . ولكن ما دخل الحمية ؟! وما سبب حرصه العجيب عليها ؟!

وهز زكى رأسه فى حيرة . . وعاد توفيق يتساءل :

— والمروحة . . ما سر هذا الخوف الفظيع منها ؟

— ألم تفسره أنت بحادث أخته ؟

— أجل . . ولكن هذه عقدة قديمة . . لا بد أن يكون

قد أثارها شئ جديد . . ما هو هذا الشئ . . الذى جعله ينهار

تماماً . . والذى جدد خوفه القديم من المروحة ؟

وكانت العربة قد بلغت المندرّة وأوشك زكى أن يدير

العربة للعودة عند ما أمسك توفيق بيده فجأة وصاح به :

— قف .

وسأله زكى في دهشة :

— ألم ؟

— أنظر !! ألا ترى ؟

— ماذا ؟

— هذه الطاحونة القديمة .

وعلى ربوة عالية كانت تستقر إحدى طواحين الهواء
مواجهة الشاطئ وقد تعالى بناؤها الحجرى العتيق باسطاً
ذراعيه - كما قال إبراهيم - إلى السماء . . . كأنها ماردمخيف .

وهبط توفيق من العربة قائلاً :

— تعال .

— إلى أين ؟

— نرى هذه الطاحونة . . . فقد يكون بها ما أزعج

صاحبنا .

وهز زكى رأسه في دهشة وهو يتبع توفيق وتمتم قائلاً :

— لست أرى بها أى سبب للإزعاج .

وأخذوا يخوضان فى الرمال التى تناثرت فيها الحشائش البرية

والصبار . . . متجهان نحو الطاحونة وقد بدت حولها هياكل

مقابر قديمة .. أخنى الزمن على قوائمها فتهاوت وتآكلت .
وبدا المكان خرباً موحشاً والريح تنفذ خلال أذرع
المروحة الخشبية التي يلي قماشها وتمزق .. فتصدر من خلاله
صفيراً أشبه بالنواح .. حتى بدت الطاحونة العجوز أشبه
بشكلي بين القبور .

ووصلنا إلى بابها بعد أن دارا حولها دورة قصيرة ..
ووقف زكي أمام الباب المغلق متسائلاً :

— أترى يسكنها أحد؟

— دعنا نرى .

وطرق الباب بقبضة يده .. وتجاوبت في الربوة الخالية
صدى الطرقات . وبعد برهة صدر من وراء الباب صوت
أجش يهتف متسائلاً :

— من هناك؟

— أنا .. افتح يا حاج .

— ماذا تريد؟

— أريد مشاهدة الطاحونة .

وفتح الباب .. وهو يصر صريراً مزعجاً ... ووقف
وراءه عجوز مغضن الوجه أبيض الرأس ، واهن العظم .. قد
كسا جسده صديراً وسرولاً فضفاضاً .. ونظر إلى الرجلين

وقد بدت عليه الدهشة وأقرأه الزائر ان السلام . . فأجاب
الرجل مرحباً بصوته الأجل:

— وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . . أهلاً وسهلاً . .
تفضلاً .

ثم أفسح لها الطريق وفتح الباب على مصراعيه .
— متأسفين يا حاج . .

وتوقف توفيق كأنه يستبين اسم الرجل ، فأجابه
الحاج بقوله :

— محسوبك شلبي .

— متأسفين يا حاج شلبي . . لم نكن نقصد إزعاجك . .
ولكن منظر الطاحونة أغرانا بمشاهدتها .

وبدت على الرجل علامات الفخر . . وسرّه أن
طاحونته مازال بها ما يغرى بالمشاهدة . . وقال في تواضع :

— تفضلاً . تفضلاً . ليس هناك أى إزعاج . ولو أن

الطاحونة . . قد أتلّفها البلي . . وعنى عليها الزمن ، كما عنى
على صاحبها .

— ربنا يعطيك الصحة .

— ولا صحة ولا عافية . . نحن نقول يا الله حسن

الختام . . أناخذ زمننا وزمن غيرنا !

— البركة فيك يا حاج .

— الله يحفظكم .. تفضلاً .. عدم المؤاخذه .. الطاحونة
مظلمة .. ولكن عينيكما ستنعوان ظلمتها بعد لحظة ..
وعندما نصعد إلى أعلى سنجد نوراً أكثر .

وكان توفيق يدير دفة المجاملة بمهارة فقال للرجل :

— نورك يكشف .

— الله ينور عليك .

ووقف الثلاثة في قاع الطاحونة وقد بدا أشبه بساحة
صغيرة مستديرة وضع فيها كل ما يملك الرجل من أثاث ..
فراش خشبي ومشجب من المسامير وبعض صفايح وصرر
ومواجير ، وألقى توفيق على ماحوله نظرة فاحصة ورفع رأسه
إلى أعلى فوجد السلم الخشبي المتآكل يدور صاعداً إلى أعلى .
كان منظر الطاحونة عجيباً ، بعروقها الخشبية الغليظة
المتقاطعة والنزوس الكبيرة والرحى الضخمة .

وتساءل زكي في دهشة :

— أهذه الطاحونة كانت تدور ؟

وابتسم العجوز :

— هذه الطاحونة التي تراها كالهيكال البالي .. كان لها

ماض .. إنها لم تكن تبطل أبداً .. كنا نعمل بها ليل نهار .

— ومنذ متى وأنت هنا؟

— منذ أن عرفت الحياة .. لقد ولدت بين جدرانها ،
وقضيت عمري فوق رحاها ، وسأموت في باطنها .

— بعد عمر طويل إن شاء الله .

— طويل؟! أبعـد كل هذا يبقى لنا عمر طويل؟ لقد
أخذنا أ أكثر من كفايتنا .. يجب أن نتوقف عن الحياة .. كما
توقفت الطاحونة .. لقد أصابنا من البلى ما أصابها .. ولكنها
كانت أسبق منا إلى الموت .

— ولكن كيف كانت تدار؟

— نضع القمح في مكانه أعلى الطاحونة .. سأريك
إياه عندما نصعد .. فيربط في مجرى يصب في وسط الرحى ،
وعندما تفك السيور يدفع الهواء المروحة فتتحرك التروس
التي تدير الرحى فيطحن القمح وينزل الدقيق في أنابيب من
القماش ، حيث نعبئه في الصفائح .

— والآن .. ألا يمكن تشغيلها؟!

— لا أظن .. لقد بليت السيور وكسرت المراوح
وتمزق قماشها وتآكلت تروسها .. انتهت كما ينتهي كل شيء ..
أبلاها الزمن الذي لا يرحم حتى الحجارة .. على أية حال
لقد فعلت ما عليها .. أدت واجبها وأكثر من واجبها ..

لقد أطعمت جيلاً بأكمله . . . ويكفيها كبرياء وغرماً أن تقف
مصلوبة رافعة الهامة . . . منتصبه القامة . . . غيرها قد رقدت في
باطن الأرض ، لا يستطيع أن يصلب عظمه أو يقيم عوده .
وكان توفيق ينصت إلى حديث العجوز وقد أخذت
عيناه في فحسه وفحص ماحوله . . . وأخيراً قال متسائلاً :

— أتبقى هنا دائماً يا حاج شلبي ؟

— وإلى أين أذهب إذا لم أبق هنا ؟ ! إن هنا مأوى .

— ألا تخرج لترى الدنيا ؟ !

— دنيا !!

وضحك الرجل في سخرية ثم أردف وقد أطرق برأسه :

— ماذا أرى في الدنيا أكثر مما أرى هنا . . . عجلة تدور

كما تدور المروحة . . . واحدة تديرها ريح الزمن والأخرى

تديرها ريح البحر ، واحدة تطحن بأيامها أبناء آدم والأخرى

تطحن بمجارتها حبات قمح . . . وفي النهاية . . . يصبح هذا تراب

وهذا دقيق . . . ومن التراب ينمو القمح . . . ومن الدقيق ينمو

ابن آدم . . . والعجلة تدور ، لاتشعر بهذا ولا بذلك ، والذي

يذهب هنا . . . ينبت ذاك . . . لافارق بين ابن آدم وحب القمح

إلا الغرور . . . يظن نفسه شيئاً . . . وهو حبة في الرحي .

ونظر الرجلان إلى العجوز في دهشة . . . لشدة ما صدق

في كلمته . . . حتى الطاحونة . . . لها فلسفة .

وتقدم الرجل أمامهما صاعداً السلم الخشبي وهو يقول :

— تفضلاً . . . إلى أعلى . . . أريكما الرحي والتروس

وموضع القمح . . . احذرا جيداً وانتقيا موضع أقدامكما . . .

فالخشب يكاد يهوى .

وصعد الثلاثة الدرج المتآكل وهو ين من كل قدم تطؤه .

وأخيراً توقف الرجل .

وتلفت توفيق حوله فوجد الطابق العلوى قد أحاطت به

النوافذ الضيقة وتوسطه حجران مستديران ثقلان نفض

عنهما إطار من الحديد وبدا أنهما كانا يدوران بعمود

ركب في وسطهما يديره ترس كبير من أعلى . وبدأ الرجل

يشرح كيف كانت تعمل الطاحونة ؛ وعندما أتم شرحه اتجه

توفيق إلى النافذة المطلة على البحر فصدمت وجهه ريح رطبة

شديدة وأبصر من خلال النافذة جزءاً من الرمال والأعشاب

المحيطة بالطاحونة وتلاها جزء من الطريق . . . ثم أخذ المنظر

يتسع شيئاً فشيئاً كلما تباعد وبدت له رمال الشاطئ خالية

تنبسط عليها الأمواج المتلاطمة حتى تتمحى .

واستطرد توفيق في الحديث سائلاً الرجل :

— أبقى هنا دائماً ؟ ! ألا تغادر الطاحونة أبداً ؟

— لا يخلو الأمر من شوط هنا وهناك .. جرياً وراء
القوت حتى لا نموت جوعاً .. والله لا ينسى عبده .

— ألا يزورك إنسان ؟

— أحياناً .

— ألم يزرك أحد قريباً ؟

— والله لا أتذكر .

ووجد الرجل أن وقفة الزائرین قد طالت فقال وهو
يشير إلى أريكة خشبية :

— تفضلاً .. اجلسا .. أم تفضلان الهبوط إلى الدور
الأرضي حيث الجلسة أكثر راحة ، وحتى أستطيع أن
أصنع لكما فنجاناً من الشاي ؟

— أكثر الله خيرك يا حاج .. لا داعي لأن تتعب
نفسك .. إننا قد تناولنا الشاي قبل أن نأتي إليك .

وهبط الثلاثة السلم .

وعاد توفيق إلى استجواب الرجل :

— لم تقل لي يا حاج .. متى قدم إليك آخر زائر ؟

— والله يا ابني .. لا أذكر .. أظن منذ شهرين .

— بعد هذا .. ألم يزرك أحد ؟! تذكر جيداً !

— الذاكرة قد وهنت .. لم تعد تعي من أمسها شيئاً .

— حاول أن تذكر .. ألم يترك أحد منذ أسبوع في

الصباح المبكر؟

— في الصباح المبكر !!

وصمت برهة ثم رفع حاجبيه وهتف :

— أجل .. أجل .. تذكرت .. ولكنه لم يكن زائراً ،

إنه لم يحاول مشاهدة شيء .. إنه لم يكن مخلوقاً طبيعياً ..

أو على الأقل .. لم يكن في حالة طبيعية .. كأن به شيئاً .

— كيف؟ .. وماذا دعاه إلى الدخول؟

— لست أدري .. لقد حدثت المسألة كلها في دقائق

معدودات .. طرق الباب طرقات عاجلة .. ولم ينتظر حتى

أجيبه أو أذن له بالدخول بل اندفع بسرعة إلى الداخل

وقد تلاحقت أنفاسه وتلفت حوله في حيرة وعند ما وقع

بصره على السلم سألتني قائلاً : أستطيع أن أصعد إلى أعلى

بضع دقائق .. ثم اندفع صاعداً قبل أن أجيبه بشيء .

وتوجست منه خيفة وظننته هارباً من أحد وتبعته إلى أعلى

لأسأله عما به ، وعما إذا كنت أستطيع أن أساعده في شيء .

وعند ما وصلت إلى هنا وجدته قد وقف وراء هذه

النافذة وأخذ يحملق منها كأنه يرقب شيئاً على الشاطئ .

وهممت بأن أستطلع منه ماذا يرقب .. وماذا يريد عندما

انطلقت منه صرخة فزع مفاجئة كأنما قد أبصر ماروَّعه ، ثم اندفع يعدو إلى أسفل كالصاروخ وأنا في أعقابه محاولاً اللحاق به .. لأعرف منه شيئاً أو لأعينه على شيء ، ولكنه انطلق يعدو من الباب .

وصمت الرجل فترة .. يتمالك خلالها أنفاسه ، ولكن توفيق سأله في لهفة :

— وماذا أبصر من النافذة ؟

— وأنى لي أن أعرف .. لقد انطلق يعدو بين الرمال وتركني حائراً .. وعند ما صعدت إلى النافذة لأستطلع ما رأى لم أجد شيئاً البتة .. كان الشاطئ خالياً كما تراه .. ولم أشك أنه محبول .. وقلت لله في خلقه شئون .

— ألم تر شيئاً أبداً ؟

— أبداً .. أبداً .

وضغط توفيق على نواجذه غيضاً ودهشة وقال لزكى :

— عجباً !! ما كل هذه الطلاسم ؟! ما الذى دعاه إلى

الدخول .. فى مثل هذه العجلة ؟ ! وماذا رأى ؟

وسأله زكى وهو يهز رأسه فى حيرة :

— ولكن أو ائق أنت أنه هو ؟

— أعتقد هذا .

ثم التفت إلى العجوز متسائلاً :

— ما شكله يا حاج ؟

— شاب في مثل سنك أسود الشعر أميل إلى السمرة ،

يرتدى قميصاً وبنطلوناً . . طويل القامة عريض المنكبين .

وقال توفيق مؤكداً :

— إنه هو .. لاجدال في ذلك .

ثم وجه السؤال إلى العجوز :

— أكان يمسك في يده شيئاً ؟

— شيئاً كذا ؟

— حقيقة مثلاً . . ؟

— لا . . لا أظن . . لقد كانت كلتا يديه خاليتين .

وبدت على العجوز نظرات الحيرة والتشكك :

— ماذا فعل ؟ ! ولماذا تبحسون عنه ؟

— لا شيء . . لا شيء مطلقاً .

— أنا على أية حال لم أر منه أكثر مما رويت . . لم أره

قبل هذا ولا بعد هذا . . المسألة كلها — كما قلت لكم — لم

تستغرق سوى بضعة دقائق . . دخل مندفعاً وخرج مندفعاً

دون أن أستطيع إبقائه ولا مقاومته وأنا رجل عجوز أكاد

أجر ساقى . . وليس لي به أى شأن .

وقال توفيق مطمئناً :

— لا تخش شيئاً يا حاج . . إننا فقط نحاول الاستقصاء
عما فعله في هذا الصباح . . ألا تذكر شيئاً غير ما قلت ؟
— مطلقاً .

وأطرق توفيق برأسه مفكراً ثم قال بعد فترة صمت :
— متشكرين جداً يا حاج . . لقد أتعبتك معنا .
— العفو . . أنا لم أتعب في شيء . . كنت أود أن أقدم
لكم فناجين من الشاي .

— شاكرين فضلك . . السلام عليكم .
ومدّ توفيق يده وسلم على العجوز واضعاً في يده بضعة
قروش .

وحاول الرجل التمتع ولكن توفيق ألح عليه :
— خذ يا حاج . . لقد أضعنا وقتك وأتعبتك .
وضحك الرجل :

— أما عن وقتي فهو ضائع ضائع . . وأما عن التعب
فما أحسست منه شيئاً . . أ أكثر الله خيرك وزاد فضلك .
وغادر الرجلان الطاحونة وطافا حولها ثم عادا إلى
الشاطئ مرة أخرى دون أن يجدا شيئاً يسترعى الالتفات . .
وأخيراً اتخذ كل منهما مكانه في العربة .

وقال زكي متسائلاً وهو يدير العربة وقد وجد توفيقاً
مغرفاً في التفكير :

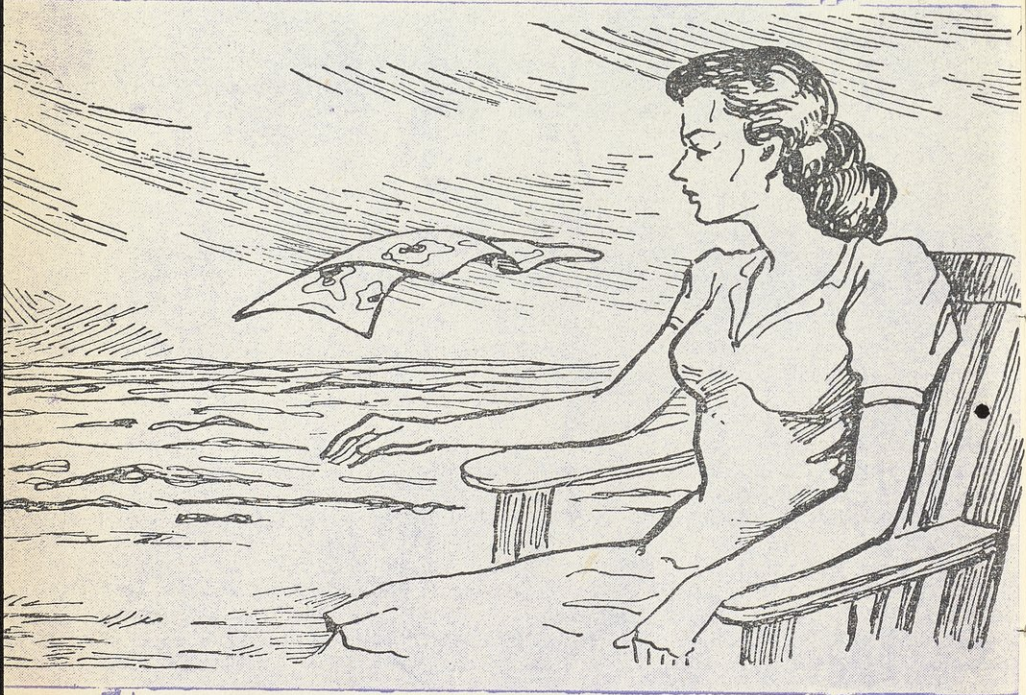
— فيم تفكر؟! أتعقد أن مارواه الرجل صحيحاً وأن
الشخص الذي دخل عليه هو ابراهيم؟

— أجل.. أرجح هذا.. لقد كنت واثقاً عندما وقع بصري
على الطاحونة أنها لا بد ستوصلنا إلى شيء.. إني أعتقد تمام
الاعتماد أن هذه الطاحونة أو شيئاً حولها.. هو الذي أثار
الجدوة الكامنة في نفسه منذ حادثة مروحة الهواء.. إن هذه
الطاحونة بها حل العقدة الأخيرة.. إنها لا بد أن توصلنا إلى
شيء.. فلو أعرف ماذا وقع عليه بصره من النافذة.. ما هذا
الذي أفزع، وجعله يعدو كالصاروخ.. إنه قطعاً لم يره بوجه
المصادفة لأن صعوده إلى الطاحونة، واتجاهه إلى النافذة يعني..
إنه يعرف أن هناك ما يرقبه.. ترى ماهو؟! لا بد أن نعرف.
— ولكن كيف؟

— كيف!.. إني سأغامر بالتجربة الأخيرة.. وإذا
نجحت فسيكون فيها شفاؤه، سأحاول أن أواجهه بالطاحونة.
وأخذت العربة تنساب في الطريق مخلفة وراءها الشبح
الطويل القائم على الربوة تصفر الريح في أجنحته وتحيط به
الشواهد.. كالظلال البالي، أو كالناحثة بين القبور.

الفصل الثالث عشر

ليلى الثانية





في صبيحة اليوم التالي كانت العربية تعدو مرة أخرى
مناسبة في طريق الكورنيش متجهة إلى المنذرة .

كان زكي يجلس أمام مجلّة القيادة وبجواره إبراهيم
مطبقاً بذراعه على الحقيبة وفي المقعد الخلفي جلس
توفيق يرقبه .

كان إبراهيم يجلس في حذر وهو يتساءل أسئلته الحائرة
التي لا تتجاوز شفقيته .

لماذا خرج به صاحبه في هذه الساعة المبكرة ؟ .. لقد
قال له إنه سيذهب به في نزهة على الشاطئ .

ولكن من قال إنه يريد أن يتنزه !! لقد كان يفضل
لو أنه تركه مستريحاً آمناً في حجرته .. ولكنه مع ذلك لم
يملك سوى الموافقة والاستسلام .

إن هذا أفضل كثيراً من الاستفسار أو المعارضة .

وكانت العربية تجتاز الشارع الموصل بين شارع أبو قير
والكورنيش ، ولم تكذب تعبير شريط التزام حتى أخذ الطريق
في الانحدار ، ورويداً ورويداً ، بدأ البحر بأواجه المتكسرة
وهديره الجياش .

وأحس إبراهيم برعدة سرت في جسده .. وتلاحقت
أنفاسه .

أف لهذه الزرقة المتزامية .. والعباب الخفيف ، لشدما يحس
أنه يكرهها ويخشها .

ماذا حدا بصاحبه أن يأتي به إلى هذا المكان المروع ؟!
ولفت العربية يمنة .. وانسابت في طريق الشاطيء ..
وقد ثبت إبراهيم عينيه على الأمواج المتلاحقة .

وبعد ؟!! أما لهذا البحر الزاخر من نهاية ؟! إنه يحس
منه بما يشبه الغثيان .. إنه يكرهه .. ويخشى هذه الرمال
الناعمة التي تكاد تبتلع السائر عليها .

وأحس بأنه يكاد يغيب في أحلامه المفزعة ، ويوشك
أن يعدو هارباً من الأصوات المروعة التي تلاحقه ، أو التي
تستغيث به .

ووقفت العربية .

حمداً لله .. لقد انتهت الرحلة البغيضة .

ولكن لم يقفان هكذا على الشاطيء ؟ .. أيخبرهما أنه
يكره البحر ويخشاه !!

ولكن إذا سألاه .. لمه ؟ فماذا يقول ؟ .

أجل .. لماذا يخشاه !! إنه ليس طفلاً .
وهبط صاحبه من العربة .. وبدأ له أنه لا بد له من
الهبوط كذلك .

إلى أين ؟
وأناه الجواب من صاحبه وهو يفتح له باب العربة
ويسأله :

— أتحب أن تتنزه قليلاً على الشاطئ ؟
وعادت الرعدة تسرى في بدنه .. وكان بصره مثبتاً
في المياه الزرقاء الصاخبة الموج وكأنه لا يستطيع انتزاعه
منها .

نزهة على الشاطئ ؟ وفي هذا المكان ؟
لا .. لا .. هذه المرة .. لن يستسلم أبداً .. سيقاوم
مقاومة عنيفة .. لن يتركهم يأخذوه إلى هذه الرمال الفظيعة
والأمواج المخيفة .. لا .. لا .

ووجد نفسه يهتف بحدة وهو يهز رأسه :
— لا .. لا .. إلى أكره البحر .. أكرهه ..
لا تأخذوني إليه .

وربت الرجل الآخر كتفه محاولاً تهدئته .. وقال
في رفق :

— لا تخف .. لن يأخذك أحد إليه .. دعنا نهبط لنتنزه
في الناحية الأخرى .. مادمت تكره البحر .

أجل .. هذا أفضل .. أفضل كثيراً .. ومدّ قدمه
فأخرجها من باب العربة وأسندها على الرصيف ثم أحنى رأسه
وغادر العربة وكنزه الثمين ما زال تحت إبطه .

ووقف على الرصيف وتنفس الصعداء وهو يدير ظهره
للبحر وقد أحس بشيء من الهدوء والراحة .. ولكنه لم يكذب
يرفع بصره .. ويرى ما أمامه حتى بدت عليه أقصى آيات
الرب والذعر .

هذا المارد الخيف يوشك أن ينقض عليه .. أجل ..
أجل .. إنه يبدو مروعا .. بضخامته وارتفاعه وفضاعة منظره ،
وهذه المخالب الخيفة المرتفعة التي توشك أن تطبق على أنفاسه
وتمزق جسده إرباً إرباً .

وهذا النواح الخيف .. الذي لا ينفك يصدر من جوفه
كأنه نواح الضحايا الذين أقترب منهم .

لا .. لا .. ابعده .. إنه لا يحتمل .. الغوث ..
النجدة .. الرحمة .

وأمسك الرجلان به من ذراعيه وهو يوشك أن يتهاوى
إلى الأرض ، وأخذوا يسيران به تجاه الطاحونة وهو يحاول

التلصص . . بكل ما يملك من قوى خائفة . . وجسد منهك
وأعصاب محطمة .

ووصلوا إلى الباب فطرقه زكي بقبضته ، ولكن توفيق
لم ينتظر حتى يفتح العجوز بل دفعه بقدمه فانفتح واندفع الثلاثة
إلى الداخل ، و ابراهيم قد تصبب منه العرق بغزارة وعلى وجهه
شحوب مخيف .

وصاح توفيق بالرجل العجوز في عجلة :

— يا حاج . . سنصعد بعد إذنك إلى أعلى . . لا تؤاخذنا
في هذا الإزعاج ، ولكن المسألة يتوقف عليها شفاء مريض .
وصعد الرجلان السلم الضيق المتآكل وهما يكادان يحملان
إبراهيم . . الذي تناقلت أقدامه وأحس كأنه يجر بهما أكياساً
من الرمال .

هذا المكان مخيف . . مخيف جيداً . . إنه يحس كأن به
شبحاً يطبق على عنقه ويخمد أنفاسه .
أما من مغيث !! أما من منجد !

وأخيراً وصلا إلى الطابق العلوى . . ومدّ توفيق يده
فجذب صندوقاً وضعه بجوار النافذة المطلقة على الشاطئ .
ثم تعاون مع زكي على وضع ابراهيم فوقه .

وأحس إبراهيم بريح رطبة تلمح وجهه واستنشق منها
شبهتاً ملاً به صدره وشعر ببعض الاتعاش . . وخف عنه
ذلك الحمل الذي كان يجم فوق صدره ويطبق على أنفاسه
وأخذت الأشباح التي تكاثرت عليه تتباعد رويداً رويداً .

وأدار وجهه إلى النافذة . . وألقى ببصره على ما وراءها .
وفجأة ندت عنه صرخة عنيفة تجاوزت صداها جدران
الطاحونة ثم وثب من مكانه وثبة عنيفة وهمّ بالاندفاع هابطاً
إلى أسفل . . ولكن توفيق كان أسرع منه حركة فحال بينه
وبين الهبوط وتعاون مع زكي على إعادته إلى مكانه .

وحاول إبراهيم التخلص وهو يصيح :
— لا بد لي من اللحاق بها . . لا بد أن أحدثها قبل
أن تذهب .

وأخذ ينظر حوله في ذهول ودهشة .
أجل . . أجل . . لا بد أن ينطلق في إثرها قبل أن تتحرك
العربة . . ولكن أين العربة؟! وأين هي؟ .
أما هي . . فليس لها من أثر . . لعلمها ذهبت .
أم تراه في أحد أحلامه المزعجة!
أجل . . لاشك في هذا . . ولكن من هؤلاء؟! ومن
أحضرهم في حلمه! . . لعلمها صاحباها .

ولكن ماله بهما . . إنها هي التي يهيمه أمرها . . يجب أن
يعدو إليها . وهم مرة أخرى بالهوض ، ولكن توفيق
كان يمسك بذراعه جيداً .

وعاد يحدق من النافذة . . في الأمواج المتلاطمة . .
والرمال المنبسطة . . وأحس كأن رأسه يوشك أن ينفجر ،
ووضع يده عليها وأخذ يضغط جبينه عليه يوقف ذلك
الانفجار ، الذي خلط كل شيء برأسه وجعل كل المربيات
تتشابك وتتداخل كأنه واقع في دوامة . . أو كأن المروحة
قد أطبقت عليه بذراعيها وأخذت تدور به .

وأخيراً بدأت الحركة تخف ، والدوامة تهدأ ، والمروحة
تتوقف . . ورويداً . . ورويداً . . بدأ ينجلي كل شيء .

إنه هنا . . في نفس المكان الذي كان به آخر مرة . .
هذه هي الطاحونة المشؤومة بعروقها البالية ، وتروسها
المتآكلة ورحاها المحطمة ، ومنظرها الكئيب الموحش . .
وهذا هو نفس المنظر الذي أبصره من النافذة . . الأعشاب
الشائكة ، والقبور المهدامة ، والطريق ، والرمال ، والأمواج
المتلاطمة .

وهذا هو زكي . . ماذا أحضره إلى هنا ؟ ! بل ماذا
جاء به هو نفسه إلى الطاحونة ثانية ؟ ! إنه لا يذكر كيف

أتى .. ولا يذكر أيضاً هذا الرجل الجالس بجواره ذى
العوينات والذي يرتب ساقه برفق ويقول له مترفقاً :

— كيف الحال الآن؟!

كيف الحال؟! .. إنه يشعر بانهايار شديد .. أعصاب
محطمة وأعضاء مهدمة ، وقوى خائرة ، ورأس مجهد متعب .

ولكنه لم يملك إلا أن يقول فى ضعف شديد :

— الحمد لله .

وسأله الرجل :

— ماذا أخذك من النفاذة؟! من الذى كنت تريد

اللاحق بها؟

وتذكر ما أخأه من النفاذة .. وأصابته قشعريرة
شديدة وأخفى عينيه براحتيه وقال :

— لا فائدة .. لا فائدة هناك .. لقد انتهى كل شيء ..

لقد ذهبت بلا عودة .

— من هى؟!

وأجاب إبراهيم فى شبه همس :

— لىلى .

— من تكون لىلى؟ لىلى أختك؟

ورفع إبراهيم حاجبيه فى دهشة شديدة ثم قال فى حزن :

— من أدراك بليل أختي ! إنها ذهبت منذ زمن طويل .
— إذن من تقصد بليلي ؟
— ليلي الثانية .. ليلي المسكينة .
ثم أطلق زفرة حارة وعاد يخفي وجهه بكفه ، وقال
توفيق مهدئاً :

— لا داعي لهذا .. قص عليّ ما حدث .. أتذكره جيداً ؟
— أذكره بالطبع .. ولكن لماذا تريد أن تعرف ؟
وأجاب زكي :

— يريد أن يعرف من أجلك .. إنه الدكتور توفيق
الذي يتولى علاجك بعد أن أصبت بالصدمة التي أصبت
بها .. . قص عليه يا إبراهيم كل شيء وثق به .
وتهد إبراهيم .. . وشرّد بصره من النافذة وأخذ يقص
القصة في صوت خفيض متهدج :

« كنت أسير على الشاطئ كعادتي كل صباح ، وطال بي
السير وأنا أبصر المكان من حولى خالياً ، والشاطئ على
طوله لا يكاد يطرّقه أحد سواي ، وكنت أشعر أن هذه
الزرقة الجياشة والصفرة المترامية قد باتت كلها ملكاً لي وأني
أتزّه في أملاكي الخاصة .

وبهذا الإحساس العجيب والنشاط الذي يملأ جسدي

والقوة التي تتدفق فيه . . أخذت أقطع الطريق في نشوة
والوقت ربيع ونسيم البحر يملاً جوانحي والشمس ما زالت
مختفية وراء المشرق تحاول جاهدة البزوغ من وراء البيوت
المتناثرة على الشاطئ .

وخبأة . . ووسط هذا الفراغ الطويل العريض وجدت
من يشاركني في أملاكي الخاصة . . ووجدتني أتوقف على
حاجز الشاطئ لأرقب هذا المخلوق العجيب الجالس وحده
في هذا الخلاء .

وأخذت أحملق في عجب شديد ، والسكون قد ران من
حولي إلا من حفيف الموج المنبسط على الرمال ، الموجة
تلو الموجة .

ووجدت بصرى قد لصق بها لا يبغى عنها حوًلاً كأن
بها شيئاً عجيباً . . ولست أدري ما كنهه . . يشدني إليها .

قد تكون وحدتها في ذلك الفراغ العريض والوقت
المبكر . أو تكون رقبتها البادية من هيكلها النحيل ووجهها
الدهيق . . أو يكون . . أكثر من هذا وذاك . . ذلك الشبه
العجيب الذي وجدته بينها وبين مخلوقة عزيزة عليّ فقدتها
وهي طفلة منذ أمد بعيد .

ووقفت أتأملها دون أن تشعر وقد جلست على الشاطئ

تشاغل بإبرتين طويلتين في يدها ولفافة من الصوف على
حجرها . . وقد ارتدت ثوباً بدا فضفاضاً حول جسدها
النحيل ولفت حول رأسها « إيشارب » من الحرير .

وعلى حين غرّة . . أطار هبة من ريح البحر
« الإيشارب » الذي يلف رأسها . . وشعرها الذهبي ، وانطلق
المنديل يعدو والريح تطارده فوق الرمال ، وبغير إرادة مني
وجدتني أفقر الحاجز وأعدو في الرمال ، أسابق الريح وراء
المنديل المنطلق .

وأخيراً أمسكت به واستدرت عائداً ليقع بصري عليها
تنظر في ابتسامة . . دهشة من هذا المخلوق الذي انبعث من
باطن الأرض ليحضر لها المنديل .

ووقفت أمامها أمد يدي بالمنديل فتناولته وهي تتمم

في استحياء :

— متشكرة جداً .

— العفو .

وانعقد لساني فلم يسعفني بأكثر من هذا . . وحارلت
أن أطيل الحديث فقد كانت بي رغبة خفية في الحديث إليها ،
ولكن حياها الطبيعي . . وحياتي الطارئ ، جعل الموقف
ينتهي عند هذا الحد . . ووجدتني برغمي أشير إليها برأسي

ثم أنصرف عائداً إلى الطريق .

وفي تلك الليلة . . وجدت صورتها تعاودنى مرة أو مرتين . . برأسها الجميل المطرق فى استحياء . . ويديها متشاعلتين بالإبرتين الطويلتين . . وفى كل مرة تطوف صورتها فى ذهنى تلاحقها صورة أخرى ، باهتة حائلة ، كاد الزمن يطمس معالمها ويخفى قسماتها . . هى صورة ليلي الصغيرة .

وفى اليوم التالى . . كنت أقف وقفة الأمس . . وأنا أرنو إليها بيمصرى . دون أن أجرؤ على التقدم إليها . . أو مبادأتها بالحديث .

ومرة ثانية . . وجدت الريح قد كفتنى مؤونة التمنى والتطلع . . وبهبة منها . . منحتنى فرصة أخرى . . كان علىّ ألا أتركها تفلت .

لم يكن المنديل هذه المرة هو الذى أطارته الريح . . بل كانت ورقة من كتاب انهمكت فى قراءته . . وسواء أكان عندى المنديل . . أم ورقة . . اندفعت مرة أخرى أسابق الريح فى مطاردة الصيد الثمين . . وسرعان ما أطبقت على الورقة الهاربة لأعيدها إلى قواعدها المستقرة على حجر الساحرة .

ووقفت أمد يدي بالورقة . وابتسمت هي وقد تملكها
استحياء أشد . . وأجابني بصوت هامس :
— متشكرة جداً .

وبرغم أنه كان يجب عليّ أن أحذر رد البارحة الذي يختم
الحديث فقد وجدته أتورط فيه قائلاً في ارتباك :
— العفو يا أفندم .

وكاد الحديث ينقطع والصمت يخيم بحيث لأجد لي مفراً
من الانصراف . ولكنها . . كانت أسرع مني وأقدر علي
وصل ما انقطع فقالت متممة :

— متأسفة جداً . . إني أتعبتك مرة أخرى . .
واضطرتك إلى الجري .

ثم أردفت قائلة وقد علت وجهها ابتسامة حلوة :
— ولكن ما حيلتي؟! تأبى الرياح إلا المعاكسة عند
مجيئك .

ووجدت باب الحديث قد فتح ، والكلفة قد أزيلت ،
والمزاح مستطاع ، فقلت ضاحكا :

— ليس لي إلا أن أشكر فضلها . . لأنها منحتني فرصة
طيبة .

— إذا فأتما على اتفاق ؟

— أنا والرياح ؟! ياليت .

— ياليت ماذا ؟! أيهمك أن تتفق مع الرياح ؟

— ومن الذى لا يهمه هذا ؟! ألا يكون الإنسان مع

الرياح أفضل من أن يكون ضدها .. على الأقل يضمن ألا تأتى

بما لا تشتهي السفن !

وزادت ابتسامتها وقالت فى جدل :

— وماذا تشتهي السفن ؟

— أمنيات كثيرة .

— مثل ؟

— أظن أول ماتشهييه ، هو أن تجلس قليلا ، أعنى ترسو

على الشاطئء برهة .

— وماذا يمنعها ؟

— تخشى أن تعصف بها الرياح وتطردها شر طردة .

— لو كانت عاقلة .. لرست برهة ثم سارت قبل أن

تعصف بها الرياح .

ضحكت .. واعتبرت قولها إذناً بالجلوس برهة ..

وهبطت إلى الرمال بجوارها .. وأخذت أتحدث معها متطلعا

إليها فى نوع من الشغف .

وتحدثنا حديثاً عابراً .. عن البحر والهواء ، وأشياء
أخرى نافهة لا أذكرها حتى بدأت أحس منها قلقاً ..
وتذكرت نصيحته .. فنهضت واقفاً ومددت يدي أصابعها
قائلاً :

— لقد آن للسفن أن تسير .. فإن الريح توشك أن تهب .
وعلت ضحكته وهي تشد على يدي قائلة :

— إنها سفن مطيعة طيبة .. مع السلامة .

وعدت إلى الدار وبي نشوة .. ولكنها نشوة غير
خالصة .. بل يشوبها كثير من قلق وخشية .. قلق مبعثه
وخزات متتابعة من الضمير .. وخشية منشؤها الإحساس
بأن التوازن يكاد أن يضيع والاستقرار يوشك أن يذهب .

وألحت صورتها على أكثر من الليلة السابقة ، وكانت
هذه المرة تلاحق صورتها صورة ليلي الصغيرة ، وصورة ثالثة
تلاحق الصورتين .. هي صورة راجية .

لقد بدأ النضال .. وبدأت الموازنة .. وكان على أن
أستوضح النفس ما خفي من أمرها ، وأسائلها ما مرادها ؟
ورحت أوكد لنفسي أني أحب راجية .. أحبها أكثر
مما أحب أي شيء في هذه الحياة .. بل أكثر من الحياة نفسها

وأن أرض حبنا أثبت من أن تهزها هزة يسيرة طارئة وأن
شجرته أصلب من أن تعصف بها نسمة خفيفة عابرة .

ورحت أوقف وخز الضمير بجزى أن المسألة لا تستدعي
كل هذا القلق . . وأن من الغباء أن أخشى على راجية من لقاء
عابر لفتاة لا أعرف شيئاً عنها . . حتى اسمها .

وذهبت إلى راجية . . لأؤكد لنفسى وفائى لها . .
وتناجينا تلك الليلة بأعذب المناجاة وأرق الحديث .

وفي الصباح التالى . . وبغير إرادة ولا تفكير ، كنت
أجلس على الرمال أمام الساحرة الرقيقة الشقراء . . بلا انتظار
معوونة من الريح ، أو إذن منها .

وفي هذه المرة . . لم أشعر بمجهود فى خلق الحديث . . لقد
زالت الكلفة . . وأقبل كل منا على صاحبه إقبال صديق حميم .
ولم أستطع أن أمنع رجفة سرت فى أوصالى عندما علمت
منها أن اسمها ليلى . . ولم أستطع أن أمنع نفسى كذلك من
استعادة صورة ليلي الصغيرة . . هاوية من عل . . مسجاة
على الرمال .

وسرعان ما طردت الشبح البائد والصورة الغابرة وأقبلت
على ليلى أقول مازحاً :

- أتستطيع السفن أن ترسو على الشاطئ كل صباح؟
- الشاطئ ممتد ، وحرية الرسو مكفولة .
- أقصد . . أن ترسو على هذه الميناء ذاتها؟
- هذه الميناء ذاتها؟ ولله؟
- لأنها أكثر ملاءمة .
- إذا كان الأمر كذلك فلا بأس من رسوها . .
- ولكن لفترة قصيرة .
- وإذا أطالت؟
- تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن . . وتطردها
- شرطردة .
- لا . . لا . . لا داعي لذلك . . إنها سترحل بمجرد
- أن تحس من الرياح أول هبة .
- اتفقنا إذآ؟
- أجل .
- وهكذا اتفقنا على لقاء دائم . . يستمر حتى أرى منها
- قلقاً فأرحل .
- ووجدت في يدها كتاباً سميكا فسألتها :
- أهذا هو كتاب الأمس الذي أطارته الريح؟

— أجل إن الكتاب كبير والغلاف رقيق ولذلك
يتفكك ورقه بسهولة .

— أأستعد إذا للعدو؟

— لا . . اطمئن . . إني أمسك به جيداً .

— ما موضوعه؟

— إنه قصة طويلة .

— أعجبتك؟

— لم أتمها بعد . . ولكنى كنت منذ لحظة أقرأ فى قطعة
لطيفة أعجبتنى .

— عن أى شئ؟

— إنها حديث على لسان بطلة القصة . . تصف أول
شعور لها بالحب .

— أأستطيع سماعها؟

ومدت يدها إلى الكتاب وقد فتحته على صفحة معينة
وأشارت بأصبعها قائلة :

— هنا . . أول هذه الصفحة . . خذ أقرأ .

— ولم لاتقرئين أنت؟ ! إني أحب أن أسمعها منك .

وعلا وجهها احمرار وأصاها ارتباك وقالت متلعثمة :

— أنا . . أقرأها . . أنا؟

- أجل .. ولمَ لا؟! ألا تعرفين التمراء؟
- أعرفها .. ولكن لا أظنني أجيد المطالعة .. إني أخطيء دائماً في التشكيل .
- وأنا لا أفهم فيه .
- إذا كان الأمر كذلك .. فسأقرأ لك .
- وأمسكت بالكتاب .. وما زال بوجهها حمرة الخجل ،
 ووجدتها تبلبل شفيتها بطرف لسانها ثم تبدأ القراءة :
- « وأحسست وأنا أحرق في الألق بحنين إلى شئ مجهول ،
 وبدالى كأنى شئ ناقص .. مازال له بقية .. هنا أو هناك ،
 وأنى أتلف على بقيتي .. وخيل إلى أنها تحوم حولي ..
 أو أحوم حولها .. وأنها تتوق إلى كما أتوق إليها .. وأن
 كلامنا سيظل يلهث في الحياة ويخبط حتى نلتقي فنصبح شيئاً
 تاماً كاملاً .. قائماً بذاته . »
- وصمت فترة .. وخيل إلى أنى أسمع صوت أنفاسها
 المتلاحقة .
- ورفعت عينيها عن الكتاب فالتقت بعيني وسألت قائلة :
- ما رأيك؟
- مدهش .
- أتود أن أكمل؟

— بالطبع .

وعادت تتم القراءة في صوتها الرقيق المتهدج :
« ولم أحاول أن أحدد لنفسي أى شكل خلقت
بقيتي ، وعلى أية صورة كوَّنت ، ولا حاولت أن أقترّب بها
من الحقيقة فأجسدها على هيئة معينة ، وألبسها لمخلوق بالذات
فقد كنت أجن عن ذلك . كنت أفضل أن أبقى هائمة وأن
أقول لنفسي إن هذه أوهام وأحلام ، على أن أعترف لها
بأنى - ببساطة - أسعى إلى الحب .. وأن هذه البقية التى
أتوق إليها .. إنسان حى كائن .. أشعر به يقترب من
محيط حياتى ويترك باب قلبى » .

وصمت مرة أخرى .. وسقط الكتاب على حجرها
وهى تشرّد يبصرها بعيداً فيما وراء الأفق والبحر الزجاج .
وبدأت أتأملها وقد رق منى الحس وأرهف الشعور
وأخذت أرقب طاقى أنفها الدقيقتين تنفرجان برقة والهواء
يندفع إليهما وصدرها يعلو ويهبط .. وأحسست برغبة
جارفة فى أن أضنها إلى .

وتمالكت نفسى .. وقلت أخرجها من صمتها وأوقظها

من سباتها :

— وبعد ؟

وانتفضت انتفاضة خفيفة وقالت لى متسائلة :

— وبعد ماذا ؟

— وبعد ما خشيت أن تعترفى بأنك تشعرين به يقترب

من محيط حياتك ويطرق باب قلبك ؟

— من هو ؟

— المجهول المنتظر .

— يطرق قلبي أنا ؟

— قلب من إذا ؟

— بطلة القصة . . إنها هي التي تقول . . ولست أنا .

— بطلة القصة ؟ . . أجل . . أجل .

وصمت برهة وعدت أقول وأنا أبتسم معتذراً :

— لست أدري ما الذى جعلنى أتوهم أنك تتحدثين عن

نفسك . . وأنت أنت بطلة القصة . . على أية حال . . إن

الحديث يمكن أن ينطبق على أكثر من واحدة . . ألم تشعرى

أحياناً وأنت تقرئين بعض الكتب أن الكاتب يكاد يعبر

عن إحساسك أنت وكأنه يعبر عن كل ما فى قلبك ؟

— قد يحدث ذلك . . ولكن فى هذه الحالة ذاتها . .

لا أظن .

— ولم ؟ . . أترين السبب لأن المجهول المنتظر قد طرق

الباب ودخل؟ .. أعني أنه لم يعد منتظراً ولا مجهولاً؟

— أيضاً .. لا .

— غير معقول .

— ولماذا؟

— لأن القلب المرهف العامر بالإحساسات كالحديقة

الغناء العامرة بالأزهار والرياحين لا يمكن أن تظل مغلقة

دون أن يطرق بابها أحد ليمتع بما فيها .

— وإذا كان الباب مغلقاً فمن أين للطارق أن يعرف أنها

عامرة بالأزهار؟

— هبات النسيم تحمل إليه العبير .

— وإذا كانت الحديقة بعيدة .. ونائية .. لا يقربها

طارق ولا يغشاها عابر .. والنسيم الذي يمر بها لا يمر

بغيرها .. أو هو يفقد العبير على بعد الشقة وطول الرحيل ..

إذا كانت الحديقة برية تعودت الوحشة والوحدة والعزلة ،

واكتفت بصادح الطير .. وهاتف الورق الذي يهتف في

جوانحها .. ويصدح بين أغصانها .. أليس من الخير أن

تسكني نفسها مؤونة التمني والانتظار؟!

وبدالي من حديثها مرارة كثيرة .. وأحسست أن

جوانحها تنطوى على شيء .

وأطرقت في حيرة لا أدري ماذا أقول . . وما لبثت أن
رفعت إليها بصرى قائلاً :

— ولكن الحديقة لا تبدو أنها كما تقولين .
وتساءلت في لطفة :

— كيف؟

— أعني أني أكاد أبصر أزهارها المتفتحة وأشم عيبرها
العطر الفواح .

وقالت في صوت ذائب :

— من هي؟

وتملكني الاضطراب وقالت في لهجة متلعثمة :

— هي . . أقصد . . أقصد . . الحديقة البرية .

وضحكت في جذل وقالت :

— إنها خيالات وأوهام . . أنت لا تدري عنها شيئاً . .

إنها ما زالت عنك بعيدة نائية .

— بل أعرف عنها الكثير .

— ماذا تعرف عنها؟

— أعرف عنها . . بريتها واستيحاشها . . وعزتها . .

وأحس في باطنها اكتئاباً وحنناً وظلمة لست أدري كنهها

ولا مبعثها . . وإن كانت بنفسى لطفة على إزالتها . . وعلى

إضاءة تلك الظلمات التي تكثف أرجاءها ، وتبديد السحب
المعتمة التي تخيم في أنحاءها .

— وما ذنبك أنت تجهد نفسك في المستوحش النائي ؟
— ليس أقرب إلى قلبي من نائيتها . . ولا أعمر من
مستوحشها . . ولا أبنع وأزهر من بريتها . . إني أحس بشئ
يشدني إليها .

وهمست في لهجة تكاد من الوجد تذوب :
— أحمأ تقول ؟

— والذي نفسى بيده . . ما أقول إلا أقل الحق .
ومددت يدي فأمسكت بيدها . ووقع نظرها على الساعة
في يدها الممتدة فسحبها بسرعة وقالت في قلق شديد :
— لقد سرقنا الوقت . . أرجوك أن تتفضل . . لقد
تحدثنا أكثر من اللازم .

وأصابني من قولها عجب شديد ، ولم أدر هناك ما يوجب
هذا القلق المفاجيء . . ولا التعجل في صرفي عنها وهي في
ذروة شعورها .

وقلت لها أتساءل في دهشة :

— ولكن . . ماذا يدعو إلى مثل هذه العجلة ؟
وقالت وقد ازداد بها القلق :

— أرجوك .. لقد اتفقنا من أول الأمر على أن
تتصرف عندما أطلب منك ذلك .

وبرغم هفتى إلى مزيد من صحبتها لم أرغب أن أسبب
لها ضيقاً أو قلقاً .. ونهضت تواء ومددت يدي مصاحفاً
وانصرفت قائلاً :

— هنا .. غداً ؟ !

وهزت رأسها قائلة :

— أجل .

وعدت إلى البيت وبنفسى خشية أكثر وقلق أشد ..
كنت برغم كل ما حدث لا أكاد أعود إلى البيت حتى أشعر
بمدى حبي لراجية .. وكانت كلما ازدادت نشوتي من الناحية
الأخرى ازداد بي القلق وازدادت الخشية وازداد التصميم
على إنهاء العلاقة الطارئة .. وأن أقي من شرّها .. علاقتى
الأصيلة الباقية براجية .. حبيبة الروح .. ومنية النفس ..
ولكنى كنت أشبهه بمتعاطى المخدر الذى لا يكاد يفيق حتى
يقرع ضميره الندم ، ويحس بمدى تورطه وخطئه وانحرافه
عن الطريق السوى .. ووجوب إقلاعه عن عادته الشائنة
فإذا ما حان موعد تعاطيه .. أقبل عليه بلا تفكير
ولا إرادة .

وكان ما بيننا قد أضحى موعداً .. لا لقاء عابراً ولا
وليد صدفة .

وكنت إذا ما حان الموعد أسير إلى الشاطئ .. كمدن
الخر .. يقصد الحان .. تحركه قدماه .. بلا وعى ولا
حول ولا قوة .

وهكذا أضحى لقاء الشاطئ من ضروريات حياتي ..
وأحس كل منا أنه يندفع نحو الآخر بسرعة الصاروخ .
كان يشدني إليها حزن يفيض بنفسها من ينبوع لا أدرك
كنهه ولا علته .. وكانت بنفسى لطفة على أن أمسح بيدي
جبينها وأنحس شعرها وأزيل أكداس الحزن الراسبة في
أعماق نفسها .. وكان أكثر ما يمتعني .. أني أصبحت على
ذلك قديراً .. وأنى بت أحمل إليها بلقائى فرحة ومنتعة ..
وأن سح الحزن أخذت تتبدد .. وبريق عينيها قد لمع بعد
خبو .. وأضاء بعد ظلمة .

لقد تغير ما بنفسها عدا شئ واحد .. كان يملأنى ضيقاً
وقلقاً وحيرة .. وهو إصرارها العجيب على أن أنصرف
في الموعد المحدد .. وعلى ألا أعرف عنها شيئاً .

وبدأ الشك يساورنى ، والريب تلح على نفسى ..
وأحسست بنوع من الغيرة الغامضة .. من مجهول يقطع على

لِقائى . . ويجعل منى مسلاة تتسلى بها إلى حين عودته .

وذات صباح أقبلت عليها وقد حملت فى جيبى جهاز
إذاعة صغير فى مثل حجم الكيف . . وجلست أمامها
متسائلا وأنا أمسك الصندوق الصغير بين كفى :

— ماذا تظنين هذا ؟

— علبة سجائر ؟

— لا .

— علبة شيكولاتة ؟

— لا . . ليس شيئاً يؤكل ولا يشرب .

وفكرت برهة ثم قالت ضاحكة :

— علبة زينة ؟

— ولا هذا أيضاً .

— قل أنت . . لقد غلب حمارى .

— اغمضى عينيك .

— وكيف أراها إذا ؟

— قلت لك اغمضى عينيك .

— ها قد أغمضت .

وعندما أغمضت عينيها بدأت أدير الجهاز . . وكنت

أعلم أن بعض الحسانى تذاع فى هذا الصباح . . وعند ما علا

اللحن فتحت عينيها وتساءلت في دهشة :

— ما هذا ؟

— راديو .

— راديو بهذا الحجم ؟

— ما رأيك فيه ؟

وتناولت الجهاز وأخذت تفحصه قائلة :

— مدهش ؟

ثم أدارت المفتاح مغلقة الجهاز .

وقلت متسائلا :

— لماذا أفضلته ؟

— دعنا نتحدث .. الوقت أضيق من أن يشغلنا فيه عن

نفسينا ثالث .. حدثني عن نفسك .

— نفسي أنا .. لست أجد فيها ما يستحق الحديث ..

حدثيني أنت عن نفسك .. اكشفي الغطاء عن شخصيتك

المغلقة المحاطة بالأسوار .. النائبة في عزلتها الموحشة .. دعينا

نتشارك في الوحدة والظلمة .

وأطرقت برأسها وخيمت على وجهها سحابة هم وأجابت

في صوت خفيض :

— لا داعي لهذا .. دع الصدر مطبقاً على ما فيه .. .

والنفس منطوية على خباياها . . . دع عنك نفسي . . . وقل لي
عن نفسك . . . من أنت؟ ! وماذا تعمل؟ ! وكيف تعيش؟
— من أنا؟ أنا . . . أنا . . .

وعبث أصبغى بمفتاح الراديو فعاد ينبعث منه اللحن وقلت
وأنا أنصت إليه :

— أنا . . . أنا . . . هذا .

— لست أفهم .

— أنا اللحن . . . واللحن أنا . . . هذا قطعة مني .

— أتعني أنك موسيقار؟

— أجل !

— عجباً ! لم تكن لدى أقل فكرة . . . وهل هذا لحنك؟

وأخذت تنصت مرهفة سمعها .

وأشرت برأسي : . . . نعم .

وانفرجت أساريرها وبدا عليها طرب شديد . وعندما

انتهى اللحن سألتها :

— أأعجبك؟ !

— جداً .

— ولكنه لم يعجبك في أول الأمر .

— أجل . . . إنني لم آبه له . . . كلحن مجهول . . . وفضلت

عليه الحديث إليك .. لأنه أحب إلى نفسي من أى لحن ..
فلما علمت أنه لحنك .. أطربني كشيء صادر عنك ، أو كما
قلت أنت « كقطعة منك » . أعلمت السبب فى تغيير رأيي ؟!
إنه أنت .

وأحسست بشووة ... وأنا أشعر أول مرة .. أن
شخصى المجرد قد بات صاحب فضل على شخصى العبقرى .
وعادت الشقراء الرقيقة تتساءل :

— وماذا تفعل الآن ؟

— أضع مجموعة ألحان لأوبرا جديدة ... لا أكاد أفرغ
منها لحظة واحدة ... وعندما أتعب من التلحين .. ألقأ
إلى القراءة .

— أتقرأ كثيراً ؟

— قدر ما أستطيع .

— وماذا تقرأ الآن ؟

— آخر ما قرأت .. رواية لكاتب نمسوى .. اسمه

ستيفن زفيج .

— لا أذكر أنى قرأت له من قبل .. ما اسمها ؟

— حذار من الشفقة .

— أأعجبتيك ؟

— جداً .

— ما موضوعها ؟

— إنها مأساة عاطفية تتلخص في أن أحد الأثرياء يعيش في قصره الريفي مع ابنته المقعدة المصابة بشلل الأطفال والتي يئس الأطباء من علاجها ، وفي نفس البلدة تهبط كتيبة من الفرسان ويتعرّف أحد ضباطها بالفتاة المقعدة في إحدى الحفلات ، ويتردد الضابط على القصر بعد ذلك لتضية وقت طيب في البلدة التي يسودها الملل ويشجعه الأب الثرى الذي أحس من وجوده سعادة لابنته فتتعلق به الفتاة ، وترداد العلاقة بينهما حتى يجد نفسه قد تورط في خطبتها بدافع الشفقة ، ثم يتبين أنه لا يمكن لها أية عاطفة من الحب ، وأنه سيدمر حياته بأن يقيد نفسه إلى الفتاة المشلولة مدى عمره . . . وينتهي به الأمر بأن يغادر البلدة هاجراً الفتاة . . . ويوخزه الندم بعد هذا فيصمم على العودة إليها . . . ولكن عند عودته يجد الفتاة قد ألفت بنفسها من فوق هاوية تطل عليها إحدى شرفات القصر بالزحف بعربتها ذات العجل ، مشتهزة فرصة وحدتها وقضت على نفسها .

و كنت أقص القصة في غير اكتراث وأنا أعبت بسلسلة المفاتيح تارة وبالراديو تارة أخرى . وعند ما انتهت منها

ورفعت بصرى إليها فراغنى شحوب شديد فى وجهها ووجدتها
قد أغمضت عينها كأنها تعاني ألماً شديداً . . ولم أملك نفسى
من الصياح مرتاعاً ، وأمسكت بيدها أجسها ضاغطاً وقلت
لها فى فزع :

— ليلي . . ماذا بك ؟

وحاولت جهدها أن تتمسك ، وضغطت على يدي بكل
ما استطاعت من قوى خائرة . . كما ما تخشى أن تتهاوى . .
وباليد الأخرى أسندت رأسها ومسحت جبينها . وبدالى
أنها على وشك الإغماء .

وعدت أسألها مضطرباً :

— ماذا بك؟! بم تشعرين!؟

وأجابت فى صوت خافت :

— لاشئ . لقد أصابني غيبان ، ولكنى الآن أحسن .

— أسبق لك أن أصبت به من قبل ؟

— أجل . . أحياناً .

— ولكن يجب أن تعالجي نفسك جيداً !!

وأجابت وهى تحاول جاهدة أن تستعيد حالتها

وتستر جمع قواها :

— إنها مسألة عارضة هينة .. سرعان ما تزول ..
لا تقلق نفسك من أجل .

وعلمت شفقتها ابتسامه باهتة ورفعت عينيها إلى الأفق
البعيد حيث تلاصقت السحب بالأمواج .. وأخذت شهيقاً
طويلاً .. ورويداً رويداً بدأت تستعيد قواها .. أو هكذا
خيل إليّ .. وكنت أنظر إليها في إشفاق صامت .. وقد
شرد ذهنها بعيداً .

وحاولت أن أقطع الصمت لأستعيدها من شرودها ..
فقلت معلقاً على حديثي الأول :

— قصة لطيفة .. وإن كانت خاتمتها قاسية .. ألا
ترين ذلك ؟
— أجل .

وكان ردّها مقتضباً .. وأوشكت سحج الصمت أن
تخيم مرة أخرى .. ولكنني عدت أدفع الحديث دفعاً :
— ولكن ما رأيك في البطلة ؟
— من حيث ؟

— إقدامها على الحب أولاً ، ثم إقدامها على الانتحار ثانياً ؟
وكنت أقول الحديث لمجرد الحديث .. وكانت تجيب
لمجرد الإجابة .. وبدا الجو حولنا فاتراً راكداً .. أنا

لا أكاد أجد ما أقول . . . وهي لا تجيب أكثر من إجابة
مقتضبة لا تتفق سبيلاً للحديث . . . ثم تعود إلى شرودها
وذو لها .

وعادت تجيب إجابتها المقتضبة بقولها متسائلة :

— مارأيك أنت ؟

ووجدت أنها زاهدة في الحديث وأنها تلقى على عبئه . . .
فاسترسلت فيه مبدياً رأيي . . . مجرد ثرثرة لا أكثر ولا أقل
فلا أخالني كنت مهتماً بالبطلة إلى هذا الحد . . . حد انتقاد
حالتها وتحليل نفسياتها . . . وماذا فعلت . . . وماذا كان يجب
أن تفعل .

قلت مشثراً :

— كل خطأ يرتكبه الإنسان في هذه الحياة . . . لا بد
أن يتحمل عواقبه . . . وكل متعة يحاول أن يأخذها الإنسان
أكثر من حقه . . . لا بد أن يردها عذاباً وألماً . . . ولقد
أخطأت الفتاة في أول الأمر . . . بأنها تطلعت إلى أكثر من
حقتها . . . فكان عليها أن تتحمل بعد ذلك نتيجة خطئها . . . إما
عاجلاً . . . أو آجلاً . . . إما بصدمة سريعة . . . أو بعذاب بطيء . . .
ولقد اختارت الطريق الأقصر والأسهل . . . فقضت
على نفسها وتخلصت من كل ما أصابها . . . وما يمكن أن يصيبها

من آلام .. ولو لم تختز هذه النهاية العاجلة .. لكان عليها
أن تواجه مصيراً مريراً وحياة مضمّنة .. مليئة بالحرمان
والياس والآلام .. حتى على أفضل الفروض .. لو أن
صاحبها قد أقدم على زواجها .. فلا أظن حياتها يمكن
أن تكون أسعد من حياة الحرمان .. إن دافع الشفقة
لايستمر طويلاً .. وستجد نفسها عبئاً ثقيلاً على زوجها ..
وهو إنسان له حق الحياة .. وحق المتعة .. فيما أن يكون
وفياً لها فتفسد عليه حياته .. وإما أن يهجرها فتفسد حياتها
هي .. إن لآمال الإنسان ومطامعه في هذه الحياة حدوداً
يجب ألا تتجاوزها .. حتى تكون محتملة التحقيق .. ولا
يكون اليأس المحتم مصيرها ومنتهاها .

لست أدري إلى متى كنت أنوى الاسترسال في ثرتي
محاولاً أن أبعث في نفسها بعض التسلية وأنشلها من هذا
الصمت الثقيل والشroud البغيض .. حتى وجدتها قد نظرت
إلى الساعة وانتفضت فجأة كأنما قد أيقظتها من سباتها هزّة
عنيفة وقالت لي في عجلة وقلق :

— أرجوك .. تفضل .. بسرعة .. أرجوك .
وكرهت طريقتها في صرفي .. وعادت الشكوك تلح
على نفسي .. والغيرة تهش قلبي .. ولكنني لم أملك سوى

النهوض والانصراف .. بسرعة .. كما أرادت .

ولكنني .. في الواقع لم أنصرف .. فقد يدت في نفسي
أمراً .. صممت به أن أكشف خبيثة أمرها .. وأعرف
الحقيقة ، وأقضى على الوسواس والشكوك .

تظاهرت بالانصراف وانذفت أحث الخطأ في طريق
العودة ، ولكنني بدل أن أستمر في طريق عبرت الطريق
إلى الرصيف الآخر .. ثم دلفت إلى الداخل متوارياً بين
البيوت المتناثرة أخوض بين الرمال والأعشاب والحجارة ..
محاوياً أن أنتقي لى موضعاً للمراقبة أتوارى فيه وأرغب منه .

وبدت أمامي الطاحونة .. بهيكلها الضخم ونوافذها
العالية فاندفعت إليها وطرقت الباب ثم دفعته في عجلة وعدوت
إلى أعلى فوق السلم الخشبي .

وفي لحظات قصار كنت أجلس وراء النافذة وقد بدا
الشاطئ أمام عيني بوضوح .. وأبصرتها من بعيد جالسة
في مكانها تتلفت حولها في قلق .

وأخذت أرقب .. وقد تلاحقت أنفاسي .. وأرهفت
حواسي .. فلم أكد أشعر بشيء أو أرى شيئاً .. سوى
شبحها الجالس على الشاطئ .

ولم يطل بي الأمر حتى وجدت سيارة تنساب في الطريق
ثم تهديء من سرعتها وتقف قبالتها .

وعصفت بي الغيرة . . وملاني الغضب . . وقد توقعت
أن يهبط منها الغريم المجهول الذي كنت مسلاتها في غيبته ،
والتي كانت تأبى إلا أن تصرفني بسرعة كلما أذف ميعاده .
ولكننى رأيت السائق قد هبط من العربة . . ومعه رجل
أسود يرتدى جلباباً أبيض . . كأنه خادم . . وتقدم الاثنان
نحوها . . وأخذنا يقتربان حتى وصلا إليها .
وكنت أرقبهما فى شئ من الدهشة وقد بدا الغضب
يهدأ والغيرة تتلاشى .

وجأة حدث ماوقف له شعر رأسى . . حدث آخر
ما كنت أتوقعه . . لقد مدّ الاثنان ذراعيهما وحملا الفتاة
بمقعدها فى صمت واتجها إلى العربة ، وهنا فقط أدركت أن
الفتاة مقعدة ، وأن بها شلل أطفال ، وأدركت كل ماقصده
بالروضة البرية الموحشة المهجورة ، وعرفت مبعث سحب
الظلمات التى تحيط بها واليأس الجاثم عليها ، وتبينت سبب
إصرارها على أن أنصرف فى كل مرة حتى لا أكتشف
مصاها فأهجرها ، وأحرمها ذلك الإحساس الفياض الذى
أغرقتها به .

وتذكرت قصة الفتاة المشلولة التي قصصتها عليها . .
وتذكرت ثرثرتي البغيضة التي علقت بها على الفتاة وأحسست
أن مطارق تهوى على رأسي . . وخناجر تمزق أحشائي ،
واندفعت في جنون أهبط السلم أربعاً في أربع . . ومرقت
من الباب كالسهم المارق ، وعدوت أتخط بين الرمال
والحجارة وشواهد القبور .

وعندما وصلت إلى الطريق وجدت العربة تتحرك . .
وصحت أستوقفها صارخاً . . والتفتت هي في دهشة من وراء
الزجاج الخلفي للعربة وندت عنها صرخة مكبوتة وبدا عليها
الارتياح .

ولكنها لم توقف العربة . . بل أخذت سرعتها تزايد ،
وهيكلها يتباعد ، وعدوت ألث وراءها لأنبثها أني أحبها
أكثر مما أحب أي إنسان في هذه الحياة . . وأن أسألها
الزواج . . أسألها عن رغبة ولهفة وحب عميق . . لاعن عطف
طارىء أو شفقة عابرة .

عدوت لأؤكد أن لها الحق في أن تأمل في كل شئ ،
وأخو من ذهنها السخافات التي صدمتها بها بثرثرتي الخمقاء . .
عن الأمل المحدود . وعن الطريق السهل للتخلص من الآلام .
ولكنني توقفت أخيراً وقمة اليأس . . والعربة تنهب

الأرض مسابقة الريح وأنا ألهث مبهور الأنفاس .
ونظرت حولى فى يأس . . فلم أبصر غير الأمواج
الصاخبة والبحر الهادر المتلاطم ، والطاحونة الخربة تقف
كالشبح الخيف باسطة ذراعها إلى السماء والريح تصفر من
حولها وتئن وتعول وترن .

وعدت إلى البيت ذاهلاً مرتاعاً . . لا تفارق ذهنى
صورة الوجه الأشقر الدقيق تكسوه لمحمة الحزن واليأس ،
وقد حملته الأيدي إلى العربة كالطائر المبيض .

كنت أشعر بمدى الطعنة القاتلة التى وجهتها إلى الطائر
الحزين البائس المقصوص الجناح . . وأنا الذى كنت أتلهف
إلى أن أربأ صدعه وأجبر كسره وأشفى قرحه وألم جرحه .
وعاودتنى صورة طير آخر صغير . . هوى من حالق
بعد أن أصابته رميته . . وخيل إلى أنى أوشك أن أصيب
الآخر بمثل رميته . . وأحسست أن رأسى يوشك أن ينفجر
وبأنى لو لم أفعل شيئاً . . لأنقذ به الضحية . . فإنى سأجن
لا محالة .

وكنت على استعداد لأن أفعل من أجل ليلى المسكينة
كل شئ . . كنت على استعداد لأن أفتديها بروحى ، وبأعز
ما أملك . . ولكن التضحية بروحى لم تكن تغنى عنها شيئاً

ولذلك لم يبق أمامي .. إلا أعز ما أملك .. أعنى راجية .
كان ذلك هو السبيل الوحيد .. والعلاج الحاسم الناجع
السريع .. كان عليّ أن أفتديها بأى ثمن .. ولو كان
ذلك الثمن راجية .. بكل ما بيننا من موثيق وعهود ، وكل
ما يجمعنا من سعادة وهناء .

كل ذلك هان على نفسي في سبيل شئ واحد .. هو
افتداء لسبلى وإنقاذها .. ولم تكن المسألة بالعمل السهل ،
ولا كان الإقدام على تنفيذها بالأمر الهين .. كنت أعلم
أى صدمة سأصدم بها راجية وأى فجيحة وخذلان أليم
سأسببه لها .. ولكنى كنت أعلم أيضاً أن كل ذلك الثمن
الضخم .. يرخص إذا ما قيس بالحياة التى سأفتديها به .

وفى نفس اليوم أقدمت على تنفيذ ما عقدت العزم
عليه .. وبذهن شارد وخطا متثاقلة .. ذهبت إلى راجية ..
وأنهيت الأمر .. وقد صممت الأذن عن كل رجاء ..
ووأدت فى قلبى كل إحساس بالحنين وقتلت فى نفسى كل
شعور بالتخاذل أو التراجع .

وعدت إلى الدار وأنا أشعر — برغم مأسببته من فجيحة
لراجية ولنفسى — أنى قد أزحت عنى جزءاً من العبء
الذى يتقل كاهلى وينقض ظهرى .. وكان عليّ أن أزيح

الجزء الثاني بأن أذهب إلى ليلي وأنبئها . . أني مصمم على
زواجها . . وأنى لا أحس لها بأى رثاء ولا شفقة ، بل
أحبها . . بكل ما فيها . . أحبها كما هي . . ولا أريد عنها بدىلاً .
ولم أكن أعرف كيف أصل إليها . . وكان على
أن أنتظر ليلتي . . حتى يصبح الإصباح فأذهب إليها حيث
تعوّدت أن ألقاها . . وأنبئها بكل ما أريد .

ولا أظننى فى حاجة لأن أقول أن النوم قد استعصى
علىّ ولم يقرب جفنى . . وأنى ظللت طول الليل أقلب على
الفراش مفتوح العينين . . وأن الصور الثلاثة كانت تتواتر
على ناظرى الواحدة بعد الأخرى . . صورة ليلي المشغولة
البائسة ، وصورة راجية الباكية المستعطفة ، وصورة ليل
الصغيرة الهاوية من عل . . تهتف بى . . إياك أن تفعل بليل
العزيزة ما فعلت بى .

وقبيل الفجر . . أثقل الجهد جفنى فرحت فى غفوة .
ورأيت فيما يرى النائم أنى أسير وراجية على ربوة عالية
تشرف على البحر ، وعلى حافة الربوة أبصرت فتاة تحمل
طفلة تشبهها وقد أخذت تدللها وتقبلها ثم أحسست كأن ريحاً
عانية تهب من الشاطئ والتفت ورأى فإذا بمروحة ضخمة
تدور بسرعة هائلة وقد اندفع منها الهواء بشدة مروعة . .

ورأيت كل ما حولى يتطاير وقد أخذت الريح المنبعثه من
المروحة تقذف بالحجارة والرمال كأنها الحمم تخرج من
فوهة بركان .

وسمعت صرخات استغاثة صادرة من حافة الربوة
ونظرت فإذا بالفتاة والطفلة توشكان أن تقعا فى الهاوية
وقد تعلقتا ببعض الأعشاب تهتز تحت أيديهما .

واندفعت لإتقاذهما عندما أبصرت بصخرة كبيرة
توشك أن تهوى على راجية ورأيتهما تتعلق بى متوسلة ألا
أتركها . . وأخذت الصخور تهوى والرياح تشتد والموج
يعلو وأحسست أن يدى راجية قد أفلتت منى وأنى اندفعت
أعدو وسط ضباب كثيف لا أسمع فيه سوى الصرخات التى
تتصاعد من كل فج . . وأنى أصبح بصوت مبجوح لا يكاد
يسمع : « ليلي . . ليلي » .

وفتحت عيني . . وأنا أصبح بليلى . . ورأيت ضوء
الصبح قد تتسلل من النافذة . . فنهضت فى عجلة وارتديت
ثيابى واندفعت إلى الطريق .

حشث الخطأ تارة وانطلقت أعدو تارة . . حتى وصلت
مكروب الصدر مبهور الأنفاس وأشرفت على الشاطئ . .
دون أن يلوح هيكلها لناظرى وأخذت أقترب . . أقترب . .

وكلما ازددت اقترباً .. زادني الخوف واليأس .. ولكن
الأمل لم ينقطع .. كان بنفسى خيط واه من رجاء .. كنت
أقول .. ربما وجدتها .. وراء هذه الصخرة ، أو تلك ..
أو ربما لم تأت بعد .

ووقفت أخيراً في الطريق قبالة المكان الذي تعودت
أن تجلس فيه ثم قفزت السور المنخفض واندفعت أخوض
في الرمال وما زال بي بعض الأمل .

ونجأة وجدتنى توقفت .. وأحسست بعينيّ تثبتان
على الرمال وتكادان من فرط الحملقة تخرجان من
محجريهما .

فقد أبصرت ما لا أجروء على ذكره .

أبصرت حقيبتها وقد بدا منها طرف « الإيشارب »
والنظارة السوداء .. وبجوارها استقر على الرمال .. كتاب
كتب على ظاهره « حذار من الشفقة » .

ثم أبصرت أثار زحف على الرمال تمتد حتى حافة
البحر .. وبعينيّ المأخوذ المبهوت عدت أدقق البصر في
الكتاب وتذكرت الطريقة التي انتحرت بها الفتاة المقعدة
الزاحفة بعربتها على الصخرة إلى الهاوية .

وخيل إلى أن ليلى المسكينة تهمس بي قائلة وهي تزحف
على الرمال إلى البحر : « حذار من الشفقة » .

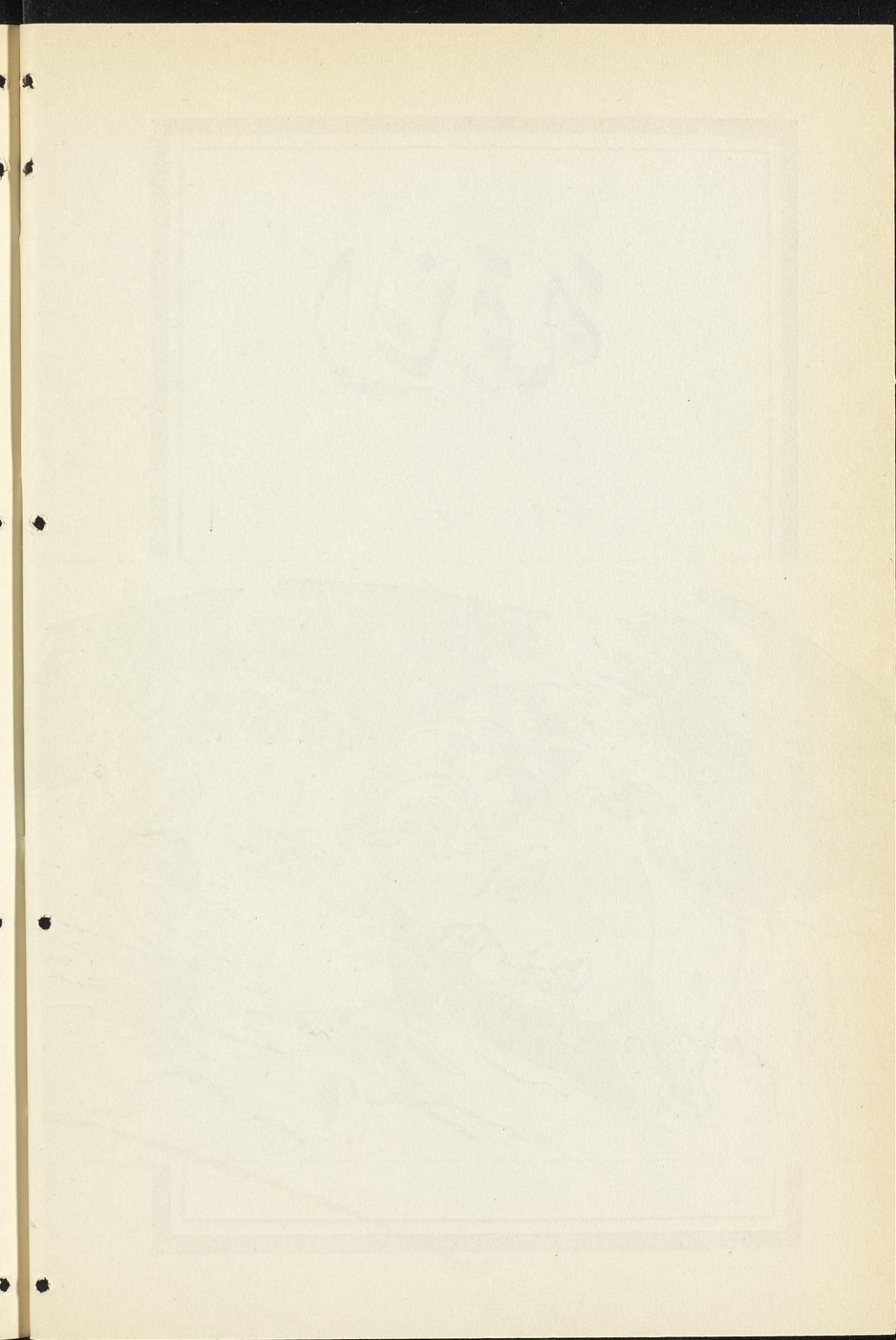
وانطلقت مني صرخة مجنون .. وتشنجت يداي وأنا
أود أن أطبق بهما على شيء ، وعدوت نحو البحر أصبح
بها والريح تبدد صرخاتي « ليس ما بي شفقة .. إنه حب ..
حب .. حب » .



الطائفة

للطيب





وعاد إبراهيم يكرر كلمة « إنه حب .. حب .. » ..
وشرد ببصره من النافذة وبدا عليه الإعياء التام .

وران الصمت برهة .. ثم مد توفيق يده وأخذ يرت ساق
إبراهيم برفق وقال له في صوت هادىء النسبرات مليء بالثقة
والإيمان وهو يهز رأسه هزات خفيفة :

— لا .. لا إبراهيم .. لا .. إنه لم يكن حباً فى أية
لحظة من اللحظات .. لقد كان شفقة .. ولا شئ أكثر من
شفقة .. ألم تتل أنت نفسك أن أول ما جذبك إليها إحساس
بالشبه بينها وبين أختك الصغرى !! لقد كان هذا هو ما دفع
بك إليها أول الأمر .. ثم أخذت اللفسة عليها تتزايد
لإحساسك بحزنها .. وبأسها ؛ ولرغبتك الجارفة فى مساعدتها
وتبديد ظلمات اليأس من حولها .. يدفعك إلى ذلك شعور
خفى بالرغبة فى التفكير عن جرم قديم ما زالت بقاياها راكدة
فى ذهنك .. كامنة فى باطنك .. وكنت كلما زاد إحساسك
بحزنها وميائها نحوك وحاجتها إليك .. زدت تعلقاً بها ..
ورغبة فى مساعدتها .

كنت ترى فيها أختك ليلي .. وكان من العسير عليك
أن تتخلى عنها بعد أن اطمأنت إليك ووجدت فىك ملجأها
وملاذها .

وبلا قصد منك .. وعلى غير إرادة .. تورطت في
الحديث عن الفتاة المشلولة وأبدت رأيك في انتحارها ..
ووجدت أنك قد رميت بسهمك الطائش عزيزاً آخر .. كان
بودك لو كفرت بغوثة ونجدته عن إصابتك للعزير الأول ..
واندفعت في جنون تبحث عن وسيلة للإنقاذ وصممت على أن
تفتديها بكل شيء .. بنفسك وسعادتك وحبك ومستقبلك ..
فأقدمت على فسخ خطبتك براجية .. حتى تستعيد حريتك ..
وتكرس حياتك لإسعاد ليلي .. مكفراً بذلك عن
جرميك .. نحو الاثنين .

هذا هو ما أردته أنت .. ولكن القدر أراد شيئاً آخر ..
ونحن يا أخي لا نستطيع في حياتنا أن نسيطر على إرادة
القدر .. ولا نملك إلا أن نؤدى واجبنا في حدود قدرتنا ..
ثم نخضع لما يفرضه علينا القدر صاغرين .
وأنت مخلوق شديد الحساسية .. مفرط يقظة الضمير ..
يثقل عليك كل إحساس بشقاء غيرك .. وتتوهم أنك قادر
على إزالة هذا الشقاء وأن تركه تقصير .
إنك في كل ما فعلت .. لا لوم عليك ولا تثرير ..
لقد فعلت أقصى ما تستطيع .. لإزالة شقاء غيرك .. ولكن
كما قلت لك لا تملك التصرف في مصائر البشر .. فليس هناك

ما يدعو لأن تشقى نفسك بأخطاء القدر . . إن واجبك الأول هو إزالة شقاء نفسك . . والتماسك والتجدد والمقاومة . . وأن تزيل بذلك شقاء مخلوقة أخرى . . هي راجية التي كانت الضحية الحقة في كل ما حدث . . راجية التي قلت عنها إن حبك لها هو الأصيل الدائم الباقي . . إنها تستحق أن تكافح من أجلها مرضك وأن تستعيد قواك . . لكي تسعد حياتها .

وصمت توفيق . . وهمس إبراهيم وقد أسند رأسه بكفه وبدأ كأنما يوشك أن يتهاوى إلى الأرض :

— راجية . . راجية . . أين راجية ؟

وكان هذا آخر ما فاه به . . فقد انهارت قواه . . وراح في

إغماءة ، وأسنده زكي على صدره وهو يمس جبينه قائلاً :

— إن حرارته مرتفعة . . يبدو أنه محموم .

ونقل إبراهيم إلى داره ورقد على الفراش يروح تحت

عبء الحمى .

وكان أول ما فعله توفيق بعد عودتهم أن أنبأ راجية

بما حدث . وتملكتها الدهشة وهي تنصت للقصة يقصها عليها

توفيق . . ثم أخبرها في النهاية بأنه قد أصيب بحمى وأن زكي

سيتولى علاجه وأنهم قد أرسلوا في طلب ممرضة للسهر عليه .

وهمست راجية وهى تكفكف عبرات انساب

من عينيها :

— لا داعى للهمرضة . . سأتولى أنا السهر عليه .

وكانت سيدة تقف إلى جوارها فقالت معترضة :

— ولكن . . ماذا يقول جدك . . عندما يعود ؟

وأجابت راجية :

— لن يقول شيئاً . . لقد سبق أن قلت له أنه ليس هناك

من يستطيع أن يمنعنى من أداء واجبى . . إني لن أترك إبراهيم

لحظة واحدة . . إن جدى يعرف أنى لا أذهب إليه للهنز أو

للعبث بل لأؤدى واجبى فى إنقاذه . . وهو لا شك يكره أن

أتخلى عنه فى شدته وأتركه فى محنته .

ومرت الليالى ثقيلة بطيئة . . وإبراهيم مغرق فى غيبوبته

وراجية ترقبه بمقلة أرقها الحزن وأضناها البكاء والسهر .

ولم تكن تكف عن التمتة بالفاحة وبما تحفظه من

الآيات وعن دعوة الله فى توسل أن يبيله من مرضه . . فى

رجاء وأمل . . وقد أخذت تسائل نفسها :

ترى ماذا سيقول عندما يعود إلى وعيه ؟

أتره سيعرفها أم سينكرها ؟

ولكن بأى حق تبقى إلى جانبه . . وقد قطع هو كل

ما بينهما؟ ولكن ألم يكن ذلك لسبب؟ ألم يكن معذوراً؟
أجل.. ولكن ذلك لا يمنع أن القطيعة مازالت قائمة..
وأنها بوجودها ستفرض عليه نفسها.
إن خير ما تفعله هو أن تتركه بمجرد أن يدنو
من الشفاء.

ولكن هبه لم يسأل عنها!!
أبعد كل هذا.. تفقده مرة أخرى؟!
ولكنها لن تفقده.. إنها ستعود إلى سابق أحلامها به
وأوهامها فيه.. ستعود إلى القناعة بمشاركة الآلاف في
أحلامه.. وبسماعه من بعيد.
أجل.. إن هذا هو خير عزاء لها.

ليت الله ينعم عليه بالشفاء.. وليفعل بها ما يفعل..
وقبيل الفجر.. أفاقت راجية من غفوة ألت بها..
وفتحت عينيها في خشية وهي تنفض عنها النوم.. وتطرد
من ذهنها بقايا حلم بغيض طاف بها في غفوتها.
ثم نهضت متسللة على أطراف أصابعها.. واقتربت من
إبراهيم تطمئن عليه وتنصت إلى أنفاسه وترقب صدره يعلو
ويهبط في هدوء وتطلب من الله اللطف والرحمة.
وفي آة أبصرت جفنيه يرتجفان ثم يفتحان ببطء

وبعينيّه تحملقان في سقّف الحجره بلا وعى ولا إدراك .
وكتمت أنفاسها وهي ترقبه في خوف شديد .
أتراه سيعود إلى سابق حالته من الزهول والشرود
والتجاهل والإنكار ؟

اللهم لطفك ورحمتك .

وتحركت مقلّتها يمنة ويسرة . . لتقع على حياها المتلهف
المشدوه . وشع منهما بريق معرفة وإدراك وانفجرت
أساريه وارتسمت على شفّيه بسمة خفيفة وانحنت عليه
برفق وهمست به في صوت ذائب : — إبراهيم !
وأجابها هامساً : — راجية .

ولم تستطع أن تمنع عبراتها الصامته من الانسياب .
وأمسك إبراهيم بيدها وضغط عليها ويقربها من فمه :
— لا تبكي يا راجية . . إني بخير .
— أجل بخير . . وستكون دائماً بخير .

وأخذ يتحسس يدها في حنو وشغف . . وأحس بأن
الخاتم قد نزع من أصبعها فسألها في شيء من الدهشه :

— أين الخاتم يا راجية ؟! أين خاتم الخطبة ؟!
وأجابت راجية في لهجة متلهفة : — أتريدني أن ألبسه ؟
— طبعاً . أعيديه إلى أصبعك ، ولا تنزعيه أبداً . سيبقى

في يدك ، ما بقيت لى أنفاس تتردد ، أنت الروح . وأنت . .
 — صه . . لا تتعب نفسك بالحديث .
 — دعيني أنبئك بكل شيء . . دعيني أعتذر .
 — لا تقل شيئاً ولا تعتذر عن شيء . . ليس هناك أبدأ
 ما يدعو إلى الاعتذار ، ولو كان ، لكنت أسبق إلى الغفران .
 — ولكن أريد أن أقول . . .
 — أنا أعرف ما ستقول . . إني أسمعه . . دون أن
 تقوله . انتظر لحظة حتى أريك .
 وغابت راجية عن الحجرة برهة ثم عادت إليه . . وبعد
 لحظة . . علا صوت المسجل من الخارج يهتف : — أين أنا؟
 — بين ذراعى .
 واستمرت المناجاة . . عذبة حنوناً . . وقد أخذ الاثنان
 ينصتان إليها فى نشوة . . والشمس ترسل أشعتها من خلال
 النافذة . . والنسيم الرطب يحمل إليهما عطر الورود .
 وأشرفت المناجاة على النهاية . . والصوت يقول :
 — لم يعد لى غنى عنك لحظة واحدة . . أشعر كأنى
 لا أستطيع تنفس الهواء إلا إذا كان ممزوجاً بأنفاسك .
 ومد إبراهيم ذراعيه وقرب من أنفها أنفه وأحس من
 أنفاسها نشوة عجيبة وعاد الصوت يهتف فى رقة :

— إن حياتي مستمدة منك .. أنت أحد عناصر الحياة
لدىّ بل أنت عنصرها الأول .. بغيرك لا أستطيع الحياة ..
لا أستطيعها أبداً .. أبداً .

وصمت الصوت وهمست راجية :

— أتريد أن تقول أكثر من هذا ؟

وأطبق إبراهيم على شفقتها وهو يهمس : لنبدأ من جديد ،
وهمست راجية : — أين أنا ؟

— بين ذراعيّ .

— ليتني أبقى بين ذراعيك دائماً .. ليتني لا أفتح العين
حتى يبقى الحلم إلى آخر العمر .

— أنت لست حلماً ، إنك الواقع .. إنك الأصل ،
وغيرك ظلال وأوهام وأضغاث أحلام .

— لا يا إبراهيم . غيري باق في قرارة نفسك . إنك تحبه
وأنا أيضاً أحبه .. إنك لن تنسى ليلى أختك ولا ليلى الثانية ،
ولن أنساها أنا .. فهما انعكاس لنفسك المرهفة الطيبة ..
وصدى لضميرك الحى الخير .. لن ننساها أبداً .. وعندما
ننجب أبنيتنا الأولى سنسميها « ليلى » .. حتى تكون أمانيتنا
الدائمة وهدفنا المشترك وحتى نقول لها كلانا « فديتك يا ليلى » .



فهرس

٥	الإهداء
٦	مقدمة
٩	الفصل الأول — رجل لا يدري
٤١	» الثاني — روح في حقيبة
٧١	» الثالث — جمره في الماء
٩٩	» الرابع — ما في القلب باق
١٢٧	» الخامس — بلا رجاء
١٦٩	» السادس — مقيم في الذاكرة
١٩٧	» السابع — ثقة وإيمان
٢٢٥	» الثامن — المعركة تبدأ
٢٥٧	» التاسع — وجهة نظر
٢٨١	» العاشر — نهاية تجربة
٣٠٩	» الحادى عشر — ليل الصغيرة
٣٣٥	» الثانى عشر — نائمة بين القبور
٣٧١	» الثالث عشر — ليل الثانية
٤١٧	الخاتمة

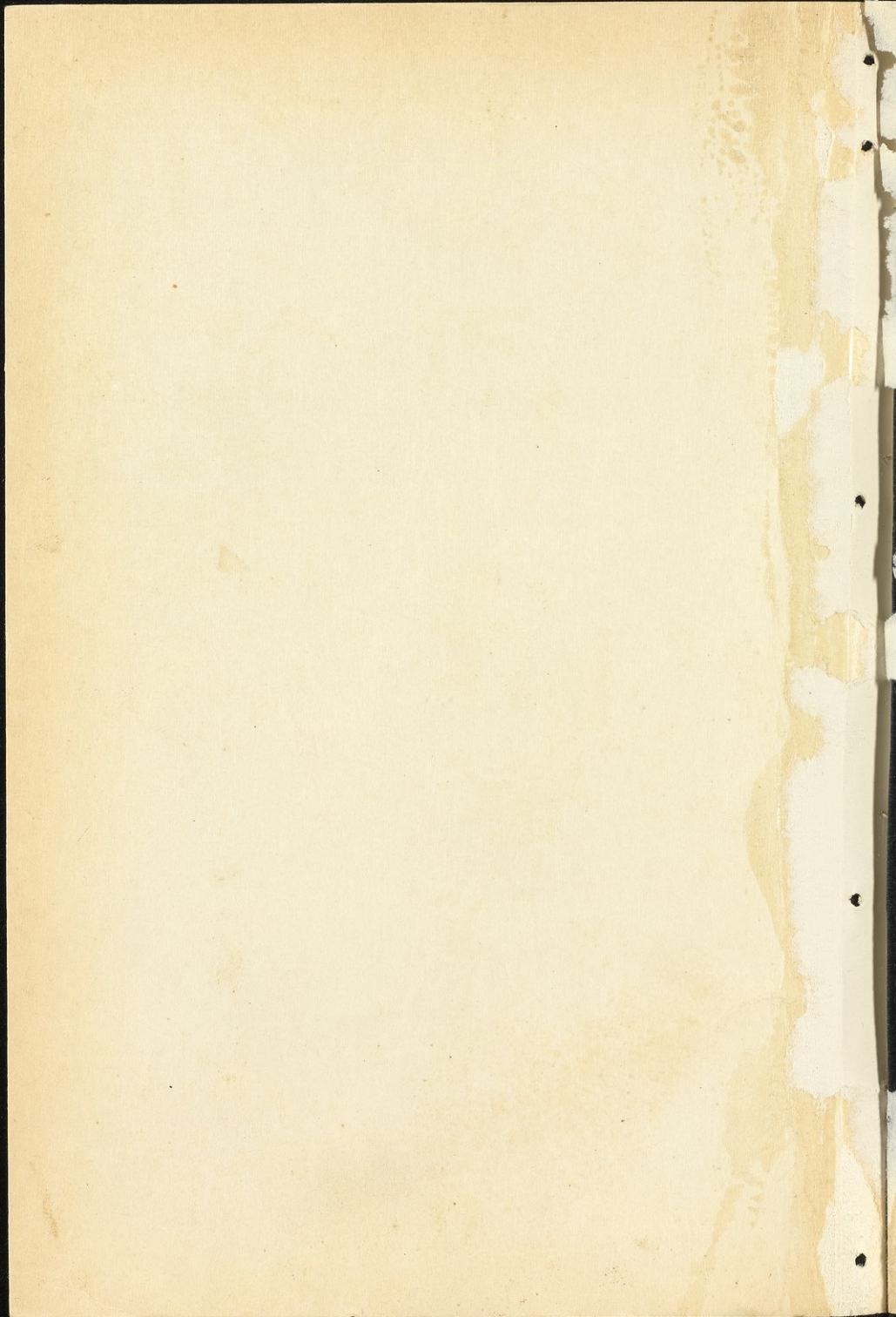


تطلب جميع مطبوعاتنا

من وكلائنا

مكتبه المثني ت ٣٥٨٨	بغداد
اسكندرية ت ٢٣٥٨٨	دار المعارف
بيروت ت ٢٤٥٠٣	المكتب التجاري
دمشق ت ١٢٢٦٤	دار اليقظة العربية
مراكش ت ٩٠٠-٧٧	دار الكتاب بالدار البيضاء
الجزائر ت ٣٩٨-٩٩	مكتبة النهضة
الخرطوم ت	» » السودانىة
الايض ت ٢٨٤	دار كردفان
تونس	المكتبة الأدبية
جدة	مكتبة الثقافة
الحجاز	مكتبة عرابى

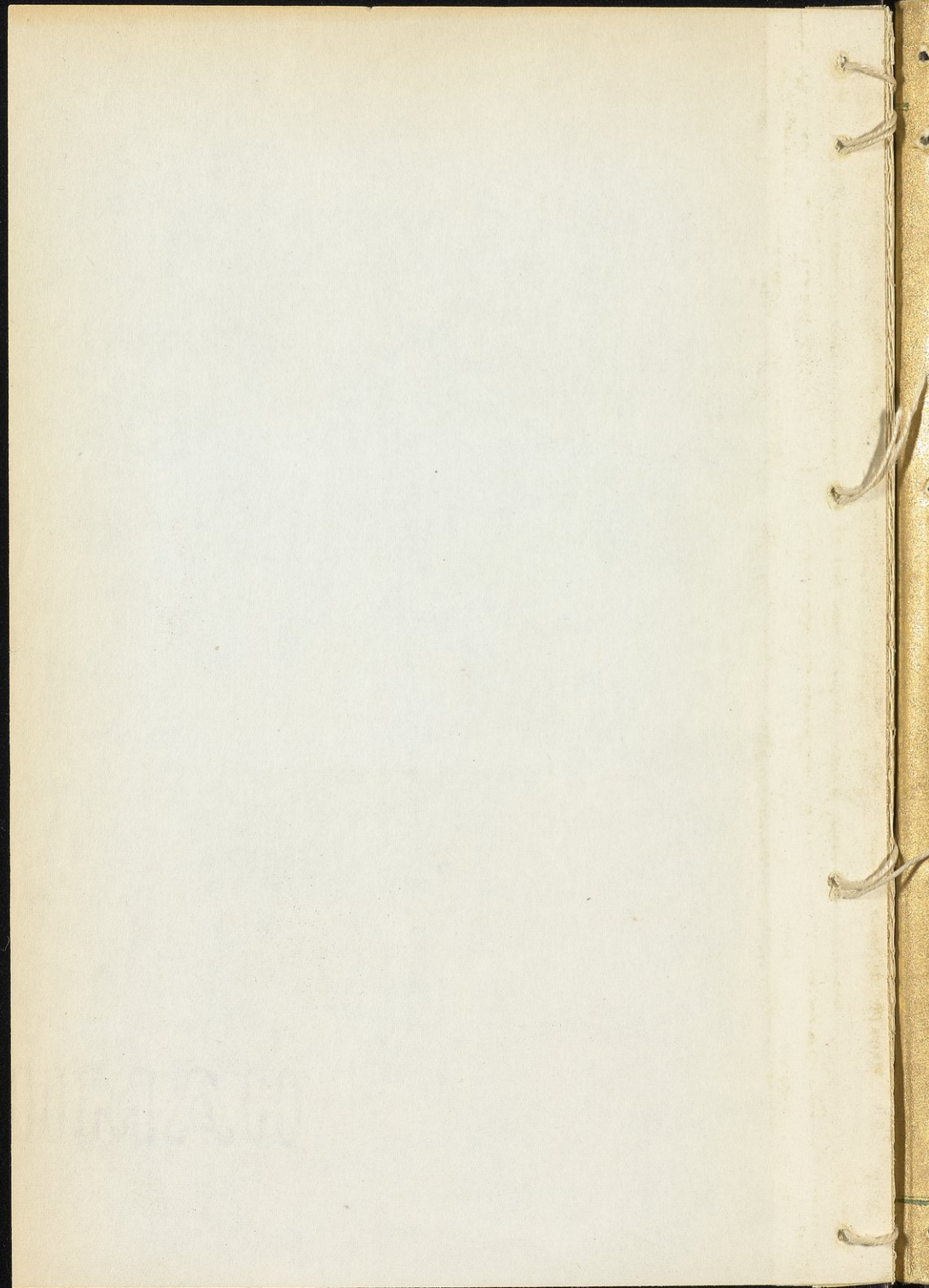


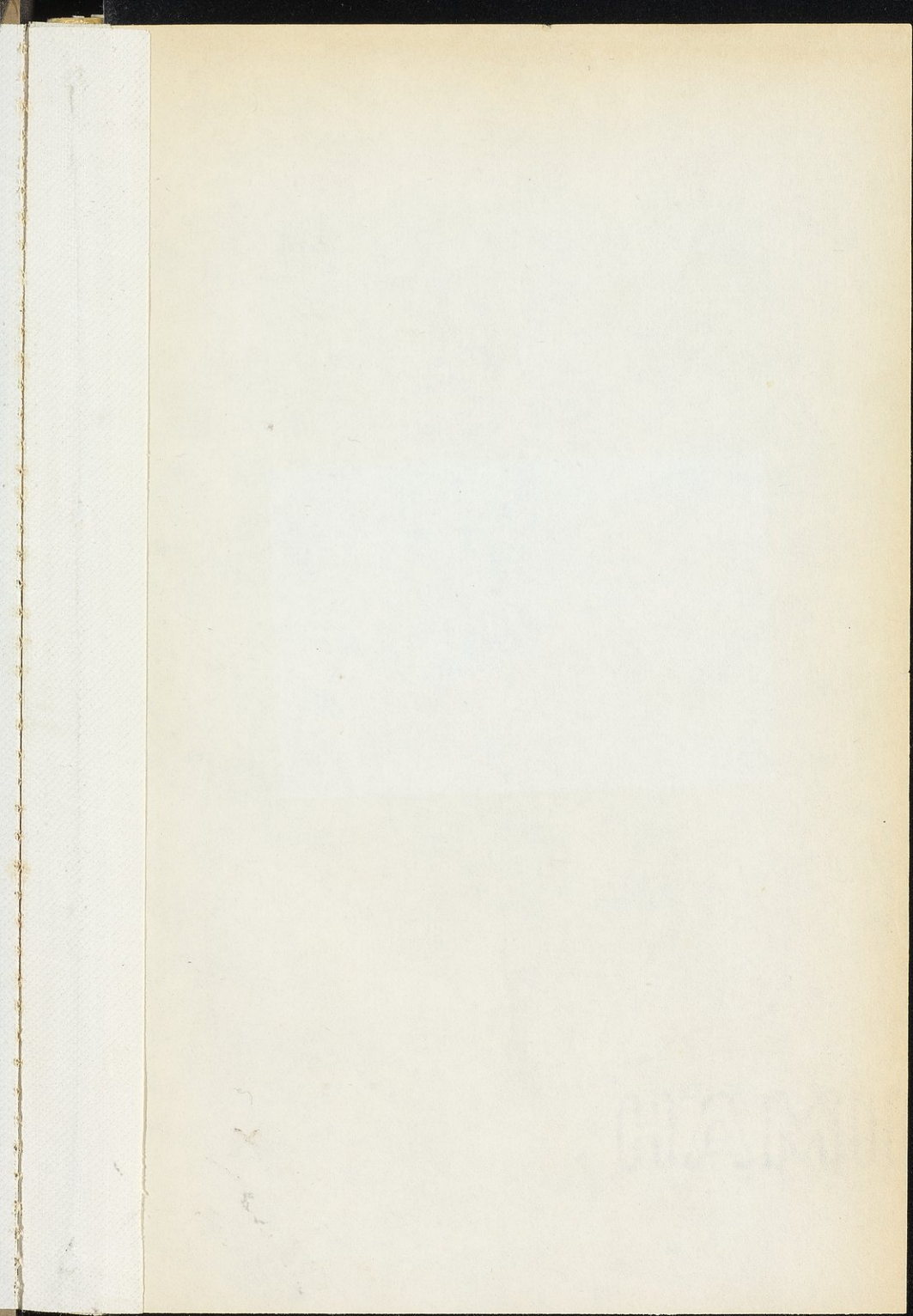


الناشر مكتبة الخانجي

مكتبة الخانجي

شارع الاميرة فاطمة ١ - القاهرة
تلفون ١٥٥٥٥ - ١٥٥٥٦





LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library



32101 072235888